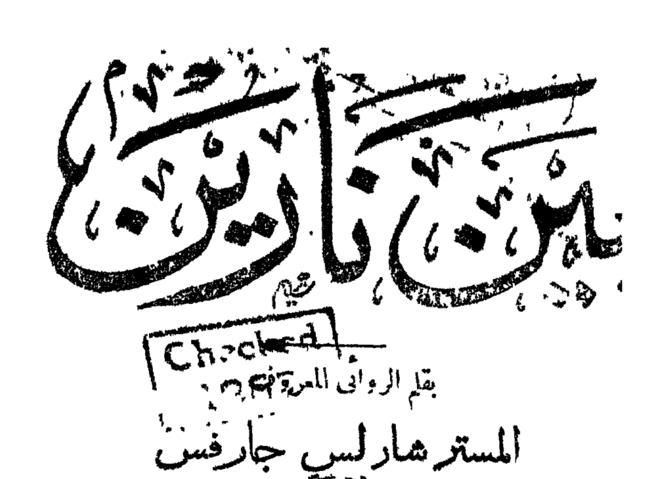


بين نارين

بقلم الروائي المعروف

المستر شارلس جارفس

تعريب

محمد علي

بجريدة الاهرام

(نشرت تباعا بجريدة الاهرام)

١٣٤٣ — ١٩٢٨

الفصل الا

في محلة أطلقوا عليها اسم محلة «حنة الراقصة» اقيمت خانة من الاخشاب وقماش الخيم تسمى « صالون الالدرادو» يتردد عليها عمال المناجم المجاورة للهو والشراب . وكان صاحب الحانة جالسا وراء « البار » كرسي على عتيق وقد مال في مقعده الى الوراء ينشد الراحة والسكون استعدادا للعمل الشاق الذي يقوم به ابتداء من وقت الغروب

وكان « الصالون» في هذا الوقت خاليا من الزبائن الذين يترددون عليه . ولكن الشمس كانت قد أخذت في المغيب فلا تمضي فترة وجيزة حتي يندفع المعدنون لاطماء ظمائهم ، تتوق انفسهم الى كل ما قد ينسيهم اعمالهم اليومية الشاقة

وقد أطلقوا اسم « حنة الراقصة » على هذه المحلة لان الرجل الاول الذي اكتشف المنطقة وعرف مافيها من المعادن ، كان متزوجا بامرأة تنتمي الى تلك الطائفة الغريبة التي اشتهرت بالرقص .وكان الرجل فظا سكيرا فاساء معاملة زوجته وسامها سوء العذاب اثناء حياتها معه واراد ان يكفر عن ذنبه بعد وفاتها فاطلق على المحلة اسم «حنة الراقصة » تخليدا لذكرها

لقد لاحظ بعضهم بحق أن في وسع المرء أن يخفي معالم جريمة يرتكبها ، أو يكتم شخصيته عن الناس ، أو ربما استطاع ان يخفي جنسيته ولكن هناك سرا لا يستطيع أحد اخفاءه رغمه به الوجود الذهب [illegible] لم يمض [illegible] اكتشاف معدن الذهب في وادي

« بلاك هورس » حتى أخذ الرجال يتقاطرون عليه فاقيمت هناك محلة ظهرت فيها معالم الحياة والنشاط بعد ان كانت المنطقة كلها جرداء موحشة ، وزاد فى نشاطها وجود الالدرادو

وكان الرجل النائم خلف « البار » هو صاحب الحانة الاصلى ، وكان قد جاء الى المحلة — مثل معظم الآخرين — من مكان لا يعرفه احد وكان شيخا نحيل الجسم ضعيف البنية فتنبأ بعضهم بانه لا يستطيع أن يدير الحانة أكثر من اسبوع اخر ، لان هذه المهمة تحتاج الى يد قوية لا سيما فى محلة مثل محلة « حنة الراقصة » كل رجالها أوجلهم من العمالقة الاشداء

على ان بارشمنت جو — وهو فيلسوف المحلة ومحام عتيق — هز رأسه الاشيب عند سماع هذا القول وتبسم قائلا

— نعم ان السيد جيم — وهو الاسم الذى اطلق على صاحب الحانة قبل ان يمضى على وصوله الى المحلة نصف ساعة — ان السيد جيم ليس من العمالقة ولا هو من الرياضيين [illegible] وفى وسع اضعفكم جسما ان يخمد انفاسه بكل سهولة ، ولكنه يستطيع على الرغم من كل هذا ان يقهر اشدكم قوة واضخمكم جسما

والواقع صدق الرجل فيما قال فقد نشب عراك فى الليلة الاولى من افتتاح « الالدرادو » بين بولى يانس و[illegible] من اشقياء العمال متبادلا الشتائم فى البداية ثم تبادلا الضربات واللكمات بعد ذلك [illegible] يحطمان ادوات الحانة ، فاخرج السيد جيم مسدسه من جيب سرواله [illegible] وصوبه اليهما قائلا [illegible]

— [illegible] انشأت هذا « الالدرادو » قصدت

ان اجمله قاعة تقضون فيها وقتكم فى الشراب ولعب الورق . ولكن يلوح لى انكم تزعمون اننى انشأته ليكون ساحة للمشاحنة والنزاع وهى غلطة ارتكبتموها ولكن فى وسعكم ان تقلعوا عنها لان خير الرجال يظهر فى حالة تدعوا الى السخرية والضحك وهو ملقى على ظهره وقد اخترق الرصاص صدريته

وكان فى « الصالون » مسدسات اخرى غير الذى حمله صاحب الحانة فى يده البيضاء النحيفة ، ولكن من الغريب انه لم يجرؤ واحد منهم على اشهاره ، ومنذ ذلك الوقت الى الآن كانت اشارة من السيد جيم تكفى لاخماد كل مشاجرة فى مهدها . وقد كان فى وسع صاحب الحانة ان يصير الزعيم المحبوب ومحلة « لرافصة [illegible] » [illegible] ذلك ، ولكن تبين بعد قليل ان الرجل لا يريد ذلك ومجانبته للاكثار التحفظ والتكتم فى [illegible] الاجتماعية و[illegible] بالعمال وكان ذلك سببه فى وضعه فى مكانة منفردة فوق الآخرين

على ان شاح محبة الناس الذى رفض الرجل ان يرتديه [illegible]

على اذنه ، لان [illegible] وصل الى المحلة [illegible]

نقيض [illegible] قوة الجسم [illegible]

الاوقات — [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فتح السيد جيم عينيه عند ما استيقظ من سنة النوم التى اخذته فرأى باب الحانة — وهو من قماش الخيم — يفتح فى حذر وشاهد فتاة تطل منه . وكانت الفتاة صغيرة الجسم ولكن لم يخف وشاحها الذى غطت به رأسها ولاثوبها الخشن الذى ارتدته ، رشاقة قوامها نعم لايستطيع اشد المداهنين لها من المعجبين الكثيرين بها ان ينعتها بالملاحة أويصفها بالجمال ولكن كان فى جسمها الصغير وعينيها اللامعتين وشفتيها الرقيقتين مايملك عليك مشاعرك ويقبض على زمام عواطفك

وكانت الفتاة تدعى فوب وليد ، ولكن لم يعرفها احد الا باسم فينى . قد نزحت الى المحلة مع والد اضناه الضعف وأم خائرة القوى وقد توفى كلاهما ولكن ظلت فينى فى المحلة فتاة لايحميها شىء غير روحها التى لاتعرف معنى الخوف او الوجل واستقلالها وأقدامها اللذين كانا لها درعا يقيها كل شر وزيادة

أمنت الفتاة عند ما رأت الرجل مغمض العينين خلف « البار » فانسلت الى الداخل ثم أخرجت سترة رجل من تحت ابطها ووضعتها في رفق على المنضدة ثم ارادت الانصراف فى سلام كما دخلت ، ولكن مد السيد جيم ذراعه وأمسك يدها والسترة معا ثم قال وهو يقبض على اليد التى تحاول الافلات منه

— هالو فينى ، ماهذا ؟

فقالت الفتاة فى شىء من الخجل والتحدى معا

— هذه سترة رالف . لقد تمزق ظهرها وهو يتشاحن فى ذلك اليوم مع بللى يانس . دع يدى

— بعد لحظة يافينى . علام كان يتشاحن ؟

— لم يكن هنا مايستحق المشاحنة . جذب ياتس اذن ابن حنكين ولما كان راف مغرما بالطفل — بل بجميع الاطفال — فقد القى أدواته وذهب الى ياتس فى الحال ، ان هذه عادة راف

فقال والد الشاب وهو يتبسم ابتسامة تشف عن الملل

ـ نعم ان هذه عادته التى ستسبب له كثيرا من المتاعب فى المستقبل ولكن لماذا لم تحملى السترة الى الكوخ يافينى ؟ وعلى ذكر ذلك اقول ان عملك هذا مكرمة عظيمة منك لايستحقها راف على ما أعتقد

تجاهلت الفتاة عبارات الشكر التى وجهها الرجل اليها وقالت

ـ أخذتها خفية من الكوخ دون ان يرانى . وقد خفت الآن ان احملها الى هناك خشية ان يقبض على وقلت اذا اتيت بها الى هنا حملتها على ذراعك الى الكوخ لتضعها فى مكان يراها فيه . لااريد ان يعلم انى اصلحتها

فأومأ صاحب الحانة برأسه وقال

ـ سوف لايعلم شيئا من ذلك . ولكن لم تخفين يابنى ؟ ان راف لايغالط فى معاملاتك

حولت الفتاة رأسها جانبا وعضت شفتها وأرخت اهدابها السوداء الطويلة ثم تمتمت قائلة

ـ كلا ، ولكنى لا أريد ان يظن انى . . . اننى مثل غيرى من الفتيات الاخريات اللاتى يتهافتن عليه

فقال الوالد وعلى ثغره ابتسامة تنم على كثرة التأمل والتفكير

ـ لاريب انهن يتهافتن عليه لان راف ، لسوء حظه ، قد ورث محاسن الأسرة . . .

كف الرجل عن الكلام فجأة ولزم التكتم فاجابته الفتاة فى شىء من الغضب

— ولكنه لا يشبهك فى شىء

فضحك ضحكة رقيقة وقال

— كلا . اننى الخروف الاسود فى قطيعنا ولكن اخبرينى ، اى بنيتى فينى ، لماذا تحملين نفسك مشقة اصلاح سترة راف ؟

امسك الشيخ ذراعها وحول جسمها نحوه فى رفق ونظر فى عينيها فقابلت نظرته فى تحد وجرأة لحظة ، ارخت بعدها اهدابها وشددت الضغط على شفتيها كأنما ارادت ان تخفى اضطرابهما ، فترك السيد ذراعها وهز منكبيه ثم قال وهو يخاطب نفسه اكثر من مخاطبتها

— حسنا ، لم لا ؟ ان فيك زوجة صالحة لمعدن ... او لنقل زوجة معدن صالح ـ وهذه حالة راف وكل ما فيه

ابرقت عينا الفتاة وقالت بلهجة التحدى

— ليس لك ان تزعم ...

هز الرجل رأسه فى بطء وهو لا يزال يبتسم ثم مد يده ليتناول لفافة من التبغ قائلا

— لست ياعزيزتى فينى شيخا طاعنا فى السن كما يلوح لك ، ولكنى على كل حال قد بلغت من العمر ما يساعدنى على ادراك حال فتاة تصلح سترة رجل ولا تريد ان يعلم انها هى التى فعلت ذلك

دفعت الفتاة رأسها الى الوراء وشرعت تقول بصوت فيه رنة الغضب

— اذا زعمت اننى اتودد الى راف كالفتيات الاخريات ...

فقاطعها فى رفق قائلا

— لم افل شيئاً من ذلك ياعزيزتى ، واقول الحق انى كنت افكر براف اكثر من تفكيرى بك ، وهذا طبيعي لاننى والده كما تعلمين . وهو مثل الجواد المجروح يحتاج الى من يسوسه ، ولا اكتم عنك اننى اعتقد فيك تلك المقدرة بالرغم من صغر جسمك

مالت الفتاة نحو المنضدة وقد ارخت عينيها واضطربت شفتاها ولعبت يدها النحيلة بوشاحها ثم تمتمت بصوت متهدج قائلة

— انه لا . . . لايفكر بى ولا يشعر بوجودى على مقربة منه . . .

ثم عضت شفتها وانقطعت عن الكلام ، فقال الرجل

— الذنب ذنبك ياابنى لانه يلهو بالفتيات اللائي يتهافتن عليه كما تقولين

فقالت الفتاة وهي تحز على انيابها

— لست مليحة الوجه ثم . . . ثم انى صغيرة الجسم . . .

— تدلنى خبرتى الطويلة ياعزيزتى فينى على ان النساء الصغيرات الاجسام هن اللائى يسسن شئون العالم . وما دامت الفتاة طويلة بحيث تستطيع الوصول الى قلب الرجل . . .

كف الرجل عن الكلام فجأة اذ فتح باب الخيمة ودخل شاب نحاسى الشعر — هو ابنه راف — وتقدم اليها بخطوات واسعة

منحت الالهة هذا الشاب فوق ملاحة وجهه ، جسما قويا يحسده عليه كل رجل وتعبده كل امرأة . والواقع دخل راف الصالون يتهادى بخطوات خفيفة ثابتة مثل اسد الغاب فكان كل من يراه وهو يمشى برأسه المرفوع وحركاته الخفيفة لا يظن لحظة انه كان يعمل ويكد طول يومه تحت حرارة الشمس المحرقة وانه جاء تواً من عمل

يقصم الظهر ويفت فى العضد ، عمل كم اودى بحياة كثيرين وارسلهم الى القبر

مشى راف بخطوات واسعة الى ابيه وقد تجاهل الفتاة التى ارادت الانسلال خفيه لو لم يستبقها السيد حيم ويخاطب ولده قائلا

ـ هالو راف . يلوح لى انك على عجل اصغ لى . هذه فينى وقد جاءت الان بسترتك بعد ان اصلحتها . ان هذه مكرمة منها ، اليس كذلك ؟

تحول الشاب ووضع يده على منكب الفتاة وهو لا يعلم ان جسمها الصغير ارتجف عندما احست بيده وامتقع وجهها وحدقت النظر بعينيها الخضراوين الى وجهه فى شيء من الجرأة والتوسل وهو يخاطبها قائلا

ـ شكرا يافينى على مكرمتك هذه . انك فتاة محبوبة ولكنى لا اريد ان تكبدى نفسك مشقة لان لديك اعمالا كثيرة . هيا ، اجرى الان

غادرت الفتاة الصالون مسرعة ولكنها وقفت خارج الباب واخذت تنصت فسمعت الاب يسأل ابنه قائلا

ـ ما رأيك يا راف ! هذه فتاة صالحة ومستقيمة

فقال الشاب فى شيء من الملل

ـ اى نعم ، ان فينى فتاة طيبة . لقد وقعت مشكلة فى محلة « بلنكر » ـ وهي محلة منافسة لهم في الجانب الاخر من التل ـ فقد كان بنسر يزورهم فاثار بعض العلائل هناك بحيله القديمة وقد علمت ان بعض الرجال ينوون رد الزيارة لنا واثارة القلاقل هنا . واظن انهم قادمون الليلة

اومأ الوالد برأسه ولم يهتم بالامر اهتمام ابنه بل قال فى هدوء

ـ لاتنزعج

رفع الشاب رأسه الى الوراء بحركة رشيقة وضحك قائلا

ـ بل سيزعجوننا . فسيأتون الى هنا طبعا وسيكون واحداً واثنان منا هنا للقائهم

فقال الوالد

ـ لابأس ياراف . انى بنسر شاب احمق لاسيما اذا اكثر من شرب الخمر . كيف حال الحفرة ؟

فهز الشاب منكبيه وقال

ـ لم تأت اليوم بما يسد نفقاتها

مال السيد جيم الى الامام مستنداً الى المنضدة واخذ يطيل النظر الى ابنه من خلال عينيه اللتين اغمضهما قليلا وأخيرا قال بلهجة ذات معنى

ـ لاتستحق العناء ياراف ؟ لعمرى يخطر ببالى فى بعض الاحيان ان المهمة كلها لاتليق بك

جلس الشاب فى كرسى فارغ وبسط رجليه الطويلتين قائلا

ـ ما يليق لك يليق لى ياأبت

فقال الرجل

ـ انك من شاكلة غير شاكلتى . . . اعنى ان هناك فرقا شاسعا بين شاب على وشك الدخول فى معترك الحياة وبين شيخ فى آخر مرحلة من مراحل حياته

رفع الشاب عينيه وهو يتمتم وقال فى خشونة اراد ان يخفى وراءها حبه لابيه

لست طاعنا فى السن ياأبت ولم تصل بعد الى نهاية مبتغاك

فهز الرجل رأسه وقال

ـ كدت أصل الى النهاية ياراف بل وصلت الى ماساعدنى على ان ادرك ان ليس هناك مايعوض الانسان من كده وجده في الحياة

لزم الرجل الصمت هنيهة ينظر الى ابنه فى شيء من التأمل والتفكير واخيرا قال

ـ كنت افكر بك فى المدة الاخيرة يا راف وكما قلت لك ليس هذا مجال يصلح لشاب مثلك فما قولك اذا اقترحت عليك ان ترحل عن هذه المنطقة وتحيي حياة جديدة فى منطقة اخرى ؟

فاجابه الشاب على الفور قائلا

ـ اذا كنت قد مللت هذه الحياة يا أبت . . .

ـ انني بعيد عن هذا المجال ياراف . لقد اخترت الاقامة هنا وسأبقى هنا لانني ثور طعن فى السن لااستطيع ترك مزودى . لقد سنحت لى فرصتى فجعلت منها خبيصة شائنة فى الحق والصواب ان تجرب حظك فى الحياة . وليس هناك امل كبير يرجى من وراء التلكؤ حول منجم . ولكن لا ، يجب ان لا ابخسك حقك فانت شاب نشيط تكد وتجد . ولكن اخبرنى فى صراحة كما يخاطب الرجل الرجل . الاتريد ان ترى شيئا من حياة العالم ، وتعيش عيشة ارقى وتقوم بعمل ارفع من عمل المعدن ؟

ضحك الشاب ضحكة قصيرة وقال

ـ لاادرى . ان الحياة هنا لذيذة ووسائل اللهو والتسلية متوفرة على حين لايوجد فى العالم الخارجي غير المشادة والنزاع . ومع ذلك اذا

كنت تريد الانتقال الى مكان آخر فانني سارافقك اليه . امااذا كنت تنوى الاقامة هنا فسأبقى معك ولا أظن أنك تريد التخلص منى سريعا يا أبت

فاومأ الرجل برأسه وقال

ـ هو ما تقول . كلا يا رالف ، فان اليوم الذى نفترق فيه يكون شديد الوقع على . ولكن على الوالد ان يقوم بواجبه فهل تقنع نفسك ان تقوم بمهنتى وتقف هنا خلف الابار بعد ان أودع هذا العالم وأودع معه الحياة ؟

فاجابه رالف فى حزم قائلا

ـ حسنا لا أعد شيئا من أجل ما اعملونه ، هنا لاننى لا أصلح كما تعلم لمثل هذا العمل ولا أستطيع ان ارقد لحانة وسيسمة الفتيان بالقذرة التى تظهرها . انت اخبرتنى يا أبت اننى احيانا ، وربما يخطر ببالى ان فى وسعك ان تخلق من نفسك جنديا عظيما لعمرى فى مقدورك أن تقود فرقة من الجنود

تورد خد الشيخ الشاحب ومال به جانبا وهو يضحك ثم قال وهو يتظاهر بالاستخفاف

ـ ليس من عادتى الا اطراءك يا ولدى فهو انى اشكرك على هذا الشعور لانه نوقت من حديثى . فان كنت تريد الاقامة فامكث . وقد عشنا معا خير عيشة وكنت لى ... النصائح ...

اكثر ... وحده ... وجد فى قول ابيه ما حيره وارتبكه ثم قال

ـ اننا نحن يا أبت . لا تجزع . ... لا يمضى وقت ... اصيب صخورا من صخور الذهب فنسافر معا الى الخارج للتسلية وترويح النفس

فقال الشيخ في تردد وقد عقد حاجبيه

ـ هل تقصد السفر الى لندن ؟

ـ نعم اذا شئت ولكني كنت افكر بسان فرنسسكو

فقال الوالد

ـ اي نعم . حسنا يا راف

ولكنه حول رأسه جانبا دون ان يراه ابنه وبدت عليه دلائل الهم والتفكير .

قام الشاب وقال

ـ سأذهب لاغتسل . اين تلك السترة ؟

قدم الرجل السترة الى ابنه ثم قال وهو يتفرس في وجهه

ـ يالها من فتاة رقيقة

فقال راف في غير اكتراث

ـ نعم ان فيني لا بأس بها

ثم حمل السترة على ذراعه وخرج

وقف السيد جيم ينظر في تأمل الى باب الخيمة الذي اسدل خلف جسم ابنه الطويل ثم تحول وتناول قارورة صغيرة من خلف صف الزجاجات المرصوصة على الرف بجانبه ثم تناول منها ست نقط أضاف اليها قليلا من الماء وشرب المزيج وأخفى القارورة في مكانها

أخذ الرجال بعد قليل يصلون فرادى وجماعات الى المكان يحيي كل منهم السيد جيم تحية ملؤها الود والاخلاص وهو ينفذ طلباتهم بكلمة أو كلمتين رقيقتين فكان ذلك دليلا واضحا على المكانة التي يشغلها في قلوبهم .

زاد المكان ازدحاما بالوافدين واضيئت مصابيح الزيت التي ارسلت أنوارها الضئيلة على جماعة المعدنين الذين تعالت اصواتهم وارتفع ضجيجهم بالغناء تارة وبالضحك اخرى ولا عجب فقد كانوا يتمتعون الان بالراحة واللهو بعد أن قضوا يومهم يجدون ويكدون فكانوا اشبه شيء بتلاميذ انصرفوا من المدرسة

وكان بارثمنت جو المحامى جالسا فى زاوية فوق برميل فارغ ، يدخن غليونه وينظر فى تفكير الى جماعة العمال الذين جلسوا امامه زمرا . وكان الباب يتحرك باستمرار لدخول قادمين جدد فكانوا يذهبون الى البار توا فيتبادلون التحية مع صاحبه ويطلبون ما يريدون من شراب ، ولكن دخل بعد قليل رجل شاحب اللون صغير الجسم تقدم بخطوات خفيفة كانه اراد ان لا يراه احد . فلما طلب شرابه تفرس السيد جيم فى وجهه وقال

ـ لقد تأخرت يابنسر . هل قضيت وقتا طيبا ؟

غمغم الرجل ببضع كلمات بلهجة تنم على القلق والاعتذار ثم حمل زجاجته الى الزاوية التى كان المحامى الشيخ فيها جالسا

دخل رئيس بعد بضع دقائق اخرى فاستقبله الجميع بالتحية

الفصل الثاني

احدى النارين

صاح رجل يدعى بلى قائلا

ـ هيا ايها الشاب هل تلعب معى ؟

أشار راف اشارة خفيفة لمحدثه وذهب الى ابيه حيث اضطر ان يميل اليه بسبب الصحة لكى يسمع صوته وسأله قائلا

ـ اذن لم يأتوا بعد ؟

فكان جواب الرجل ان قال فى هدوء

ـ ان كل شيء على ما يرام حتى الان

جذب بلى الشاب الى جانبه فوق لوح من خشب وضع فوق الصناديق الفارغة استخدم كمنضدة ثم صاح قائلا

— هيا اجلس هنا يا راف . هل لدى تبدأ [illegible] .

فقال [illegible]

ـ ليست [illegible] رجل غريب من أهل لندن على عينيه نظارة ذهبية ويحمل فى يده مظلة وقد [illegible] وهو ينزل من المركبة يسأل عن محله «حمة الراقصة» هذه هى الحقيقة التى لا أحول عنها [illegible]

فقال بلى بصوت غاضب

ـ لم تتوخ الحذر [illegible] . هل ارشدته عن الطريق [illegible]

فاجابه [illegible]

ـ كلا ، لم اشأ ان أكون مثل رجل البوليس الذى يرشد الناس الى ما يطلبون وفوق ذلك من اين لى معرفة ما يريد؟ ربما كان قادما لاحد منا

فقال المحامى جوفى جفاء

ـ كلا ، كلا ، لو كان كما تقول لجاء يرتدى سترة لها ذيل أسود طويل بدلا من ان يجر لى مظله

تعالت اصوات الضحك وقال احدهم

ـ ربما كان وكيلا جديدا

فقال بالى [illegible]

وكيل [illegible] ؟ كلا ، ربما كان مرسلا

وهز [illegible] رأسه [illegible]

ـ كلا . اقرب الى المحامين منه الى رجال الله

اومأ بالى برأسه نحو المحامى الجالس فى الزاوية وقال

ـ أن الحالة تقتضى اكثر من محام واحد

[illegible] المحامى أن يدافع عن نفسه هذا القول ولكن [illegible] باب الحجرة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ـ سأتناول شيئا من الشراب مع رفاقي وفي خلال ذلك ارجو ان تخبرني هل لديكم عامل هنا يدعي بنصر

اختفى بنصر في الحال خلف البرميل الفارغ الذي جاس عليه المحامي فالقى السيد جيم نظرة طويلة بطيئة على جمهور العمال امامه ثم قال في هدوء وسط سكون عميق

ـ لا أراه هنا

فزمجر الرجل قائلا

ـ ان هذا يدعو الى الاسف لاننا في حاجة شديدة اليه. اننا من محلة « بلنكر »

او مأ السيد جيم برأسه وقال

ـ من دواعي سروري ان اراكم اجلسوا هؤلاء السادة . . . كلا لا اريد منكم نقودا لانكم غرباء يجب ان نستقبلكم على الرحب والسعه

فقال الرجل

ـ لا اريد الجلوس . لقد جئنا للبحث عن ذلك الرجل بنصر فاذا لم يكن هنا يجب ان نخرج للبحث عنه . اصغ الى ايها السيد . يلوح لي انك رجل صريح عادل فاعلم ان ذلك الرجل بنصر جاء الى محلتنا وجرح رجلين من رجالنا بخنجره ولما كنا لم نتعود ضرب الخناجر في محلتنا فقد اعددنا له حبلا للشنق

حدثت ضجة عند سماع هذا القول . وكان بنصر شابا شريرا ميالا للنزاع ولم تكن هذه اول مرة استخدم فيها خنجره بل حوكم امام المحلفين في المحلة وعوقب . فاظهر الرجال استعدادهم لا نزال العقاب

به على فعلته هذه الاخيرة على شرط ان يحاكم امام محكمتهم وفعلا قال بيللي

ـ اذا كان بنسر قد ارتكب ذنبا فى محلتكم فاننا سنحاسبه عليه

فقال الرجل الغريب فى استخفاف

ـ شكرا ، ولكن لدينا محكمتنا الخاصة وفى وسعنا ان نسوى حسابنا معه

هم رجال محلة « بلنكر » بالخروج ، ولكن حدث لسوء الحظ فى هذه اللحظة ان داس المحامي على اصابع بنسر وهو مختبيء خلف البرميل فصرخ وصخب ، فالتفت الرجل فى الحال واراد الوصول الى بنسر الذى قام من مخبئه واراد الهرب ، ولكن وثب بللي من مكانه واعترض الرجل قائلا

ـ [illegible] عليك الامر ايها الغريب . ليس لك ان تأتى الى هذه المحلة وتخطف رجلا من رجالنا كما لو كان فرخا لا قيمة له

لم يكد بللى ينطق بهذا التحدى حتى بدأت الضجة وأحاط جمهور العمال بالزائرين الاربعة وقد ثار غضبهم لهذا العمل الذى عدوه انتهاكا لحريتهم .

وكان رافت [illegible] لى لا [illegible] ساكنا لانه كان اول من رأى به [illegible] . [illegible] الاخرين الاثارة ايضا فساد السكون تدريجيا . فى حين [illegible] السيد [illegible] الزائرين ومشيراً [illegible] بللى

ـ [illegible] صديقى [illegible]

[illegible] كان [illegible]

[illegible]

وكان المحامي جو يكره بنسر ومع ذلك قال

ـ سأتولى مهمة الدفاع

فقال الزعيم

ـ حسنا . سنذهب ونبلغ رفاقنا نتيجة مهمتنا .

كاد كل شيء يتم على احسن حال وينصرف الرجال فى طريقهم ولكن بنسر لم يكن لسوء الحظ قد ثاب الى رشده فضحك ضحكة عصبية ، وهى تنم بلا مراء على الارتياح ولكن زعيم الرجال اساء ادراكها ورسم انها سخرية بهم واستهزاء فشهر مسدسه وكاد يقضى على بنسر وشروره لو لم يكن راف واقفا على مقربة فضرب الذراع التى صوبت المسدس فاخترقت الرصاصة السقف كما لو كان مصنوعا من ورق

ارتفعت صيحة عنيفة تبع صوت راف من خلالها وهو يصيح قائلا بصوت جهورى

ـ كونوا [illegible] . لا تطلقوا النيران . ان هذا محظور [illegible] مسدساتكم

كانت الاشارة التى [illegible] وقف الرجال فى [illegible] على شكل حلقة وجمع الرجال [illegible] ـ وكان راف يرتدى السترة التى [illegible] ـ ثم وقف كل منهم [illegible] . وكانت [illegible] الصوت

[illegible] الجميع [illegible] الرجل [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

على شفتيه وارخى جفنيه

وكان راف مثل معظم الذين لهم شعر نحاسى اللون سريع الغضب ولكنه كان قد تعلم في مدرسة المحله كيف يكتم غيظه بالرغم من رعونة الشباب . وكان رفاقه يعلمون أنه متى اتقدت عيناه الرماديتان وشدد الضغط على شفتيه كان ذلك نذيرا بالخطر فعلى خصمه ان يتأهب عندئذ لمنازلته أو يركن الى الاستكانة والخضوع

وكان الدم قد ظهر الآن قليلا في عيني الشاب وهو واقف أمام غريمه فرأى رفاقه هذا النذير فتبادلوا اشارات ذات معنى . وكانوا كلهم يعطفون على الشاب ولو انهم لاينكرون أن بنسر يستحق ما اعيده له رجال المحله الاخرى من قصاص ، ولكن راف كان يدافع عن المبدأ وحقهم في محاكمة رجالهم ومعاقبتهم

ساد صمت عميق عندما بدأ القتال . وكان الخصمان قويين فتقاتلا بعدل كما يفعل الخصوم الشرفاء . وقد صوب الزائر ضربته الاولى ولكن راف تحاشى شدتها وقابلها بمثلها في الحال ولم تمض مدة وجيزه حتى حميت المعركه واستعر لهيبها . وكان خصم راف رجلا ممتلىء الجسم قوي العضل ، فاذا كان ضربه كانها بقوة ، على حين كان الشاب خفيف الحركة نشطا يكاد يعادل خصمه قوة

رأى النظارة وهم يراقبون المعركة في قلق ان النزال سيطول ولكن وقع حادث فجأة من الحوادث التي تغير مصير الرجال والامم فقد اراد راف أن يتحاشى ضربة صوبها اليه غريمه فزلت قدمه وعندئذ طوقه الرجل بذراعه ورفع يده ليكيل لراف ضربة كانت ترسله الى الارض لامحالة ولكن قبل ان تهوى ذراعه بالقوة حجاب الصمت

صوت غريب هو خليط من الصراخ والانين وكان الصوت مريعا فكف الرجل عن ضربته والتفت الجميع الى مصدره فلم يروا السيد جيم واقفا خلف البار كما كان لانه اختفي بحالة فجائية غريبه

صاح راف فى انزعاج قائلا

ـ ابت !

لم يتلق الشاب جوابا فوثب الى « البار » فوجد اباه ملقى على الارض مغمض العينين لا حراك به فزعم الشاب المسكين انه فارق الحياة ولكنه كان مغمي عليه

حمل راف أباه الى وسط المكان ، يحيط به جماعة من الذين تولاهم القلق والذهول ثم وضع قليلا من الخمر بين شفتيه المتقعتين وغسل وجهه بالماء فافاق الرجل فى الحال ثم تكلف الابتسام وهمس قائلا

ـ احملنى الى الكوخ يا راف

حمله الرجال فى عناية ورفق الى الكوخ ثم غادروه وهو فى حالة الموت لانه لم يكن ثمة ريب فى حالته ـ مع ابنه راف والمحامي جو ـ وكان المريض يتنفس فى مشقة . تنفسا مضطربا فادرك المحامي الذى كان اكثر خبرة من الشاب انه يحاول استجماع قواه ليتكلم ، فسأله راف فى قلق قائلا

ـ ما الخبر يا جو ؟ ماذا اصابه ؟

وضع المحامي يده على قلبه وقال

ـ انه يشعر بضعف فى قلبه منذ زمن مضي . وقد اغمي عليه مرة ، ولم تكن حالته سيئه مثل هذه المرأة ، ولكن كتم حقيقة امره عنك لانه لم يشأ ازعاجك

فسأله راف بصوت مبحوح قائلا

ـ هل حالته سيئه ؟ ابت ؟ ألا تستطيع مخاطبتى ؟

اومأ الرجل ايماءة خفيفة وهمس قائلا

— حالا

استجمع الاب قواه الضائعة فوضع يده على يد ابنه وحاول ان يمسكها ثم تمتم فى مشقة قائلا

-- لقد حصلت على تذكرة السفر يا راف وكنت اعلم انها ستسلم الى بعد قليل ، لاتنزعج ايها الفتى فقد كتب علينا جميعا الرحيل من هذا العالم عاجلا او آجلا . . .

أخذت افكاره تتشتت فعادت به الى الماضى كما يفعل الذين يحتضرون عادة ، عادت به الى احدى الخطايا ، الى احدى جهالاته التى هدمت ذلك الماضى . وكان فى هذه المسألة الخاصة مغريا لغيره كما كان غيره مغريا له ولكن الله الانتقام الذى يطاردنا بعمدات القدر لا يراعي تجاربنا وضعفنا الموروث ، فيفرض عاجلا أو آجلا القصاص الكامل الذى يجب أن يناله الجميع على ما اقترفوا من ذنب وما ارتكبوا من مظالم

عادت أفكار الرجل وهو يحتضر الى أيام شبابه وقوته عندما كانت قلوب النساء تخفق وأعينهن تلمع لقدومه ، وكان رأسه يتحرك يمنة ويسرة فوق الوسادة فى ملل فاخذ يتمتم فى توسل واستعطاف وندم بصوت خافت سمعه الرجلان اللذان يراقبانه بشق النفس قائلا

— لا أ . . كر . لا انكر انى ظلمتك يا مولى لم يعد فى طاقتى اصلاح الخطأ فحاولى أن تصفحى عنى . علم الله كم حزنت نفسى وتفجع قلبي . لو وقف غيرى موقفى لطاب مع حبتك عند ما هجرتنى ولكنى

لم أنس ماحدث ولقد حاولت ان أجدك والطفل وودت ان أفعل ما يجب على نحوك ونحوه اذا استطعت ولكنك مللت عشرتي ولو سألتك العودة لى ماقبلت . لست الومك يابولى لانه ليس فى مقدورك التغلب على طبيعتك ولا تستطيعين التمسك طويلا باى رجل . كلا، لا ألومك ولا أريد ان التمس لنفسى المعاذر لان الذنب ذنب الرجل دائما ، اذ يجدر به ان يكون أشد قوة وصلابة من المرأة ويجدر به أن لا يخضع أو يلين . نعم يجب على الرجل أن ينقذ امرأته من نفسها . فمعذرة يابولى أننى اسألك الصفح والغفران

ازداد صوته اضطرابا وضعفاً فامسك عن الكلام ولكن لم يلبث ان عادت اليه حواسه ففتح عينيه ونظر الى الوجه المجعد الذى مال نحوه وقال

— من هذا ؟

فقال المحامي جو بصوت مضطرب

— انا يا جيم . هل تشكو المًا ؟

هز الرجل المحتضر رأسه وقال بصوته الخافت الضعيف

ـ كلا اننى أسير بخطوات هادئة أيها الرجل يجدر بك ان تقف بجانبي وتساعد راف فى تشييعي

وفيما كان السيد جيم يتكلم اذ فتح الباب ودخل رجل تتفق أوصافه مع الاوصاف التى ذكرها تيد واثارت اهتمامه ، فنظر راف اليه فى لهفة وسأله المحامى قائلا

— هل انت الطبيب ؟

فاجابه الرجل الغريب فى انفعال قائلا

— كلا . كلا . لست الطبيب ولكنى سمعت ان حادثا وقع وان رجلا حمل فى حالة يرثى لها فاتيت لعلى اقدم خدمة انفع مما يستطيع هؤلاء الرجال الغلاظ تقديمها — اننى محام لا طبيب

تقدم الرجل نحو الفراش ومال فوق المريض ولم يلبث ان ارتجف وصاح قائلا

— والفريد رحماك يا الله !

سمع السيد جيم الصيحة ففتح عينيه وحدق النظر الى المتكلم وسأل قائلا

— من هذا

فاجابه المحامي الغريب قائلا

— أنا غردون . هل تذكرنى .. يا الهي ، كيف القاك فى النهاية على فراش المو .. فى هذه الحالة

تكلف الرجل المحتضر الابتسام وقال

— ان هذا مضحك مبك غردون . نعم اذكرك الان . . . راف (محولا رأسه نحو ابنه) ان هذا السيد صديق قديم لى وعنده ما سيخبرك به يابنى . . . فى الحال راف ، ولدى لما سألك بعد ظهر اليوم عما اذا كنت تميل الى ترك هذا العمل والبحث عن عمل آخر ، كان الماضى قد تمثل امامى فاردت أن أقوم بواجبى نحوك كما اخبرتك . لم أخاطبك بكلمة واحدة عن ذلك الماضى وتوخيت الحذر فلم تبدر منى اشارة صغيرة تفهم منها أننى غير ماعرفتنى — رجل طريد منبوذ ، صاحب حانة حقيرة فى محلة . وقد تألمت نفسى فى البداية عند ماسمعت الفتيان يطلقون على ، فى لعبهم ومزاحهم ، اسم « السيد جيم » لاننى

كنت فيما مضى « سيدا » ياراف بل كنت : « ضابطا وسيدا »

كانت كلمات الرجل متقطعة يتخللها فترات سكوت حتى تهدأ أنفاسه فشدد راف الضغط على اليد النحيلة وقال

— لقد كنت دائما رجلا تقى القلب يا أبت. لقد عرفت هذه الحقيقة كما عرفها الجميع

فقال الولدان

— شكرا ياراف . نعم ، لست سيدا فقط ، بل أنا من اسرة شريفة نبيلة . ربما يحتاج الى معرفة السبب فى انحطاطى وتدهورى ولكنها قصة طويلة سيطلعك المستر غردون عليها بعد رحيلى . . . ويكفى أن تعلم انى تخاصمت مع الزمان فقهرني كما هي عادته دائما فاضطررت الى ترك الحياة القديمة وهبطت من تلال الحياة الى وديانها التى ربما وافقتنى خير من مرتفعاتها وهذه حال بعض الناس : لقد نزلت من عليائي على كل حال فلم أحاول مرة الصعود ثانية ... ولو فعلت ماجنيت فائدة تذكر

صاح راف على كره منه قائلا

— أبت . لقد كنت دائما من خير الاباء

ولكن تنهد الرجل وهز رأسه المتعب قائلا

— كلا بل ظلمته ياراف . فقد كان يجدر بى ان اهيىء لك فرصتك من زمن بعيد فارسلك بعيدا . . .

فقاطعه راف قائلا

— لو فعلت ماطعتك ياابت

— ان قولك هـذا مكرمة منك ولعمرى لااظن انك كنت

تطيعني لانك كنت دائما مغرما بابيك ولو أنه علم الله لايستحق ذلك منك . راف ، ان هذا الرجل جاء يبحث عني ... أليس كذلك ياغردون؟

اوماً المستر غردون برأسه وقد بدت على وجهه دلائل التأثيرمن هذا المشهد ولكن كان يشوب هذا التأثرمايشف عن الدهشة والحزن والواقع اجابه الرجل قائلا

— نعم اتيت للبحث عنك لان لدي نبأ خطيراً ... خطيرا جدا ياولفريد

فقال الرجل المحتضر وهو يبتسم تالما

— ها قد وجدتني ... ولكن بعد فوات الفرصة . ماذا تحمل من الانباء؟ مهما تكن فانها ليست مهمة في نظر رجل فان مثلي

تقدم المحامي جو وامسك بذراع المستر غردون قائلا

— هل يستحق الامر اقلاق راحته

تحول المستر غردون نحوه وهو يكتم انفعاله ثم قال باسطا يديه

— نعم لااجهل ذلك واني اكره فكرة ازعاجه الآن وهو على فراش ... ولكن ليست هنك حيلة . يجب ان احصل منه على شيء قبل ان ... قبل ان ... ان الامر على أعظم جانب من الاهمية والخطورة وقد جئت من لندن على جناح السرعة لكي اخبره

تحول المحامي نحو الفراش وخاطب الرجل قائلا .

— ولفريد .. هل تسمعني وتدرك مااقول

حرك الرجل الذي ناداه باسم «ولفريد» رأسه في بطء فاستأنف المحامي حديثه قائلا

— حسناً . جئت لكي اخبرك بأن ... ان ادجار ولديه توفرا —

فى حادثة يخت ـ وانك ، انك ... حسنا . لااخالك تجهل انك تايم.

حاول السيد جيم ، أو بالحرى ولفريد ، ان يرفع نفسه ولكنه سقط ثانية وأخذ يلهث الى ان استطاع تحريك شفتيه فى النهاية قال المحاميان نحره ومحياه يترك

— مسكين ادجار ... وولداه ! كم أنا آسف. نعم اننى آسف ياغردون بالرغم من الماضى . هذا نبأ مريع . وانا الوارث التالى ؟ بلا ريب لم يخطر هذا ببالى فقد كدت انسى ... نعم ان هذا نبأ غريب ياغردون . ولكن جاء بعد فوات الفرصة كلا جاء بعد فوات الفرص بالنسبة الى لا بالنسبة اليه

زاد صوت الرجل قوة وتحولت عيناه في حنان وحب الى وجه الشاب الجاثى أمامه ثم قال

ـ هذا ولدى ، هذا ولدى الوحيد ياغردون

نظر المحامى فى دهشة وحزن الى الشاب الجاثى بجانب فراش أبيه بثيابه الرثة وقد سال الدم من شفته المقصوصة واثار الكدم ظاهرة على وجهه ثم تمتم قائلا

ـ نعم . نعم . هذا ما أدركته

ـ ستجد وثيقة الزواج وشهادة الميلاد وجميع الاوراق التى تحتاج اليها فى العلبة الصغيرة تحت الفراش . . . هذا رالف ولدى

تحول المستر غردون الى الشاب حوى وقال بصوت خافت مضطرب

ـ دون هذه الملاحظات سأحتاج الى شاهد وأومأ المستر جو وقال وهو يخرج دفترا قذرا من جيبه

ـ لا احمل ذلك . انى محرم

ثم شرع يكتب في دفتره فقال الرجل المحتضر وهو يلهث

ـ انه ابني الشرعي ... ان كل شيء حسن وحق ... لن تجد ... لن تجد مشقة . نعم جاء الامر متأخرا بالنسبه الى ولكنه لم يأت متأخرا بالنسبة اليه ، شكراً لله . راف

وضع الشيخ يده الاخري على يد ابنه وقد فاضت عيناه ببحر زاخر من الحنان والشوق وهو ينظر الى وجهه ثم خاطبه قائلا

ـ راف ، ستجد دم صحتك فبالله لاتجعل منها خسيصة كما . كما فعلت ارتخت الاصابع النحيلة الضعيفة وشهق الرجل شهقة طويلة ساد بعدها على وجهه سكون الموت وسلام الله

ساد الصمت العميق بعد ذلك ولكن لم يلبث ان صرخ رافه صرخة شديدة والقى رأسه على جسم أبيه على حين حول جو وجهه المجعد جانبا وحمل المستر غردون يمسح وجهه بمنديله الى ان التفت المحامي جو وأومأ برأسه نحو الرجل المتوفى وقال بصوت خافت مبحوح

ـ من . . . . من هو ؟ كان يخطر دائما انه اعظم مما يتظاهر به وان هناك قصة . . . سرا فمن هو ؟

تنحنح المستر غردون ومسح حاجبيه ثم هز رأسه كأنه تغلبت عليه عواطفه وأخيراً تحول نحو المحامي جو وأجابه في بطء قائلا

— انه لورد سترانفير . ولكن لا

ثم التفت في ذهول الى المعدن الشاب بشعره النحاسي وجروح وجهه الدامية واستطرد في حديثه قائلا

— لا . ان هذا هو لورد سترانفير . يا الهي !

كان الصمت عميقا بعد هذا الاعلان الخطير — لان المحامي جو

حملق بعينيه دهشة وراف المسكين لم يشعر بشيء الاهم الا بخسارته الفادحة — ثم كان الصمت عميقا ومع ذلك لم يسمع رجل من الرجال الثلاثة صيحة خافتة تشبه النحيب ، بدرت من شفتي فيني وهي جالسة القرفصاء خلف الكوخ تصغي الى ما يقال بكل مسامعها — وقلبها

الفصل الثالث

سخرية القدر

عاد راف الى الكوخ بعد أن وارى أباه التراب وبرفقته المستر غردون والمستر جو . وكان جميع أهل المحلة قد بذلوا جهدهم ولم يدخروا وسعا لتكريم الراحل فأتوا بقسيس قام بالمراسيم الدينية واحتشد المعدنون وهم حاسرو الرؤوس حول المقبرة [illegible] وجوههم دلائل الحزن العميق والاسى ثم انصرفوا [illegible] الى «الصالون» ليشربوا في صمت كذلك لذكرى [illegible] الضعيف النحيل الذي كان يقبض [illegible] زمامهم بعقله الراجح

[illegible] يدر [illegible] الذي [illegible] والمستر [illegible] بجانب فراش [illegible] من أن [illegible] بين العمال . على حين [illegible] من [illegible] المستر غردون . [illegible]

وكان المحامي جو يرتدي بذلة قذرة سوداء فجلس بجانب راف ووضع على ذراعه يداً مجعدة ترتجف حزنا وضعفا بسبب ادمانه على الخمر . وكان المستر غردون قد جلس أيضا عند دخولهم ولكنه وقف الآن وأخذ يقلب بعض أوراق تناولها من صندوق عتيق مضعضع وضع فوق المنضدة التي امامه

وكانت تبدو على الرجل سيماء من لديه شيء كثير يريد قوله ولكنه يجد مشقة في البدء به فوقف يقلب الطرف فيما حوله ينظر الى الشاب الخشن بشعره النحاسي تارة والى الشيخ الاشيب الجالس بجانبه تارة اخرى كأنما وجد نفسه في ورطة لا يدري كيف الخلاص منها

أخيرا جاء المحامي جو الى نجدته فقال مخاطباً الشاب

ـ لدى المستر غردون شيء يريد قوله لك ياراف . شيء هام فابذل جهدك لكي تستجمع قواك أيها الشاب لان عليك أن تحتمل الصدمة

اوما راف برأسه وقال

ـ حسنا . ما الخبر ؟ هل كان والدي مدينا لك بنقود أو لديك شيء له . انني مستعد أن أوفي لك كل ماعليه . انني أقوم مقامه مهما يكن الامر لان أبي كان طول حياته رجلا أبيض (يقصد حسن السيرة)

تهدج صوت الشاب وسقطت يده عن عينيه وتفرس في وجه المستر غردون الذي تملكه القلق وخاطبه قائلا

ـ لا شيء من ذلك . لم يكن والدك مدينا لاحد بمال بل الامر بالعكس . أظن انك لم تسمع ما دار من حديث عند ما كان والدك يحتضر ، وهذا طبيعي بلا مراء . على انك انه . انني جئت لابحث نه ، وانه ليس كما أراد أن يظهر للناس ، وان مركزه يختلف اختلافا تاما

عن المركز الذى كان يشغله هنا

هز راف كتفيه فى شىء من الملل أذ وجد من المشقه ان يصغى الى هذا الرجل الذى يرتدى ثياب أهل لندن ويتكلم بصوت جاف مضطرب لم يرق فى اذنى راف اللتين كانتا لاتزالان ترددان صدى الكلمات الكبيرة المنجمة التى القاها القسيس على قبر أبيه

عاد المستر غردون الى حديثه فقال

ـ هو ذلك . والآن يقضى على واجبى أن أطلعك على الحقائق بصورة جلية ما استطعت . فاعلم ان أباك كان يحمل اسم المستر برون هنا فى المجلة ولكن اسمه الحقيقى ، اسم اسرته هو هلجريف

فقال المحامى جوفى شىء من الحماقة والزهو

ـ كانوا يسمونه باسم السيد جيم

فأمن المستر غردون على قوله قائلا

ـ بالضبط . ولا عجب فان الدم الشريف يظهر فى أشد التجارب والمحن . وقد كان دم أبيك ـ ودمك أيها الصديق الشاب ـ من أشرف الدماء . فاسرة هلجريف كما تعلم أيها المستر ... المستر ...

ثم سكت و نظر الى المحامى الرث فى حيرة فقال الرجل

ـ خير لك أن تدعونى باسم . جو ولكن أعرف اسرة هجريف ، أو عرفت عنها شيئا فيما مضى ، فهي اسرة نبيلة كما تقول

فقال المستر غردون

ـ بالضبط . وهى من أقدم الالقاب وأشهرها الان أفراد الاسرة من مشاهير الرجال فبينهم القواد ورجال السياسة ...

وكانت أفكار راف بدأت تسبح فى الفضاء لتعود به الى والده

المتوفى ، فالقى المحامى جو نظرة تنم على التحذير وقاطع المستر غردون قائلا

ـ دعنا من كل هذا

تنحنح المستر غردون وقال

ـ كما تريد . انما حاولتك أن اعطى صديقى الشاب العزيز فكرة عن المركز الرفيع والمنصب السامى الذى أرادت العناية الالهية أن يدعى الى . . . الى ملئه . والآن ترى مما ذكرته ايها اللورد ستراتفير . . .

رفع راف عينيه وحدق النظر الى وجه المتكلم ثم الى وجه جو وسأل الاخير قائلا

ـ ابنا يعنى

فقال المستر غردون وقد زاد قلقه من ذى قبل

انى أخاطبك ياسيدى العزيز . لاشك انك لم تدرك الحقيقة الخطيرة وهي ان والدك كان لورد ستراتفير وانك خليفته

عقد راف حاجبيه ثم اومأ برأسه وقال

ـ اذكر الآن انك كنت تقول شيئاً من هذا [illegible] . . .

عندما . . ولكنى [illegible] ماذا [illegible] [illegible] استعمل اسمه

الخ [illegible]

غير [illegible]

أن [illegible]

[illegible]

[illegible] غردون [illegible]

وتنه [illegible]

أخيرا جاء المحامى جو الى نجدته ثانية فقال

— أصغ الى يا راف . . . معذرة اذا كنت أخاطبك بهذا الاسم الى الآن . . . اعلم أن لدى هذا السيد أنباء خطيرة لك . لقد حصلت على كنز ثمين من الذهب وهو يحاول أن يفهمك قيمته . . . الآن اعرنى سمعك واصغ الى . لم يكن والدك سيدا فقط بل كان نبيلا . فهو لورد أى واحد من الاغنياء والعظماء الذين قرأت عنهم . ولما كان قد توفى الآن — وهنا تهدج صوته ولكنه تملك عواطفه — فقد ورثت مهمته وعليك القيام بها . وهى مهمة هائلة كبيرة لا تستطيع أن تتصورها . وستجدها مهمة شاقة متعبة ومع ذلك لا مندوحة لك من القيام بأعبائها . انها أشبه شىء بمنجم يجب أن تحفره الى آخر قدم . هل فهمت قولى ؟

فقال راف فى شىء من الخشونة والملل

— كلا . ماذا فيها ؟ وماذا نصنع ؟

تأوه المستر غردون وقال

— ثق أننى أرى ما تعنيه من [illegible] اللورد [illegible] وفى وسعى أن أرى أنك لا تدرك الحياة الجديدة ولا الواجبات التى تتعين عليك القيام بها ولا تستطيع أن تكون فكرة عنها ولكنك ستدرك كل شىء [illegible] أنت لحسن الحظ شاب [illegible] أنك . . . أنت ذكى نبيه فعليك أن تدعنى أقدم اليك كل [illegible] لقد كنت أنا وأبى وجدى من قبل المستشارين القضائيين لأسرتكم فيجب أن تتخذنى لك مرشداً وإماماً . وصديقاً [illegible] أن أقول

ذلك . يجب أن تسافر الى لندن فى الحال . .

ففاطعه راف فى سكون وعدم اكتراث قائلا

— كلا . لست أنا . انني واحد من أهل هذه المحلة ، ولدى حرفتى أشتغل فيها ومن المحتمل أن تأتى بثمرة طيبه ، ثم لدى الحالة أيضا نعم أخبرت أبى أننى لا أهتم بها ، ولـكن الآن وقد رحل فاننى بدأت أنظر اليها فى ضوء آخر ولعمرى يلوح لى أن من دواعي شرفى وفخارى أن أقوم مقامه . . .

فصاح المستر غردون قائلا

— رحماك يا الله . لقد حرت فى أمرى فلا أدرى ماذا أقول ولا ماذا أفعل . كيف تستطيع يا عزيزى اللورد سترانفير أن تبقى فى هذه المحلة تحمل اسما سخيفا مضحكا وتعيش بين هؤلاء القوم الغلاظ وتدير حانة . . . أواه ، ان هذا مستحيل . . . لا أطيق له ذكراً . . . اعلم يا صديقى العزيز انك لم ترث لقبا رفيعا فقط بل ورثت معه ثروة طائلة من المال وأملاكا وضياعا لا تقدر . انك لا تدرى . . . مدى أملاكك ويستحيل على أن أعطيك أية فكرة عنها فى [illegible] وفى مثل هذه [illegible]

ضحك المحامى [illegible] ضحكة [illegible] ثم شرع يشرح للشاب ما أشكل عليه فهمه [illegible]

— [illegible] هو أنت [illegible] ثروة لا تحصى [illegible]

[illegible] عشر [illegible]

ثم [illegible]

[illegible]

قصر فخم فى الريف عدا القصر المشيد فى ميدان جرسفينور

ارتاح المستر غردون لهذه المساعدة فقال بلهجة الامتنان

— هو ما تقول . نعم توجد بضعة أماكن يبلغ ايرادها . . .

حسنا ، حسنا أنك لا تستطيع ادراك الارقام . فقد اشترى جد اللورد ستراتفير منطقة واسعة من الارض في لندن نالت رقيا عظيما مطرداً ونظراً لاعمال المضاربة ولايرادات الاسرة الضخمة فقد صار اللورد ستراتفير فى الوقت الحاضر فى المرتبة الثالثة بين أشراف البلاد

صفر جو وتمتم دهشة قائلا

— غنى « فاحش » الى هذا الحد ؟

فتحول المستر غردون اليه وقد استاء لهذا التعبير وقال

— نعم يا سيدى . وعلى ذلك فانت الذى خبرت شئون العالم ترى أن وجود اللورد ستراتفير فى لندن أمر لا مفر منه اذ لا يمكن القيام بعمل ما بدونه وهناك بلا ريب أعمال عديدة . . الحاجة قاسية اليه حتى فى هذه اللحظة : نعم يجب أن أرافق . . . لندن بدون ابطاء

فقال المحامى الر . .

— أظن أن هذا ما يجب عليك . . . الشاب . يجب أن تسافر . نعم . . . وحدتنا وشوق وسيكون الفراق . . . علينا وعلينا ولكن . . . راف . . . زوة . . . حتى تاه . . . مهمة خطيرة يجب أن . . . فقصور . . . الآن . . . وتم . . . هيبة . . . حتى . . .

الميدان ، والا فان ظنوني تخيب فيك

فقال راف

— سأسافر اذا جئت معي ياجو

احمر وجه المحامي جو وحرك قدميه وهز رأسه وقال بصوت مبحوح

— ان هذا لا يكون يا راف ، فان لدى من الاسباب ما يمنعني من اظهار وجهي فى تلك البقاع الاهلة بالسكان وهي البقاع التي تقصدها فاكتف مني بهذا القول

تنفس المستر غوردون الصعداء وجمع أوراقه ثم نظر الى ساعته وقال

— علمت أن عربة من عربات المسافرين تجتاز هذا المكان في الساعة السادسة من صبح الغد . وهي ستنه غير[illegible] ولكي اكون شاكراً للورد ستر[illegible] فضلا عن انها ذا تأهب للسفر معي بتلك العربة

فقال راف بلهجة الاستسلام

— قل الى أين نحن مسافرون ؟

— الى لندن . الى اللورد سا[illegible] أ[illegible]لا بطبيعة الحال

فقال راف [illegible]

— [illegible]

[illegible]

— [illegible] عليك

[illegible]

لاتتجاوز العشرين عاما بكثير . وعلى ذلك سيهتمون بك فيلبسونك ثيابا جميلة ويمشطون شعرك حتى تبلغ الحادية والعشرين ...

فقاطعه المستر غردون قائلا بلهجة التأنيب

ـ هذا طيش

فاعتذر حو قائلا

ـ انني أسف . وانما حاولت ان اشرح له الامر

بدت دلائل الملل على وجه المستر غردون وقال

ـ ان الامر بسيط . فالورد سترانفير معدن . . .

فقاطعه راف قائلا

ـ نعم انا معدن ، وهذا ماأود أن اكونه

ـ المعدن شيء آخر بالمرة ياعزيزي الورد ومع ذلك اذا كنت معدنا تحت رعاية الورد سانت ايفز وستعيش معه فتجنى فائدة كبرى من عنايته وتربيته وسيجعلك كما يقولون تقدر المركز السامي الذي ينتظرك في ا

فقال الشاب في ارتياب

ـ لا ادري . قد لا أحب هذا الورد . ماسمه ... لماذا يطلقون عليه اسم سانت ايفز ؟ هل هو قديس ؟ ثم ربما لايميل هو ايضا الى

زوجي . جر وناره المستر غردون قائلا

ـ نعم ياعزيزي الورد ان الورد سانت ايفز من رجال المحبربين الذين يأسرون القلوب وسوف لايسعك الا تقدير مكانته وحبه واني واثق من ان نخ منه ...

انقطع نرجل عن الكلام عندمارأى عيني الشاب المملوئتين مللا

وتحديا وشاهده يهز رأسه بشعره النحاسي وتصور ماسيتولى اللورد سان ايفز من الدهشة عندما تقع عيناه لاول مره على اللورد ستر انفير الشاب . على أنه لم يقطع الرجاء ولم يلبث ان استطرد فى حديثه قائلا

ـ متى وصلت الى انكلترا ياعزيزى اللورد ستر انفير واحاط بك اناس من مرتبتك وطبقتك فستتعود فى الحال على الحياة الجديدة التى تنتظرك وستفلم الاشواك التى نبتت حولك فى هـذا المكان الوعر الموحش ، وفى وسط مثل هؤلاء القوم العلاظ الذين تعاشرهم

حدق راف النظر الى الرجل فى استياء وحيرة وقال

ـ هل تعنى بقولك هـذا الفتيان ؟ ماذا أصابهم ؟ اسمع يامستر . لاتسمت أصدقائى باوصاف كهذه . انهم اخوانى ورفاق الذين ناصرونى كل هذه السنين . ولعمرى لولا أن ابى اعرب لى عن رغبته فى القيام بهذه المهمة الجديدة لما ذهبت معك ولكن أرى أن لامندوحه لى من الذهاب

التفت المحامى جو عندئذ الى المستر غردرن وهمس فى اذنه قائلا

ـ خير لك ان تدع الامر عند هذا الحد

وفعلا الى هنا انتهت المفاوضة

ذهب راف بعد ذلك الى الحانة ليودع رفاقه . وقد اخبرهم بعزمه على السفر ولكنه لم يطلعهم على السبب الذى دعاه الى الرحيل والى تغيير مجرى حياته بهذا التغيير الذى لم يرق فى عينيه ولم يفرح به قلبه وقد تابل « الفتيان » نبأ عزمه على الرحيل بأسف شديد لانه كان محبوبا جدا بينهم . وبالواقع عز عليهم فراق الشاب بعد موت ابيه وزاد فى حزنهم كما زاد سحب الكآبة التى خيمت على المكان ظالمة

وحلكة

وفى صباح اليوم التالى احتشد جمهور كبير عند زاوية الطريق لتوديع راف . وكانت حفلة الوداع مؤثرة جدا . فكان رفاقه يصافحونه المرة بعد الاخرى ويتمنون له حياة سعيدة ولو ان بعضهم أعرب له عن اعتقاده علانية فقال انه سوف يمل الحياة فى لندن ويعود اليهم قبل مضى زمن طويل . وقد ودع المحامى جو الشاب وداعا قلبيا حارا فنظر اليه والدمع يترقرق فى مآقيه ثم خاطبه قائلا

ـ دع رأسك عاليا دائما ايها الشاب ولا تدع لاحد الغلبة عليك

اغرورقت عينا راف بالدموع عند ماصعد الى عربة المسافرين وركب بجانب شارلى السائق ونظر الى جمهور المودعين الذين جعلوا الان يهتفون له ويلوحون بقبعاتهم وهو يتأهب لمغادرة الحياة القديمة ورفاقه الذين كانوا له أصدقاء وأعوانا واستقبال الامال التى تنتظره والتى لم يجد فيها ما يجذبه أبدا

اخيرا دارت العربة حول منعطف فى الطريق واحتجبت المحلة عن الانظار فتنفس المستر غردون الصعداء وتمتم قائلا

— شكرا لله

على أنه لم يكد ينطق بهاتين الكلمتين حتى جذب شارلى عنان الجياد مرة واحدة فالتفت . انف ليرى السبب فى وقوف العربة فرأى نيني واقفة بجسمها الصغير خلف كتلة من الصخر بجانب الطريق

سأل المستر غردون بلهجة الملل قائلا

— ما الداعى الى وقوفنا هنا ؟

دتمل شارلى وهو يكذب

— فقف هنا دائما لتتمتع بجمال المنظر

احمر وجه راف ولـكنه لم يتردد لحظة فوثب من العربة وتقدم الى فيني ، وهى واقفة شاحبة اللون متقلصة الشفتين ، فقالت الفتاة فى جرأة واعتذار

— لم أقصد ايقاف العربة. وانما ... وانما أردت ان أراك قبل الرحيل

فقال راف

— هذا حسن يا فيني لقد سرني قدومك الآن لانني لم أرك ليلة أمس عند ماودعت رفاقى وقد بحثت عنك فلم أجدك فى أى مكان

عضت الفتاة شفتها وقالت

— لم أشأ الاختلاط بالجماهير ، ولعمرى يسرنى انك لم ترني ياراف . ليس بين الجميع من هو أشد حزنا منى . وقد أحببت السيدة جيم ..

فقال راف بصوت مبحوح

— نعم ... نعم لا أجهل انك كنت شديدة الميل اليه دائما . لا تنسيني يافيني . انى مسافر الى لندن ...

فقالت الفتاة

— اعرف ذلك

ولـكنها عضت شفتها واستدركت خطأها قائلة

— سمعتهم يقولون ذلك لن أنساك ياراف ولو انه ... ولو انه محتمل جدا ان لا أراك ثانية مدى الحياة . يجب ان لا اعطل شارلى والا ثار غضبه

دفع راف رأسه استخفافا وقال

— دعيه ينتظر . اصغى الى يا فيني ، يلوح لى اننى أصبت شيئا عظيما ... أو هذا على الاقل ما يقوله ذلك السيد الذى جاء من لندن، فاذا صحت امورى فاننى لا أتأخر عن مساعدة احد من اصدقائى القدماء ... فيني ، اذا أردت القدوم الى انكلترا ...

تظاهر شارلى بانه استيقظ من سبات عميق ونظر دبما حوله متكلفا الدهشة ثم قال بصوت مرتفع سمعه راف

ـ تبا لى ، لقد زعمت انى فى فراشى

زمجر راف وتناول يد فيني فوجدها جافة حارة وقال

— استودعك الله يافيني . لاتنسى

وكان الشاب والفتاة قد تحولا خلف الكتلة الصخرية ففقدت الفتاة قوة ضبط النفس فى هذه اللحظة المؤلمة وطوقت عنق الشاب بذراعيها المرتجفتين ورفعت وجهها اليه ، فتورد وجه راف ومال فوقها وقبل الشفتين اللتين رفعتها اليه ثم لم يلبث ان تولاه الخجل فابعدها عنه فى رفق ووثب الى مكانه بجانب السائق

لم يبد المستر غردون أية اشارة وربما احسن صنعاً لانه لو فعل لالقاه راف من العربة على الارجح

الفصل الرابع

النار الثانيه

لم تمض عشرة ايام اخرى حتى ركب المستر غردون وراف سيارة الى قصر الورد سان ايفز فى ميدان بلجراف . واذا كان المحامى المسكين قد وجد مشقة فى سفره من محلة « حنة الراقصة » فقد وجد الآن اضعاف مالقيه هناك إذ يجب الاعتراف بانه يعانى وقتاً شاقا متعبا .

والواقع وجد الرجل ان راف جواد جموح يصعب قياده ، فقد ظلت وفاة ابيه عبئاً ثقيلا على كاهله فقضى الشاب المدة التى مكثها على ظهر الباخرة فى اجتناب المستر غردون وغيره من المسافرين على الباخرة وشغل الساعات الطويلة بين البحارة أو فى غرفة الالة . ومع ان رفاقه من المسافرين كانوا لا يعلمون شيئاً عن مركزه فقد جذبتهم شخصيته وخطبوا وده ولكن راف قابل توددهم هذا بجمود دونه جمود الصخر

لما وصل الرجلان الى لندن توفق المستر غردون الى حمل راف على ان يستبدل بدلة المعدنين الخشنة الرثة ببدلة أخرى تليق بالحياة فى العاصمة الكبرى للعالم . على ان البدلة الجديدة التى ابتاعها لم تغير الا المظهر الخارجى لراف وظلت طباعه وأخلاقه هي طباع المعدن الفظ الذى وجده فى محلة « حنة الراقصة »

وكان المستر غردون يتوقع ان يظهر راف شيئاً من الدهشة متى وصل الى لندن ، ولكن الشاب لم يندهش ولم يعجب لشىء لان العين التى تعودت النظر الى التلال العالية والوديان الواسعة فى اميركا لاتحفل

بالشوارع المزدحمة ولا بالقصور الشامخة

• بينما كانا فى طريقهما الى ميدان بلجراف أخذ المستر غردون يشير الى الاماكن التى تلفت الانظار فى العاصمة الكبرى ولكنه عجز عن ايقاد اقل جذوة من الحمية فى صدر الشاب المتوحش ، وهو الوصف الذى نعته المحامى به فى نفسه سراً . و لواقع أنظر الرجل الى القصر الفخم الذى وقفت امامه السيارة وتمتم قائلا

— هذا قصر بديع يا كم وصيك أيها اللورد ستوانفير

ولكن راف اومأ برأسه ونظر فى اهتمام الى صبى من باعة الصحف يسير فى الناحية الاخرى من الشارع

نزل الرجلان من السيارة ، فتقدم المستر غردون الشاب وصعد درجات السلم الاول ففتح البواب لهما وتقدمهما عدد من الخدم الى غرف الاستقبال فجعل راف يحدق النظر الى شعرهم الذى عفروه بمسحوق أبيض كأنما ينظر الى أشكال غريبة . وهنا قال المستر غردون فى انفعال

— سأذهب الى اللورد ستانفيلد وأخبره نبأ وصولنا

فقال راف

— حسناً

ثم ألقى نفسه على مقعد مذهب وأخذ ينظر فى شىء من الاهتمام والدهشة الى الصور المفيدة التى تزين الجدران والى الاثاث الثمين الذى من حوله فى الغرفة

دخل المستر غردون غرفة استقبال صغيرة حيث كان اللورد سن ين فى انتظاره . وكان خادمه جالساً فى مقعد ذى ذراعين أمام المدفأ لان الشهر كان شهر مايو والجو بارداً رطباً فدنا المحامى الى جسمه

الصغير وشعره الذهبي وثيابه الانيقة وهو جالس ينظر الى قدميه الصغيرتين في شيء من التفكير

حرك اللورد سان ايفز يده البيضاء الصغيرة تحية للمستر غردون وأشار اليه ان يجلس على كرسي في جواره قائلا

– ها قد عدت ياغردون . هل صادفت وقتاً طيبا !

حبس المستر غردون تأوهاته في صدره وقال

– بل لاقيت وقتا مزعجا يامولاي

فتبسم اللورد وقال

– اذن في الامر شيء . . لم ألاق وقتا مزعجا منذ أعوام وعلى ذلك أهنيك على ما نلت ثم أهنيك على وجود ابن ولفريد المسكين . أظن انك جئت به معك

– انه في غرفة الاستقبال يامولاي

– حقا ؟ وماشكله ؟ انني اذكر والده فقد كان شقيا كبيرا سبب لاسرته المتاعب . حياة غريبة هذه التي نحياها ياغردون . لقد سبب ولفريد الآلام والمتاعب للجميع وقد حرمته من زمان بعيد حتى كدت أنساه . ولم يخطر ببالي ان يرث اللقب ولكن ما اغرب ارزاق الله ياغردون ، وهذا الشاب ... هل اذكرتني ما اسمه

– اسمه رالف يامولاي ولكنه يطلق [illegible] نفسه اسم رالف

– أتصور ان هذا الشاب [illegible] لورد سان ايفز الجديد . أليس هذا من الدهشات ؟ ولكن ليس لي ولا لك [illegible] لاحد في او جدان [illegible] عناية الله ياغردون أحمق في ماشكله ؟ هل هو ضعيف

حبس المستر غردون تأوهاته فى صدره مرة أخرى وقال

ــ على شيء من الخشونة والغلظة يامولاى

لقد ترى بلا مراء فى ظروف تختلف عن ... ولكن ستراه بعينى رأسك . لقد جئنا الى هذا مباشرة لان هناك امورا عديدة تتطلب الانجاز ان راف ـ اعنى فخامته ـ ينتظر فى غرفة الاستقبال الصغرى فلك أن تراه وتحكم بنفسك أرجو ان تكون خطاباتى التى امثت بها اليك قد اعطتك فكرة . . .

فقال لورد ز ايفز ـ مستسلما

ــ أى نعم . انى اتوقع شيئا غير عادى بالطبع انه شاب تربى فى برارى امريكا بين قوم غلاظ

غلاظ جدا يامولاى

[illegible]

ــ [illegible] غردون

ــ هذا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ـ هذا اسم المحلة التى وجدته بها

ـ حسنا : انه اسم غريب على السمع « حنة الراقصة » أليس كذلك

ـ ومع ذلك وجدته شديد التعلق بالمكان وأهله

ـ هذا طبيعي بلا ريب . لقد اخبرنى ثقة ان الفقراء يسوءهم الانتقال من الاقذار التى يعيشون فيها الى المنازل النظيفة التى بنيت لهم أخيرا . ولكن لاعجب فهذه سنة الطبيعة البشرية ياعزيزى غردون

ذكر المستر غردون التجارب والمتاعب التى احتملها أثناء الرحلة الى الوطن فقال فى تأسف

ـ نعم [illegible] ستراتفير شىء كثير من غرائب الطبيعة البشرية فقال [illegible] ابعز ملوحة الاطمئنان

ـ ولكن سنصبح من شأنه ياعزيزى غردون وستجدانه سينضم الى صفوفنا فى سهولة . سرعة

لم يسع المحامى الا ان قال بلهجة الارتياب

ـ هذا [illegible] يامولاى

[illegible]

ـ [illegible] ؟

وكان مستر [illegible] رغبة [illegible] المحنة المتطرفة [illegible]

ـ [illegible] قضيت [illegible]

[illegible] ...

ـ [illegible] فى

[illegible]

كل حال يجب ان لاتنسى ياغردون ان الذى اكتشفه هو لورد ستراتفير وانه بالرغم من خشونته قد ورث لقبا من أقدم القاب الدولة وأكبر ضياع انكلترا . تقول اين هو ؟ ربما يجدر بى ان أذهب اليه واحييه

فقال المستر غردون

ــ سأصعد به الى غرفة الطعام

نزل المحامى الى غرفة الاستقبال الصغرى فوجد راف جالسا فى خمول عظيم فخاطبه قائلا

ــ لقد قابلت اللورد سان ايفز وهو يود رؤيتك . تعال معي

نهض الشاب من مكانه ثم مد أطرافه الخاملة وتبع المستر غردون الى غرفه الطعام يتقدمهما أحد الخدم . وكان اللورد سان ايفز واقفاً موليا ظهره شطر المدفأ ، ولحسن الحظ لم يرتجف عند مادخل عليه راف وتقدم نحوه يتهادى بجسمه الطويل الممتلىء

تبسم اللورد سان ايفز وقد وضع نظارته على عينيه ثم مد يده البيضاء [illegible] قائلا

ــ عزيزى لورد ستراتفير ، عزيزى راف لا أستطيع أن اعبر لك عن مقدار سرورى برؤيتك ، فرحبا بقدومك الينا

[illegible] الرقيقة اللينة حتى امتدت اليه وشد اضغط [illegible] بصوت خشنه [illegible]

[illegible]

ــ [illegible] أنت الرصي ؟

[illegible] ينفرس [illegible] جسم [illegible] الممتلىء

[illegible]

— نعم أنا الوصى عليك . أرجو ان تكون قد تمتعت برحلتك

فقال راف

— كذا كذا

لم يفه الشاب بأكثر من ذلك اذ خيل اليه من الغرفة امتلأت بالخدم الذين عفروا شعرهم بالمسحوق الابيض والذين كانوا يصغون الى حديثه ويتظاهرون بعكس ذلك

قال اللورد سان ايفز

— حسناً . ستقص على كل شيء عن نفسك . اجلس ... هل تصر على الانصراف يا غ[illegible]دوز ؟ [illegible] تالهى فى اقرب [illegible] تستطاع

ثم تحول الى رئيس الخدم وسأله قائلا

— هل اللادى [illegible] هنا ؟

فاجابه الخادم قائلا

— ان اللادى [illegible] غرفتها يامولاى

فقال اللورد

— [illegible] . [illegible] لا [illegible] لاشخاص الذين لا يعتمد على مواعيدهم . . [illegible] تمتعت [illegible] أثناء رحلتك يا [illegible] ستراتفير ؟ [illegible] هذه [illegible] تفضل السفر على باخرة [illegible] ؟

وكان [illegible]

[illegible]

عن [illegible]

ومع انه [illegible]

به غير أن ماظهره الرجل من الفتور جعله يفكر في أمره . على أنه قابل فتور الوورد عنه وأجابه على سؤاله قائلا

— لا أعرف شيئاً عن ذلك ، وهذه أول مرة شهدت فيها باخرة

— حسنا ، حسنا . الآن أريد أن أعرف ياعزيزي راف ما تركته رؤية لندن في نفسك من الأثر

فقال راف على الفور

— أنها مكان قذر مريع

— حقاً ، هل هذا أثرها في نفسك ؟ نعم أنها تبدو قذرة في عين من لم يرها من قبل . ولكنها مدينة ضخمة كبيرة

فقال راف وهو يهز رأسه رافضاً قبول صنف من أصناف الطعام قدمه إليه الخادم

— نعم أنها كبيرة جداً

— ليس هناك مدينة مثلها [illegible]

فقال راف بلهجة ملؤها [illegible]

— [illegible] مدينة مثلها في أمريكا [illegible]

[illegible]

فقال [illegible]

— [illegible]

كل شيء — [illegible]

قطب الشاب حاجبيه [illegible]

في هذه [illegible]

ترتدي ثوبا أنيقا كشف عن قوامها اللدن الرقيق ، ذات شعر كستنائي أملس ، وعينين رماديتين جذابتين تتحولان الى لون بنفسجي اذا انفعلت صاحبتها أو اضطربت نعم كانت الفتاة مليحة بلا جدال ولكن كان في جمال وجهها ونظرات عينيها شيء يفوق الملاحة .

وقفت الفتاة في مدخل الغرفة واخذت تنظر من احد الرجلين الى الاخر ، واخيرا استقرت نظراتها على وجه الشاب ، على حين صاح اللورد سان ايفز قائلا

— مود . هذا أنت ؟؟ يسرني قدومك . لقد وصل ستراتفير الآن . . . . ستراتفير هذه ابنتي مود

تحركت عواطف رالف لاول مرة منذ وجده المستر غردون . والواقع لم يتأثر الشاب من ضخامة الباخرة التي ركبها او يعجب بجمال قاعتها او بملاحة بعض المسافرات معه ولم تتحرك عواطفه لشيء ما بل كان ينظر الى كل شيء كما تقع عليه عيناه بفتور وجمود لم يدهش المستر غردون لها فحسب بل حار في أمره لانه كان يتوقع ان يرى الشاب يحملق بعينيه . يفغر فاه لكل جديد تقع [illegible] عليه

اما الآن فان رؤية هذه الفتاة التي بدت [illegible] غرفة التدريس والتي كانت مع ذلك [illegible] بالرغم من جهله [illegible] حمله [illegible] ويجف [illegible] وهو [illegible] فلم يعد [illegible] ويكيزه في [illegible] وحدة [illegible] طريقه ولم يعجب [illegible] الزهر الجميلة التي نبتت في [illegible] الصحراوية [illegible] [illegible]

وسط الصخور ـ نعم لم تقع عيناه من قبل على ملاحة فتانة تأسر القلوب مثل هذه الملاحة الفائقة التى زاد وقعها فى القلوب عدم شعور صاحبتها بالهبة الثمينة التى اغدقتها الآلهة عليها اغداقاً

واذا اردنا التعمق فى بحث الاسباب التى تغلبت على عواطف راف قلنا ان فى اطوار الفتاة ماأثر فيه تأثيرا لايقل عن تأثير جمالها . نعم لم تكن اول شابة رآها وكان بعضهن جميلات ـ خذ مثلا فيفى التى كان الرجال يتشاحنون من أجلها ـ وكان على ظهر الباخرة شابات جميلات خطبن وده ، ولكن اطوار هذه الفتاة كانت تختلف عن أطوار جميع الفتيات اللائى رآهن من قبل

والواقع لم تبتسم اللادى مود ولم ترخ اهدابها الطويلة دلالا ولا طأطأت رأسها حياء بل وقفت فى مكانها وجعلت تنظر اليه فى رزانة، نظرات لاتخلو من الحنان والعطف ، نظرات هادئة بريئة احس راف عندها بأن كل فكرة تدور فى رأسه قد انكشفت لها وصارت بمثابة كتاب مسطور تقرأه الفتاة بعينيها الرماديتين

حدق راف النظر الى الفتاة فى صمت وقد تولاه الذهول وانقطع عن الطعام ، فقال المورد في نفسه انه لبيد . ولكن فراسته كان على خطأ فى حكمه لان « البلادة » لم تكن السبب فى صمت الشاب وجموده بل هى [illegible] ملكت [illegible] الهائل لخاص اذ مارتف امام تمثال فى مقصورة [illegible]

[illegible]

ـ اذا انت مترانفير . يسرني ان اراك ، لقد كنا في انتظارك

كانت هـذه كلمات عادية ولـكن خيل الى راف انها ذات اهمية عظيمة حتى وجد نفسه يكررها في رأسه . تناول اليد الصغيرة الرقيقة وابقاها هنيهة في يده ولم يجرأ على هزها لأنها بدت في عينه صغيرة ناعمة نخشى ان يمسها بأذى . اما الفتاة فقد احست ضخامة يده وخشونتها التي جاءت من أثر المطرقة والمعول وهو يبحث في بطن الارض عما تخفيه من كنوز ـ ولم تكن مود [illegible] ولـكن ظل وجهها على ملاحته [illegible] وجلست في مقعدها امام المائدة

قال راف بصوت مبحوح غير [illegible] الجهر

لقد تأخرت الباخرة عن موعدها

فقالت اللادى مود

ـــ وهل هذه أول مرة شهدت فيها انكلترا [illegible] في عينيك ولعمرى أكاد أحسدك على [illegible]

عجب راف كيف [illegible] هذه المخلوقة الجميلة [illegible]

فلم يسمه الا الابتسام [illegible] في اللحظة التي [illegible] الفتاة عند [illegible]

وكان الورد [illegible] احدثته ملاحة [illegible]

ـــ ان أمام [illegible]

ياموود : هذه [illegible]

فاجابته الفتاة قائلة

— أم، مهمه جميلة . أظن انك لم تر مسرحا

هز راف رأسه سلبا فقالت الفتاة

— ولا حفلة غنائية موسيقية ؟

وكان الشاب لايزال فى ذهوله فقال بلهجة ميكانيكية

تعودنا ان نرتل بعض اغاني وأناشيد فى « الصالون » . وفى وسع واحد او اثنين من الفتيان ان يهزا « صندوق الموسيقى » بمهارة

بدت دلائل الحيرة والارتباك على وجه الفتاة وحدق اللوردسان ايفرز النظر الى الشاب فاحمر وجهه خجلا وقال على الفور

انى اعنى البيانو . وكان بعض الفتيات يغنين ، وكنا نقيم دائما حفلة غناء لكل فتى حانه الحظ ولكن هل هـذا هو النوع الذى تقصده ؟

وقال اللوردسان ايفرز بتبسم

— ليس هذا بالضبط . ان مود تعنى « البرت هول » وما شكلها وهى مولعة بالموسيقى وسنريك كل شىء

وقالت مود

— نعم ... هذا جميل ، ولكن ما هذا « الصالون » الذى ذكرته الآن ؟

فقال والدها على الفور

— أصغى الى يا مود . ليس من اللياقة ان تثقلى كاهل ضيفنا بمثل هذه الاسئلة الآن

ولكن راف لم يقبل هذه المساعدة فقال بلهجة بطيئة وحمرة الخجل

لاتزال تخضب وجهه

— اعنى « الصالون » الذى كان يديره أبى فى « حنة الراقصة » الا تعرفين ذلك ؟

فاسرع اللورد سان ايفز مرة اخرى قائلا

— لم يمض وقت طويل حتى نسمع كل شيء عن ابيك ياعزيزى سترانفير . وقد انصرف غردون الان على عجل كما تعلم ولكن ، كما قلت لك ستقص علينا كل شيء بعد قليل ...

— نعم ماذا ؟

انقطع اللورد عن الحديث عندمااقترب رئيس الخدم منه واسر اليه بعض كلمات اجابه اللورد عليها قائلا

حسنا . سآتى لرؤيته . انه ذلك الرجل الذى جاء بالجواد الجديد يامود . اسألك المعذرة ، لحظة واحدة . انى شديدةالرغبة فى الحصول على الجواد لان هناك كثيرين يسعون وراءه

غادر اللورد سان ايفز الغرفة وترك الشاب والفتاة معا دين ساد الصمت هنيهة كان راف فى خلالها يراقب الفتاة وهى تاكل ، يراقب الانامل الدقيقة البيضاء وحركة ذراعها كانما يراقب حفلة غير مألوفة وكانت عيناه لاتدلان على التفكير لانه كان لايزال مستاء من تجنب اللورد سان ايفز الكلام عن الحياة القديمة فى محلة « حنة الراقصه »

اخيرا رفعت اللادي مود عينيها فرأت نظراته معصوبة اليها فقالت

— حدثنى عن ... أبيك

قدمت الفتاة هذا الطلب فى رقة ولطف ولكن وجد راف فيه مايشعر بالامر فقطب جبينه قليلا ولكنه لم يحول نظراته عن وجهها

وهو يجيبها فى شيء من الجرأة قائلا

— كان رجلا « ابيض »

فكررت كلمته فى رفق كأنما ارادت أن تقف على معناها قائلة

ـ تقول أبيض ؟

فقال راف يفسر قوله

ـ أعني انه كان رجلا مستقيما نقي القلب لم يؤذ احدا فى حياته ان كل « الفتيان » يقولون لك ذلك وقد كانوا يحبونه ويحترمونه ويطيعون كل اوامره فكانوا له كالاطفال وكان لهم كالوالد تكفيهم كلمة واحدة منه . هل فهمت معنى قولى

فقالت الفتاة دون ان تبدى اقل أشارة تدل على الدهشة أو الاستغراب من اللهجة العادية التى اعرب بها عن آرائه

ـ نعم فهمت

ـ حسنا ، كانت هذه صفات أبى . وكان يدير «الالدرادو» وهو الحانة الوحيدة فى «حنة الراقصة» . انك لاتعلمين ماأعنى . هذا اسم المحلة . وقد عشت هناك طول حياتي وكنت لابي وكان ابي لى كل شيء . فكنا والداً وابنا . كنا شقيقين ... رفيقين

تهدج صوت الشاب ثم سكت فحركت مود رأسها قليلا واطالت اليه النظر بعينين خيل الى راف انهما تجيشان لاسمان. وأخيراً قالت

ـ الآن عرفت ماتعنيه بقولك «ابيض» فانت تعنى بقولك هذا أن اباك كان رجلا طيباً سيداً

فاومأ راف برأسه وقال بلهجة الاعزاز والفخار

ـ كانوا يسمونه « السيد جيم » ولم أره يعتدى على أحد طول حياتي

فقالت الفتاة فى تفكير

ـ يجب ان تحدثنى اكثر من ذلك عن المحلة والرجال والحياة هناك .
لا بد أنها تختلف اختلافا عظيما عن الحياة هنا بحيث تشعر بغرابة

اومأ راف برأسه امتنانا لانها أدركت حقيقة حالته وقال

ـ هو ماتقولين . ان الحياة هنا غريبة بحيث اشعر كاننى سمكة خرجت من الماء . أنها صفقة جديدة لاأدرى هل اوفى شروطها

هل تعنى ...؟ نعم . نعم فهمت . ولكنك لا تستطيع التخلى عنها سيذهب عنك ماتشعر به من غرابة بعد قليل وستتعود الحياة الجديدة وستجد مساعدة من الجميع

ـ هل تعنين بقولك هذا انك ستساعديننى ؟

ألقى راف عليها هذا السؤال وهو يحدق النظر اليها فى لهفة كانما ينتظر جوابا على سؤال هام ، فقابلت الفتاة نظرته فى ثبات ثم فكرت هنيهة واجابته قائلة

ـ سأفعل بلا ريب . ان ابى وصى عليك وستعيش معنا فى منزل واحد وسنساعدك طبعاً ـ أنا وابي ـ لكى تكون سعيداً

مال راف الى الامام ومد يده اليها قائلا

ـ بالشرف ؟ هاتي يدك

تبسمت الفتاة . ومع ان ابتسامتها لم تكن لتدل على شيء اللهم الا تلذذها بطباعه ، فقد سحب راف يده وقد تورد وجهه حياء وقال

ـ معذرة . أن هذه عادة الفتيان إذا اتفقوا على أمر فيما بينهم ولكنى أراها تخالف عادة القوم هنا . هاترين أننى اجهل قواعد اللعبة التى اتقدم للعبها

فقالت اللادى مود فى رفق

ـ لنعتبر أننا تصالحنا على هذا الاتفاق . ثم لاتمضى مدة وجيزة حتى تتعلم القواعد كما تسميها لانك لاتبدو ...

فاتم راف جملتها قائلا

ـ ... غليظ الرأس ، هذه حقيقة حالى . أننى لااعرف شيئاً ومثلى مثل دب صغير ماتت أمه قبل ان تعلمه كيف يلعق مخالبه . ان امامى شيئاً كثيراً أريد ان اتعلمه ويلوح لى أننى سوف لااصل الى شيء

فقالت الفتاة

ـ كلا ، بل ستصل الى كل شيء

ثم اطرقت هنيهة وعادت فقالت

ـ وعلى كل حال هـذا أمر سهل ، فقط على المرء ان يكون طبيعياً ... صادقا

فقال الشاب بلهجة الامتنان

ـ هذا قول جميل . وعلى كل حال سأجرب الامر ، فاذا وجـدت الامر عويصاً شاقا عدت الى المحلة وتوليت إدارة الحانة كما كان يفعل و لدى العزيز

ـ انك لاتستطيع ذلك . نعم لااعرف عنك شيئاً كثيراً بعد ، ولكنك لست من الرجال الذين يولون الادبار ويركنون الى الفرار من مهمة تلقى على عاتقهم مهما كانت شاقة

نظر راف اليها هنيهة وقد خيل اليه أنها نبية أو عرافه وأخيراً اعترف قائلا بلهجة هادئة لطيفه

ـ هذا صحيح لم اتعود الهرب ولو انى لاأدرى كيف عرفت

ذلك ... ولكن يلوح لى انك تعرفين كل شىء عن الرجال . ان هذه أول مرة رأيتنى فيها ومع ذلك أشعر بانك تعرفين كل شىء عنى

لم تجبه الفتاة على هذا القول . ولم تمض لحظة وجيزة حتى عاد اللورد سان ايفز فاحس راف كانما قام بينه وبين الفتاة حاجز متين لايمكن اختراقه

لما دخل اللورد خاطب ابنته قائلا

ـ جئت بالفرس ولكنك لاتستطيعين ركوبها الآن يامود لانها لم تروض بعد الترويض الكافى

فنهضت الفتاة قائلة

ـ هذا مما يرثى له . كم يستغرق ترويضها من الزمن ؟ اريد ركوبها فى الحال

ـ أسبوعين أو ثلاثه . يجدر بك ان تدعيها حتى يتم ترويضها على الوجه الاكمل

فقالت بلهجة الاسف

ـ هذه مدة طويلة

ثم غادرت الغرفة تشيعها نظرات راف

التفت الشاب بعد ذلك الى اللورد سان ايفز وقال

ـ سأروض تلك الفرس واعيدها لها فى أسبوع واحد . كن واثقا بذلك

مال اللورد فى مقعده الى الوراء وهو يتفرس فى وجه الشاب ثم قال وهو يضحك مسرورا

ـ لعمرى انك رجل غريب الاطوار يامستر افير

لم يعلق راف على هذا القول بكلمة ولزم الصمت هنيهة ثم رفع عينيه وقال

ـ سأروضها فى أسبوع ولكن لا تخبرها انى أنا الذى فعلت ذلك

الفصل الخامس

فى المنزل

لما فرغ راف من تناول الغداء تبع الخادم وصعد معه سلما عريضا الى دهليز بديع مزين بالصور ومن ثم الى جناح فى أحسن جزء من القصر . وكانت خطواتهما صامتة لانهما كانا يسيران فوق طنافس سميكة . وكان الخادم بديع الشكل فى مشيته وهيئته على حين خيل الى راف ان الصور المعلقة على الجدران تنظر اليه دهشة وتعجب لوجوده. ولم يكن فى تلك الدهاليز هواء كثير وكان ما فيها منه مشبعا بالرائحة الزكية التى لاحظها عند دخوله القصر لذلك رأى ان المكان والهواء الذى فيه تبدو عليه دلائل الرقة والانوثة فتضايقت نفسه

والواقع كان أول عمل قام به راف بعد أن أدخله الخادم غرفة الاستقبال فى الجناح ان فتح النافذة وأطل منها وملأ رئتيه بالهواء الطلق . وكانت غرفته تطل على الميدان فلما وقعت عيناه على الاشجار والحشائش الخضراء انتعشت نفسه قليلا

وكان الخادم واقفا بجانب الباب مثل تمثال من الشمع فالتفت راف اليه وسأله قائلا

ـ ماذا تنتظر ؟ ما هو عملك ؟

وكان الخادم يشعر برهبة من هذا الشاب الضخم بشعره النحاسي وطريقته الغريبة في الكلام وعينيه اللامعتين ، فاجابه قائلا

ـ اسمي جيمس يا مولاى ، اذا سرت بخدمتكم فقال راف في رفق

ـ نعم أسر . ان جيمس اسم لا بأس به ولكن جيمي خير منه . انه أسهل في النطق ، ألا ترى ذلك ؟

بدت امارات الهلع على وجه الخادم وحال اضطرابه دون جوابه على انه قال

ـ هل أنت في حاجة الى شيء يامولاى ؟

ـ كلا ؟ سأناديك اذا احتجت اليك . انك على مقربة من هنا على ما اعتقد ؟

ـ يوجد جرس يامولاى

ـ حسنا . سأستعمله متى فكرت به ولكن النداء أسهل . الى أين يؤدى هذا الباب ؟

أشار راف الى باب في طرف الغرفة ، فاجابه جيمس قائلا

الى مخدعك وغرفة الملابس يامولاى

ـ حسنا . لك أن تنصرف الآن

لما انصرف جيمس فرحا ، أخذ راف يتفقد الغرفة وما فيها وقال في نفسه انها أصلح [illegible] منها لرجل وتعجب كيف تكون [illegible] لا [illegible] اذا كانت هذه ـ غرفة رجل ـ تحتوى على كل هذا الاثاث الفاخر ؟

والواقع كانت الغرفة تحتوى على بضعة كراسي لينة ومتكأ [illegible] ومنضدتين صغيرتين ودولاب جميل للكتب وصورة بديعة ، وفي أحد أركانها منضدة للتدخين بجانبها دولاب صغير مملوء [illegible] التبغ

فجعل راف ينظر الى هذه كلها ويهز رأسه ارتياحا واعجابا ، الى أن وصل الى طرف الغرفة ففتح الباب المؤدى الى مخدعه وعندئذ وقعت عيناه على شاب نظيف الثياب يميل فوق حقيبته «راف» ويخرج منها أدواته وثيابه

لم يكد يقع نظر راف على الشاب حتى ثار غضبه فوثب اليه وقبض على [illegible] ردفعه نحو الحائط قائلا

— [illegible] هل انت [illegible] تعودت دخول غرف الناس لتعبث بامتعتهم [illegible] بصرهم ؟ ماذا تستطيع قوله قبل ان القيك من النافذة ؟

لهث الخادم المسكين وقال بلسان متلعثم

— انا خادمك الخاص .. يا مولاي

فقال راف في دهشة وارتياب

— [illegible] ماذا ؟

— [illegible] مولاى [illegible] ان تزال بخدمتك وكنت [illegible] لوضعها في المكان اللائق بها

ارخى راف [illegible] اعصابه وتقهقر نحو السرير فجلس [illegible] ثم اشعل [illegible] الدخان الى الهواء وهو لا يزال يحدق [illegible] لا استطيع التحرك من مكانه [illegible]

— [illegible]

— [illegible]

— [illegible]

حفظ اسمائكم جميعا اذا كان هناك غير الذين رأيتهم وهل ستتولى الاهتمام بشئونى وادواتي ، هل هذا كل ما عليك عمله ؟ اذا كان الامر كذلك فان مهمتك سهلة ايها الرفيق

تشجع ولسن وعاد الى الحقيبة قائلا

— لدى اعمالى العادية يا مولاى ثم على ان أساعد فخامتكم على ارتداء ثيابك

فقال راف بلهجة عنيفة

ـ ماذا تقول ؟ تساعدنى على ارتداء ثيابى ماذا تظننى ؟ هل تظن اننى معتوه أو طفل . لعمرى أكاد اعتقد اننى شخص آخر . ماالفائدة من تعيين وصى وخادم خاص . . وهل هـذا ما كنت تصنعه طول حياتك

فقال ولسون بلهجة الاحترام

ـ بعض هذا يامولاى . وقد بدأت حياتى كغلام فقال راف فى دهشة كبيرة

ـ ماذا كانت مهمتك أيها الشيطان

دهش الخادم [illegible] رد وقال

ـ كيف أظل غلاما يا مولاى طول حياتى ؟

ـ [illegible] فى ورطة لا أستطيع الخروج منها ولكن عليك [illegible] فى التخلص منها . تذكر يا ولسون اننى حكمت من الروبة الاخرى [illegible] من بلدة [illegible] فى امريكا ، جئت [illegible]

[illegible] لأن [illegible] لا

[illegible] ذلك [illegible]

فقال ولسون

ـ أرى أن لديك ثيابا قليلة

تقول ان ثيابي قليلة ؟ لماذا ، ان فى هـذه الحقيبة ما يكفى ستة أشخاص هل تعنى انني سأحتاج الى غيرها ؟

فقال ولسون فى رزانه

ـ بلا ريب يا مولاى لا أرى بـين ثيابك ما يصلح للسهرة ولا معطفا للصباح . .

فقاطعه راف قائلا

ـ ماذا تظن ان افعل بالثياب الاخرى ، هل أمرغ ام انام فيها

انك فى حاجة الى معطف الصباح لـكى تتمشى فى البستان يامولاى أما ثياب نومك ففي وسعي ان اجد لك « بجاما »

ـ ما هذه ؟ ان اسمها يشبه نوعا من الافاعي . آه انك تعنى الثوب الذى أرتديه عند نومي هل انا فى حاجة الى غيرها !

فتنهد الخادم اذعانا وقال

ـ أى نعم يا مولاى

ـ أظن ان هناك مخازن عديدة فى جوار هذه « المستعمرة » . سأذهب لشراء ما احتاج اليه منها

بدت دلائل الهلع على وجه ولسون وتمتم قائلا

ـ ان هذا لا يليق بمقامك يا مولاى سيأتى خياط الاورد سدن الى هنا غدا ويحضر مجموعات من الاقمشة لتنتقى منها ما تريد ويأخذ مقاسك

فاذعن راف قائلا

ـ حسنا ، ولكن يلوح لى ان هذه طريقة طويلة للحصول على الملابس

ـ ولكنها طريقة تضمن حصولك على ثياب انيقة يامولاى متى تريد ان ايقظك فى الصباح ؟

فقال راف اعتباطا

ـ حوالى الساعة الخامسة

نظر الخادم اليه فى دهشة وقال

ـ الساعة الخامسة بعد الظهر يامولاى ؟

كيف ذلك ايها الغبى ؟ هل تظن انى سارقد فى فراشى طول يومى مثل فتاة مريضة ؟

كلا يامولاى ولكن الوقت يكون مبكرا

ـ اذن فى منتصف الساعة السادسة . متى يستيقظ الاخرون ؟

ـ يستيقظ فخامة اللورد فى الساعة التاسعة ويتناول فطوره الساعة العاشرة

فقال راف بلهجة التوكيد

ـ هذا لا يلائمنى . انى تعودت ان اتناول هنا ... ساعات

ـ فى وسع فخامتك ان تتناول الشاى متى شئت .. ... ان الظاهر يستيقظ فى ... الساعة يامولاى

ـ ... هو الظاهر ... شأنى ، على كل حال .

فقال ...

ـ الظاهر هو ... يامولاى ... ان ... ...

دار راف فوق السرير حتى استوى في مجلسه ثم خاطب ولسون بلهجة الحزم قائلا

ـ يلوح لى أنى لا أعرف شيئاً من قواعد العيشة فى هذا المنزل ولا القواعد البسيطة منها . لا اتناول الشاى فى الصباح واذا شئت ان تأتي الى بشيء من الطعام فاحضر معك شريحة من اللحم و « شوب من البيره »

فقال ولسون فى ذهول

ـ وأنت فى فراشك يامولاى ؟

ـ كلا ايها المعتوه . ضعها فى الغرفة التالية حوالى الساعه الثامنه وسأتجول قبل ذلك حول المدينه ثم اعود ولى شهية للطعام ماذا تصنع !

القى راف هذا السؤال لان ولسون كان قد تقدم اليه وشرع يخلع معطفه ـ فاجابه الخادم قائلا

ـ سأخلع معطفك لتغتسل فخامتك

فرفع الشاب عينيه نحو السقف وقال

يا الهى . ان من يرى هذه الاعمال يظن انى مفلوج

ثم نزع معطفه والقاه على رأس ولسون فتخلص الخادم منه وتقدم الى منضدة الغسيل ووقف بجانبها يحمل منشفة (فوطة) فدفع راف رأسه فى الوعاء الكبير ولم يلبث ان نظر الى الخادم شزرا وقال

ـ أيها الشاب ، انك تهمل واجباتك : لم تغسل وجهى بالصابون ولا قفاى وسأضطر الى تغريمك ريالا . هات هذه الفوطة وانصرف

نظر ولسون المسكين الى الشعر النحاسى ثم الى الفرشة ولكن نظرة أخرى الى وجه راف حملته على مغادرة الغرفة والاسراع الى غرفة الخدم حيث جلس على كرسى اعياء وأخذ يقص على رفاقه الذين التفوا حوله ما أصابه قائلاان اللورد ستر انفير الجديد لا يقل عن وحش ضار وانه يخشى على حياته منه

لما «تخلص» راف من خادمه شرع يرتاد على مهل الغرف التى خصصت له ثم نزل الى البهو أو بالحرى حاول الوصول اليه فضل الطريق وسار خطأ فى دهليز وفيما كان ينظر فيما حوله بشىء من الحيرة اذ سمع اصواتا تحته فنزل بضع درجات وعندئذ وجد نفسه فى القسم الخاص بالخدم

وكان خادم وخادمة يشتغلان بتنظيف الادوات الفضيــة اللامعه فقال

— أرى لديكم بضاعة جميلة هنا . من أى شىء صنعت ؟

ارتجفت الخادمة وحولت وجهها اليه وقد هالها ان تراه . وكانت تعرفه طبعا من الاوصاف التى سمعتها عنه من ولسون وغيره من الخدم؟ فاجابته بصوت خافت قائلة

ـ انها من . . . من الفضة يامولاى

فصاح راف دهشة قائلا

— ماذا ! انكم مهرة فى صنع الاشياء هنا . ثم لا بد انكم اشتهرتم بالامانة ـ الا لاختفيتم ببعض هذه الاشياء

وتبسمت الخادمة ابتسامة لاتخلو من الاحترام لان فى أطوار الشاب وهيئته ما يشعر بالاحترام بالرغم من خشونته ، وفوق ذلك كانت كل خادمة فى القصر مدر بة بحيث لاتحاول التقرب الى شخص عظيم كاللورد سترانفير مهما يكن قليل الخبرة والدراية . والواقع

اجابته الفتاة فى هيبة قائلة

— ان المستر بارك رئيس الخدم يحصي جميع هذه الادوات صباحا ومساء ، وهذه الغرفة من حديد

فقال راف

— هذا أقل مايجب عمله

ثم ضرب اسفل ذقنها بلطف وهو يتكلم فاحمر وجه الفتاة دهشة واستياء ولكن استياءها لم يلبث ان ذهب عند مانظرت الى عينيه فلم تجد فيهما مايشف عن العداء ، على حين قال راف

— لقد ضللت طريقي لان هذا القصر كبير كالمدينة . اخبرني أيها الرجل أين تربطون جيادكم ؟

بدت دلائل الحيرة على وجه الخادم هنيهة ثم أجابه قائلا

ـ ان الاصطبلات على مقربة من هنا يامولاى . سأرافقك اليها

تقدم الخادم راف الى الاصطبلات . وكان احد السواس جالسا على صندوق فارغ وقد شمر عن ساعديه يدخن غليونه فلما ظهر راف انتزعه من بين أسنانه ودسه فى جيب سرواله ثم وقف ورفع يده الى رأسه بالتحية فقال راف

— هل حرقت لسانك ايها الرفيق ؟ لست ممن يرتاحون الى مثل هذا العمل وفوق ذلك فان التدخين لذيذ هنا فى الهواء الطلق . أرنا جيادك ايها الشاب

رفع السائس يده الى رأسه ثانية ثم فتح بابا من أبواب الاصطبل ولم يكن به جياد جديدة غير ماخصص للمركبة ومركب اللادي مود والدورد سان ايفز . وكان راف مغرما بالجياد فأخذ يتنقل من مزود

الى مزود ويرمق كل جواد بعين الناقد واخيرا قال

— انها سمينة قليلا لكثرة الكلأ هنا وويرنه . انكم تقدمونه عن سعة أما فى البلاد التى أتيت منها فان الجياد هزيلة نحيلة أين الفرس التى اشتراها اللورد سان ايفز ؟

فتح السائس بابا خاصا وقال

— هاهى يامولاى . انها فرس جميلة ولكنها صغيرة غير مدربة

ألقى راف على الفرس نظرة دقيقه فوجدها جميلة كريمة الاصل . ونظرت الفرس بدورها الى الشاب ولم تلبث ان حركت اذنيها وجفلت عند ماوضع راف يده على رأسها ولكنها هدأت وهو يمر بيده على جسمها برفق ومدت انفها نحوه فقال راف

— لابأس بها . اصغ الى . سأتولى الاهتمام بها فاغذيها فى الصباح وفى المساء وسأروضها أن فروتها خشنة ، أليس كذلك

فقال السائس

— وصلت الينا الآن ولم يكن لدى وقت لتنظيفها

نزع راف سترته وصدريته وشمر عن ساعديه وقال مخاطبا السائس

— اعطنى فرشة

دهش الرجل ولكنه جاء بالفرشة قائلا

— دعنى اتولى تنظيفها يامولاى . ان فروتها قذرة وأخشى ان تلوث ملابسك

فقال راف

— اذا قمت بتنظيفها فان هذه لا تكون أول مرة

ثم أخذ يداعب الفرس قائلا

— هيا ياجميلة . اثبتى ياحلوة . سأضع عليك ثوبا من الحرير .
دعها أيها الرجل . سنكون صديقين بعد قليل ، أنا وهذه الشابة الصغيرة

ثم شرع يسوسها وينظفها بمهارة فائقة ويد مدربة ، وهو يخاطبها تارة ويغنى لها أو يصفر اخرى فلم تلبث ان مدت عنقها الى كتفه فقال الشاب

— انها حلوة . هات بضع قطع من السكر لها

ذهب السائس فسمع راف على اثره صوت اللوردسان ايفز فى فناء القصر ولكنه لم يكترث به واستمر فى مهمته فجاء سان ايفز ووقف جامدا فى مكانه ، يحدق النظر فى ذهول الى السائس الغاوى ولم يسعه الا أن صاح قائلا

— قل ماذا تصنع ياعزيزى سترانفير ؟

فاجابه راف فى هدوء

ـ لاشىء غير انى ازيل اقذار هذه الفرس انها من الافراس الجميلة اليس كذلك ؟ أرى انك ماهر فى انتقاء الجياد الكريمة

فتلعثم سان ايفز قائلا

ـ ولكن . . . ولكن لماذا تقوم أنت بتنظيفها ؟ يوجد رجال عديدون هنا ياعزيزى سترانفير . ولم يسبق ان . . .

فقاطعه راف قائلا

ـ لابأس مطلقا

ثم ارتد الى الوراء وارتكن الى جدار الاصطبل ومسح بذراعه العارية العرق المتصبب من جبينه وهو ينظر الى ماصنعته يداه بعين الارتياح والاغتباط ثم استطرد فى حديثه فقال

ـ الا ترى ان على ان اهيىء هذه الفرس للانسة الشابة فى خلال اسبوع وانه يجدر بى ان ابادر الى عملى ؟ انظر كيف صرنا صديقين من البداية ، اليس كذلك اى فرسى الجميلة ؟

ثم ضرب الفرس بلطف على عنقها وحك خيشومها الاماس ثم ارتدى سترته وغادر المكان بخطوات ثقيلة فصاح الرجل وقد هاله مارأى قائلا

ـ تعال الى القصر بالله لكى تغتسل

فقال راف

ـ لابأس

ثم نادى أحد صبيان الاصطبل قائلا

ـ ائتنى أيها الصبي بجردل من الماء وقطعة من الصابون ومنشفة

صدع الصبي بالامر فاضطر اللورد سان ايفز ان يقف وعلى ثغره ابتسامة تطارد عبوسة وجهه على حين كان لورد ستراتفير يغتسل فى جردل من جرادل الاصطبل يحيط به جماعة من السواس والخدم الذين هالهم مارأوا ولكنهم مع ذلك لم يسعهم الا الاعجاب به

ولما فرغ راف من الاغتسال وارتاد سترته خاطبه سان ايفز قائلا

ـ اصغ الى . انى ذاهب لاتمشى فهل لك ان ترافقنى الى النادى

وكان الرجل يخشى أن يدع راف منفرداً لانه كان يعتقد ان هذا الشاب الغريب لابد أن يأتى بعمل آخر لا يليق بكرامته فيتقدم على تنظيف المركبات أو اطقم الجياد أو يجلس للتحدث مع السواس

على ان الشاب قبل طلبه فى ابتهاج قائلا

ـ هذا حسن انى أريد أن أرى المدينة وقد اصر المستر نرمنون

على أن يأتى الى هنا فى عربة فلم أر شيئا

تأبط اللورد سان ايفز ذراع الشاب وقلبه يفيض عطفا على المحامى المسكين ثم سار الاثنان معا فلما وصلا الى أول مخزن الملبوسات اعرب سان ايفز عن رغبته فى شراء قفاز له فدخل المكان وهناك جلس راف على كرسى وأخذ يراقب سان ايفز وهو ينتقى القفاز من الصناديق التى جاءت بها شابة وعرضتها عليه فقام راف من مكانه وخاطب الفتاة قائلا

— اسمعي أيتها الفتاة . انتقى لى زوجا منها

تبسم اللورد سان ايفز فى نفسه ولما سألت الشابة عن المقاس الذى يلبسه راف لم تظهر شيئا من الدهشة عند ما أخبرها انه لم يلبس فى حياته قفازا ووضع يده الضخمة أمامها فقاستها الفتاة بالطريقة العادية وفيما كانت تقدم اليه زوجا منه قالت بصوت رقيق خاله راف من مميزات بنات لندن

— هل تريد قفازات بيضاء ياسيدى ؟

عندئذ حملق راف فى وجهها وقال

— ما فائدة هـذه اذن ؟ اذا ارتديتها ظهرت كالخادم الزنجي وتمزقت على أثر لبسها

فقال اللورد ايفز

— كلا . كلا . ستحتاج الى واحد منها لاجل حفلات السهرة

فقال راف فى شيء من البلاهة

— حقا ؟ هل لك أيتها الآنسة أن تعطينى واحدا أكبر ؟

أخرج راف من جيبه كيسا كبيرا من الجلد ولكن سان ايفز مد اليه يده قائلا ان الاشياء التى ابتاعها ستقيد على حسابه ، فقال راف

— هذا حسن . لا تقلق أيتها الآنسه انني اقيم مدة ونقودى كافية . اخبريني كم ساعة تشتغلين هنا وما هو أجرك ؟

هز سان ايفز رأسه اعتذارا للفتاة التى غلب عليه الحياء الآن.

ولما وصل الوصى مع الشاب الى الخارج خاطبه بلهجة رقيقة قائلا

— اصغ الى ياسترانفير . اننا لا ندعو الفتيات التى يشتغلن فى المخازن باسم « الآنسة » لاتنس ذلك . لا أقول انه يجدر بنا أن لا نفعل ذلك ولكنى أقول اننا لم نتعوده

فسأله راف قائلا

— من أين لى أن أعرف انها متزوجة ؟

أنقطع اللورد سان ايفز عن الحديث وقد تملكه القنوط ثم سارا فى طريقهما الى بيكادلى واتفق ان مر على بائعة زهور عرضت عليهما بعض ورود فوقف راف أمامها وصاح قائلا

— هذه ورود جميلة ، انها أول ما شاهدته هنا انظر كيف تقدم اليك فتاة كهذه ورودا جميلة !! اعطنى بعضا منها أيتها الآنسة ... لست متزوجة اليس كذلك ؟

فاسرع سان ايفز قائلا

— كلا . كلا لا أستطيع أن نحمل مجموعة كبيرة كهذه معك . خذ ورود منها فقط

فقال راف فى تبرم

كما تريد . كنت افكر بالسيدة الصغيرة فى القصر اذ يحتمل انها تحتاج الى بعض منها

ـ هل تعنى اللادى مود ؟ اعلم ياعزيزى ان هـذه مكرمة منك

ولكن مثل هذه الزهور ترسل الى القصر يوميا بكثرة لا حد لها
فقال راف

ـ ان مدينتكم جميلة . اظن ان بعض هذه المخازن تساوى مبلغا كبيرا من المال ولعمرى يلوح لى ان هذه المخازن ما يكفى لسد حاجات العالم أجمع ثم ان قصوركم فاخرة . اخبرنى من يقطن فى ذلك المنزل؟

ثم أشار الى ناد من النوادى الكبرى فاخبره الاورد سان ايفز باسمه وقال له انهما ذاهبان الى ناد مثله
فقال راف

— أظن ان النادى عندكم هو مكان تذهبون اليه لتمضية شطر من النهار والتدخين والشراب انا نسمى مثل هذا المكان « صالونا » لدينا فى الغرب

الفصل السادس

مقابلة خطيرة

وفيما كان الرحالان يعرجان الى شارع ضيق اذ تقدم اليهما رجل تبدو عليه دلائل الشقاء والتعاسة وطلب منهما احسانا . فقطب راف جبينه ونظر فى حيرة الى سان ايفز وسأله قائلا

ـ انه يتسول ، تعالى أيها الرجل

تقدم الرجل وقال فى استكانة

ـ لم أذق طعاما منذ يومين يا سيدي

فسأله راف بلهجة قائلا

— ما هذا ؟ ألم تذق طعاما منذ يومين فى مكان كهذا ؟

ثم رفع قبعته الى الوراء ودس يديه فى جيوبه ونظر حوله فى حيرة وعاد فقال

— اذن لماذا لا تساعد نفسك ؟ اذن لابد أن تكون معتوها حتى تسير يومين بلا طعام وحولك مثل هذه الاماكن . اخبرنى من أى طراز من الرجال انت ؟خذ هذا واشتر لنفسك شيئاً من الطعام

ثم القى اليه جنيها من الذهب فالتقطه الرجل وهرول مسرعا على حين قال راف

— ان هذا اغرب مارأيت منذ وصولى الى هنا . ان مدينتكم هذه تظهر بمظهر الغنى والثروة ولكن هاقد رأيت هذا الرجل يأتى اليك ويقول انه يتضور جوعا

فاستحثه اللورد سان ايفز على السير قائلا

— ان الرجل كاذب على الارجح ياعزيزى سترانفير ، ولكن هل تظن أن ليس لدينا فقراء هنا ؟ ان لدينا ألوفا من التعساء والبؤساء

فقال راف فى رزانة

— لااجهل أن هناك فقراء ولكنى لم أتوقع رؤيتهم وسط الشوارع الكبرى فى مدينتكم

فقال سان ايفز : وربما كانت هذه أول مرة أدرك فيها حقيقة الامر

— انهم فى كل مكان . ماحيلتنا ؟ ان المدينة غاصة بالسكان مثل خلايا النحل وليس هناك عمل ما . وعندى أن معظم الرجال الذين رأيته الان لا يحجمون عن الاشتغال اذا وجدوا عملا ، ولكن عليك ياسترانفير ان لاتلقى بنفسك بهذه الحالة فقد كان يكفى أن تعطى بأمة

الزهر شلنا واحدا ومثله لذاك المتسول ولكن لاتقلق فستقف على كل هذا فى الوقت المناسب

فقال راف بلهجة الارتياب

ـ قد يكون ذلك ولكن لماذا لاتشحنون مثل هؤلاء الاشخاص إلى الخارج ؟ اننا فى حاجة قاسية اليهم فى الغرب (امريكا) هل تقصدون أن تتركوهم هنا يتضورون جوعا ؟

فقال اللورد سان ايفز فى بطء وهدوء

— لقد طرقت يا عزيزى ستراتفير مشكلة حيرت اكبر أدمغة فى بلادنا . وسترى فى لندن أموراً عديدة تدهشك . وكلما ادركت انك لاتستطيع اصلاحها كان ذلك خيرا لى ولك . هاقد وصلنا الى النادى

كان نادى جرين من أعظم نوادى لندن الارستقراطية الفاخرة . ومع أن بناءه لايجارى القصور الحديثة التى شيدت فى لندن من حيث أبهتها وفخامتها إلا أنه كان من الابنية التى تبعث الرهبة والجلال فى النفس فتأثرت نفس الشاب الذى كان كل شىء فى لندن جديداً فى عينيه فوقف فى بهو النادى ، داساً يديه فى جيوبه ودار بعينيه فيما حوله وأخذ ينظر الى الاعمدة الرخامية والقاعات الواسعة والرواق الفسيح زاعماً فى نفسه أنه اذا جاء اليه وحده ظنه كنيسة . وأخيراً التفت الى اللورد سان ايفز وقال

ـ هذا « صالون » فاخر ... لا . انكم تسمونه « نادياً »

فقال سان ايفز وهو يتقدم الشاب الى الغرفة التى يخلعون فيها معاطفهم وقبعاتهم

ـ انه مكان جميل لا بأس به

وبعد أن تناول الخادم منها قبعتيهما ومعطفيهما قال سان ايفز

ـ تعال الى قاعة التدخين

وكانت القاعة من اجمل القاعات فى النادى فنظر راف حوله وقال بلهجة الاستحسان

ـ بديعة . لديكم غرفة تستطيعون أن تمدوا أرجلكم فيها

وكانت القاعة غاصة باعضاء النادى فرفعوا اعينهم عن الصحف التى كانوا يقرأون فيها أو امسكوا حديثهم ليحيوا سان ايفز . وقد حالت آدابهم دون احداق النظر الى الشاب الطويل ولكن علم اللورد سان ايفز انهم يتوقون الى معرفته فوضع يده على منكب راف وجذبه الى جماعة من اصدقائه ومعارفه وخاطبهم قائلا

ـ هذا سترانفيرو قد وصل أخيراً ، وهو الذى حدثتكم عنه من قبل

فأومأ بعضهم برءوسهم وقام اثنان أو ثلاثة منهم ومدوا أيديهم وليتهم لم يمدوها الان راف ضغط عليها بشدة عدها بعضهم خشونة منه

أخيراً دعي راف الى الجلوس فجلس على كرسى ثم مد رجليه الطويلتين وأخرج غليونه وعلبة التبغ النحاسية ، فاخذ الرجال يراقبونه من طرف خفى باهتمام غير عادى ، الى أن قال السر روبرت ارفر ستراند ، وهو سيد متقدم فى السن ، له ابتسامة حلوة .

ـ اذن وصلت . لا أريد ان اسألك رأيك عن لندن

فقاطعه راف قائلا

ـ كلا . لا تفعل . لقد سئلت هذا السؤال السخيف عشر مرات أو اكثر منذ نزولى الى البر ، ولكن لا يهمنى اذا ذات لك ان مدينتكم هى أغرب مكان رأيته ولو اننى لم اشاهد كثيرا من المدن

فاومأ الرجل برأسه وقال

ـ اسمح لى أن أقول أيها اللورد ستر انفير انك على حق فى اعتقادك فان مدينة لندن من المدن الغريبة التى لامثيل لها

فقال راف

لاادرى معنى هذا القول ولكنى اقول انك على حق . ان سان هذا ـ وهو الوصي على ـ يطوف بى حول المدينة .وقدوقعت عيناى على أشياء ادهشتني :يلوح لى أنكم جميعاً فى هناءورخاء تهتمون براحة أنفسكم . والواقع لاباس ان يكون للمرء مكان كهذا يقضى فيه برهة من وقته

.وكان هناك شاب قد مال فى مقعده الى الوراء مغمضاً عينيه ، يحمل سيجارة فى زاوية فمه ، فقال

— تقول برهة من وقته ؟ ان بعضنا يقضى طول يومه هنا

تحول راف اليه وتفرس فى وجهه ثم زجر قائلا

— حقاً ماتقول ؟ اظن ان هذا مؤلم لكم إذ كيف تقضون بقية يومكم وأين تعملون

استطاع الشاب ان يرفع عينيه فنظر الى راف في دهشة ثم خاطب رفاقه بلهجة تشف عن الاسف قائلا

— لاافهم مايقول

فقال السر روبرت

— اعلم ياعزيزي اللورد ستر انفير ان السيد الذى يخاطبك هو المستر بونسبي جونز وقد جمع والده من المال ماينوف أوهل مليونين ياجونز ؟ ـ من تجار المطاط ... أو النحاس ، أليس كذلك ؟ فكانت

مجرد فكرته عن المجهودات التي بذلها والده سبباً فى سلب قواه فلم يستطيع القيام بشيء اللهم الا أن يميل فى كرسيه الى الوراء ويدخن سيجارة وراء أخرى كما تراه الآن

ألقى راف نظرة على جسم الشاب الممتد امامه ثم هز رأسه وقال

— لا انهم هذا . وبقيتكم ، الا تفعلون شيئاً ؟ الا تقومون بعمل ما ؟

— معظمنا لا يفعل شيئاً . وعلى كل حال لا اظن ان تناول العشاء فى الخارج والذهاب الى حفلات الرقص والمسارح وركوب الرقاصات والصيد ، يعد عملا

فقال راف في تفكير

— لا ادرى . اذا وفقتم عملكم على كل هذه الامور فمن المحتمل ان يتولاكم الملل بعد زمن قليل

فقال رجل آخر

ـ لقد نسيت «البردج» يا اوفرستراند

فقال الرجل

ـ أى نعم . هذا عمل نستغل به كلنا

فقال راف المسكين وقد تجلت على وجهه دلائل الدهشة

ـ هل تشتغلون كلكم بهذه الكبارى (وهى اللفظة التى تدل عليها كلمة بردج الى تبدونها) ؟

ضحك الجميع من سذاجة الشاب فلما خف ضحكهم قال اللورد سانت بفز

ـ أنهم يعنون بكلمة «بردج» نوعا من أنواع اللعب بالورق يعرفه خيراً قليل بعضهم

ـ هيا نصعد به الى فوق لنريه

نهض راف من مكانه قائلا

ـ نعم هيا . انى هنا لارى كل شيء ولعمرى سيتولاكم الملل قبلى

تأبط لورد سان ايفز ذراع الشاب وصعد معه الى قاعة اللعب .

وكانت هناك بضع جماعات من الرجال ملتفين حول الموائد يلعبون فاعطى راف مقعداً ليتفرج ، وكان الصمت شديداً واللاعبون منهمكين فى اللعب حتى نسى الجميع الشاب

ومن الغريب أن راف لم يكن مغرما بلعب الورق بالرغم من انه قضى حياته فى عشرة رجال لهم ولع شديد بالمقامرة . والظاهر أنه شهد مشكلات ومنازعات عديدة نجمت عنها وفوق ذلك كان لحسن حظه راغب عنها فقد كان يعتقد دائما من ان من العار والنذالة ان يخاطر المرء بمال جمعه بعرق جبينه فيضيعه أو يبتز مالا جمعه غيره بالوسيلة عينها . وعلى ذلك لم يلبث ان تملكه الملل من مراقبة اللاعبين فقام وسار بخطوات ثقيلة الى النافذة وجعل يطل منها على المارين تحته فى شارع سان جيمس

شاهد راف الشارع غاصاً بمركبات الخاصة وسياراتهم الفاخرة وقد تلى بعضها بعضاً فى خطوط بلا نهاية له ورأى الرجال بثيابهم الانيقة والنساء بملابسهن الملونة البديعة يسيرون على الارصفة فخيل اليه أنه انتقل الى عالم آخر يختلف اختلافا تاماً عن العالم الموحش الذى كان يعيش فيه أو انه وقف يشاهد حركات هذه الاشباح العديدة

وكان الذين يرفعون أعينهم الى النافذة اتفاقا يزعمون أنه شاب غريب يسلى نفسه بالمشهد الذى امامه ولكن راف كان فى الواقع يقلب

الامور فى رأسه ، يتلمس الطريق مثل رجل يخوض مجرى من الماء ليصل الى أرض ثابتة مأمونة وكان راف يعد نفسه غريباً عن الذين اجتمعوا خلفه يلعبون الورق فاحس بانه فقد اتصاله بالحياة القديمة وأنه لن يتصل اتصالا وثيقاً بهذه الحياة الجديدة ، لذلك حن الشاب الى وطنه وآثر ان يتخلى عن اللقب والمال والاملاك التى آلت اليه مقابل رؤية المحامى جو أو مصافحة واحد من العمال الغلاظ الذين كانوا يشتغلون معه فى التعدين

أخيراً شاهد راف سيدة جالسة فى سيارة فاخرة فصعد الدم الى وجهه عند رؤيتها ولا عجب فقد كانت هى اللادى مود فتمنى ان ترفع الفتاة عينيها لتراه ، ولكن لم تكد هذه الرغبة تتحول الى صورة جلية حتى حولت مود رأسها ورأته واقفاً فى النافذة ، فحيته بإماءة من رأسها وابتسامة من ثغرها . والظاهر ان الفتاة لاحظت ما تجلى فى عينيه من دلائل الشوق واللهفة فامرت السائق بالوقوف

اجتاز راف الغرفة بخطوات واسعة نحو الباب وقبل ان يخترق العتبة، صاح سان ايفز قائلا

ــ الى أين أنت ذاهب ياستر انفير؟

فاجابه راف عند ما بلغ الباب قائلا

ــ انى ذاهب

صاح سان ايفز غضبا وتألما ثم نهض من مكانه قائلا

ــ لا أدرى ماذا اصابه ؟ انى مضطر الى الذهاب أيها الرفاق معذرة

فتبسم السر ارفر ستراند قائلا

ــ اجلس ياعزيزى سان ايفز . هل تظن ان فى وسعك ان تلحق

ذلك الشاب فى سلسلة ساعتك طول الوقت ؟ اذا كان هذا مما يدور بخلدك فانت مخطيء . يجدر بك ان تدعه وشأنه أو تسوسه وانت ترخى له العنان والا جمح منك

فزمجر سان ايفر قائلا

ـ كل هذا حسن ولكن أقول لك انى لا أدرى ماذا يصنع وقد تملكتنى الحيرة منذ قدومه وهو لا يدرك شيئا من آداب السلوك ولا مما يجب عمله ، فهو يخاطب العاملات فى المخزن التجارية باسم «الآنسه» ويخاطب كل شخص من العامة باسم « رفيق » ، انه لا يدرى شيئا من واجبها ،

فقال السر اوفر ستراند

ـ وهل تظن ان فى وسعك تعليمه ! ليس انت . بل سيعلم نفسه بنفسه

ذهب سان ايفر الى النافذة فلما رأى ابنته فى السيارة عاد وهو يتنفس الصعداء قائلا

ـ اذا كان الامر كذلك فهذا حسن شكرا لك . سأرى ابنتى ف[illegible] سيارتها هناك .

فقال السر اوفر ستراند بلهجة جافه

ـ ستكون له معلما حيا منك يا سان ايفر . دع الشاب وشأنه [illegible] كما شاء وكيفما [illegible] . اجلس [illegible]

ووقف راف بجانب السيارة ولحاظ عينيه لا يزال موجودا وحمرة وجهه ظاهرة ، فقالت سود

ـ هل جاء أبى بك الى هنا [illegible] أرجو أن [illegible] قد حسمت

فيه شيئا من التسلية وانك تتمتع بما فيه؟

فقال راف

ـ نعم انه مسل ولكن لا أقول انى تمتعت بشيء فيه . لا أخالك تجهلين انى أشعر بانى غريب عما فيه .. ولكن اخبرينى الى أين أنت ذاهبة فى هذه « الماكينه » ؟

فاجابته الفتاة قائلة

ـ انى ذاهبة للتجول فى البستان . هل تريد موافقتى ؟

القى الشاب عليها نظرة سريعة ملؤها الفرح قائلا

ـ وهل تحب القطة القشطة ؟

فتح السائق الباب فجلس راف فى السيارة الفاخرة يشعر بابتهاج عظيم ولم يلبث ان قال

ـ هذه نزهة فائقة . ان هذه أول مرة ركبت فيها « ماكينة » فاخرة مثل هذه . لقد ركبت احدى مركباتكم طبعا ولكن هذه تجرى كالبرق . اننى أميل اليها . ليس فيها غير عيب واحد وهو ان المرء لا يستطيع مخاطبتها أو اذا فعلت فانها لا تجيبك أما الجواد ففى وسعك أن تخاطبه . اذا [illegible] هناك فى «ال[illegible]» يوما أو يومين منفردة فانك تتمردين [illegible] من البشر وفى أغلب الاحيان [illegible] له [illegible] كل [illegible]

الى هذه « الماكينة »

فقالت [illegible]

ـ يجب أن [illegible]

ـ نعم هذا اعتقادى [illegible] ثم [illegible] بنفسى [illegible]

ما أعتقد . من المضحك أن يسير الانسان دفتها دون قتل المركبات الاخرى . سأتلقى بعض دروس . أن هذا الفتى يسوقها جيدا فساطلب اليه أن يعلمني . أظن انكم تتحملون غرامة عظيمة اذا دسّم أحدا من المارة ؟

فاجابته مود وهي تبتسم

– بل شر من الغرامة اذا كان الذنب ذنبك ولعمرى أخشى أن يرسلوك الى السجن

فقال راف

– حقا لا أدرى كيف يتجنب السائق ذلك لانه يسير فى بعض الاحيان بمقدرة عظيمة

– بل أقول ان جاكسون السائق على شيء من التهور . ولعمرى يجدر بى أن أوصيه بزيادة الاحتراس والحذر

مالت اللادى مود الى الامام لكى تخاطب السائق ولكن وضع راف يده على ذراعها وقال

لا تفعلى – ، اذ ربما يظن أنك خائفة ومتأثر أعصابه . أرى ان أعصابه قوية حتى استطاع أن يسير بك . اما أنا فلا أعتقد ان هذا في مقدوري

نظرت [illegible] اليه في شيء من الدهشة وقالت

– [illegible] تعرفه [illegible] سترانير

– هل [illegible] حقا [illegible] . لا [illegible] ولكنى اذ

[illegible]

[illegible] الشاب

[illegible] الى [illegible] بشكل بديع

كالعادة في فصل الصيف، فقال

ـ هذا مكان جميل . لقد نسقوا هذا المكان تنسيقاً بديعاً . انه فسيح ولذلك أرى السائق يجد السير هنا

أطلق جاكسون العنان للسيارة ولكن لم يلبث ان اعترضته ركبة تحاول دخول البستان من أحد أبوابه فاراد ان يتجنبها فاصطدم برجل كان يجتاز الطريق ، فوقفت العربة فجأة عندئذ كادت اللادي مود تصطدم بمقدمة السيارة ويصيبها شيء من الأذى، لولم يدر فذراعه القوية امامها وينقذها من هذه الصدمة ، لان الشاب كان قد لمح الرجل وتنبأ بالحادث فبادر الى حماية الفتاة التي خطبها في هدوء قائلا :

ـ امكثي هنا ولا تتحركي

لم ينتظر راف حتى يفتح باب السيارة بل وثب منها الى الخارج . وكان الرجل الذى صدمته السيارة قد نهض ووقف على جانب الطريق، تبدو عليه دلائل الارتباك والحيرة . ولم يكن الرجل قد اصيب بضرر يذكر لان جناح العربة كان قد التقطه في حين كان جاكسون قد خفف من اندفاع السيارة

ذهب راف الى الرجل ثم وضع يده على منكبه وسأله [illegible]

ـ هل اصبت بضرر يا رفيق ؟

وكان ضحية [illegible] جاكسون شابا يرتدي ثيابا رخيصة تبدو عليها دلائل العناية . وكان وجهه شاحبا من أثر الصدمة ، وشعره احمر اللون ، ذا عينين حادتين [illegible]

[illegible] والحاجبين

لم يجب [illegible] سؤاله [illegible]

عن ثيابه ثم تناول قبعته من أحد الذين التفوا حوله وأخيراً قال

ـ لااظن أنني اصبت بضرر يذكر . شكراً . ان الذنب ذنبي فقد كنت مشتغل البال ... شارد الفكر . . أى نعم الذنب ذنبي

على حين مالت اللادى مود من السيارة وخاطبت الشاب بلهجة القلق قائلة

ـ قل بالله انك لم تصب باذى

تقدم الشاب الى السيارة ، ورفع قبعته ووجهه لايزال شاحباً ثم قال فى هدوء وهو يتملك عواطفه تماما

ـ شكراً جزيلا . لقد اسعدني الحظ فلم اصب بضرر جدى جزاء اهمالى . لقد سقطت على الارض ،هذا كل ماهنالك

فقالت اللادى مود

ـ هذا من دواعى سرورى . ولكن الذنب ذنبنا . ان سائق سيارتى كان يسير مسرعا . هل انت واثق من انك لم تصب باذي ؟ هل تتفضل بالركوب معنا لنقلك الى منزلك ؟

وقال راف

ـ نعم ، هذا مايجب عمله ، اركب ، دعنى اساعدك . اما المستر جاكسون فسيكون لى معه حساب . اركب أيها الرفيق

بدت علائم الدهشة على وجه الشاب عندما سمع رالف يخاطبه بهذه اللهجة التى لم يألفها وقال

ـ ليس هناك فى الواقع مايدعو الى ازعاجكما . أننى قادر تماما على المشى

ثم التفت الى اللادى مود وخاطبها قائلا

اخشى ان اكون قد سببت لك شيئاً من القلق والانزعاج

فقالت الفتاة

ـ نعم كثيراً . هل تتكرم على باسمك وعنوانك؟ أريد ان اعرف، ان اسأل ...

فقال الشاب

ـ هذه مكرمة منك . ان اسمي ترافرس ... سأعطيك بطاقتى

وفيما كان الشاب يخرج محفظة جيبه قالت مود

ـ ان اسمى سان ايفز ونحن نقطن فى ميدان باجريف . وهذا اللورد ستراتفير

وكان لمستر ترافرس يخرج بطاقته من محفظته جمدت يده فجأة وجعل ينظر من أحدهما الى الآخر فى حيرة ودهشة لاتقلان عما اعتراه منهما عند ماقام يتعثر من كبوته ، وأخيراً حدق النظر الى وجه راف وتقلصت شفتاه الرفيعتان وتوترت عضلات وجهه الشاحب ثم كرر الاسم بصوت خافت وهو لايدرى ق ئلا

ـ ستراتفير !

على أنه مهما تكن هذه المفاجأة فقد كبح الشاب جماحها بسرعة كما ظهرت كذلك ، ووقف هنيهة صامتا وقد أرخى عينيه وأخيراً قال ببطء وبصوت خافت وهو يتكلف الابتسام

ـ على كل حال ليس لي ان اذلتكما اكثر من ذلك فأصحب الضرر ولست فى حاجة الى السؤال عنى . ستردعكما الله

ثم تحول وسار فى طريقه قبل ان يستطيعا مخاطبته بكلمة

الفصل السابع

راف لايزال يتعلم

حدق راف ومود النظر خلف الشاب الذى سار يهرول فى طريقه ثم نظر كل منهما الى الآخر فى دهشة على حين قالت مود

ـ ياله من شاب غريب الاطوار ! لماذا ذهب هكذا فجأة ولماذا رفض ان يعطينا عنوانه ؟

هز راف رأسه وخلع قبعته ثم دفع شعره النحاسى اللون عن جبينه وقال

يلوح لى انه وقع فجأة فى هوة عميقة . لقد بدا فى حالة عادية الى اللحظة التى خاطبنا فيها ثم غير فكره فجأة . ربما لايريد شرف التعرف بنا . خير لنا أن نسير الآن فى طريقنا

ثم القى نظرة على الذين كانوا لايزالون ملتفين حول السيارة وقال بلهجة تنشف عن الغرابة والاستخفاف

ـ ماذا تنتظر هذه الجماهير ؟ لاادرى ماذا ينتظرون رؤيته ؟ ربما زعموا ان « الماكينة » ستنفجر ، أو انه سيغمى على وعليك . انتظرى حتى أقول كلمة للرجل الجالس فى المقعد

ثم ذهب الى جاكسون وخاطبه قائلا

ـ فى رأسك فكرة فاسدة ، اذ تظن انك لاتقوم بواجبك اذا لم تسر بهذه « الماكينة » كالاكسبريس . ان هذا حسن اذا كنت الشخص الوحيد فى السيارة ولكنك تحمل معك بضاعة ثمينة ولا تنس ذلك . اذا وقع حادث آخر يتعلق بهذه « الماكينة » فستكون

انت أول من يصاب اعنى انه ستكون هناك جثة هى جثتك . هل فهمت معنى قولى ؟

فقال جاكسون وهو يتلعثم رعبا وفرقا

ـ نعم يامولاى . انى آسف يامولاى ولكن اعترض الشاب طريقى

فقال راف

ـ هذا حسن ، ولكن يظهر انه يوجد فى هذه البلاد قانون يحرم قتله من أجل ذلك

ركب راف السيارة ثم نظر الى الامام فى تفكير وقال

ـ لاأستطيع ان ادرك بالضبط ماأصاب ذلك الشاب فقد ظل وديعا كحمامة الوادى الى أن سألناه عن عنوانه لو أظهر هذه الخشونة من البداية لاستطعت أن أفهم ماهنالك . خذى مثلا انه لو كنت أنا الذى القانى المستر جاكسون على الارض لذهبت وحملت عليه فى الحال ولكن هذا الرجل قابل كل شىء بابتسام الى أن استعملت معه واجب اللياقة والادب . . آه ، لقد فهمت السر . لاأرى عليه مظاهر الغنى فربما زعم اننا سنعرض عليه نقودا لارضائه

فقالت مود فى شىء من الحيرة

ـ كلا . لااظن انه خشى ذلك . انه رجل مهذب دمث الاخلاق لايعتقد اننا اردنا اهانته بهذه الوسيلة لقد تغيرت أطواره فجأة عند ماسمع اسمك يامستر انفير

فقال راف بلهجة جافه

ـ ليس فى هذا ما يدعو الى الدهشة . انه اسم غليظ ، ولعمرى لست واثقا من انى استطيع كتابته حتى الآن

وجدت مود فى قوله هذا تسلية ولكنها لم تقنع برأيه وسألته قائلة

ـ هل سمعت اسم ترافرس من قبل ؟

ـ كلا

ـ ولا أنا . لو كنت مكانه لفعلت فعلته هذه على ما اعتقد اذا كنت احمل فى نفسى غلا أو ضغينة لاسرتك

فهز راف رأسه وقال

ـ لاأدرى . ان الامر لدى مثل لغز معمي

سكت راف هنيهة ثم عاد فقال

ـ اننى آسف لانقطاعه عن الحديث وانصرافه هكذا فجأة لاننى شعرت بشىء من الميل نحوه . فقد سلك سلوكا حسنا الى النهاية تقريبا ألا ترين أنه وسيم الطلعة ، له وجه يصعب على المرء نسيانه ؟ ليتنى أراه ثانية .

فسألته مود وهى تبتسم قائلة

ـ وماذا تصنع اذا لقيته ؟

ـ اسأله ماذا يعاملنى معاملة « الداجو »

فضحكت الفتاة وقالت

ـ وما هو «الداجو» ؟ يجدر بك أن تضع قاموسا للغتك يا مستر انفير

فشرح راف لها معنى قوله قائلا

ـ الداجو هو الاجنبى الوضيع . نعم اسبب لك شيئا من الحيرة فى بعض الاحيان ولكن لااخالك تجهلين اننى لم أتعلم لهجة أهل لندن بعد ، ولكنى سألتقطها فيما بعد

فردت الفتاة وهى تبتسم

ـ لاتتعجل انى أميل الى لهجة حديثك هذه

ـ هذا ماأظنه إذا حافظت على لهجتى ولكن لاتخافى لانى اضبط نفسى دائماً مادمت معك . اخبرينى يامس مود ... اعنى أيتها اللادى مود ... هاترين مرة أخرى ان من الصعب على ذكر لقبك قبل اسمك ويلوح لى أن لديكم هنا عدداً لا يحصى من السادة والسيدات اللذين لاترين لهم شيئاً يميزهم عن بقية الناس . كنت اعتقد وأنا فى مجلة «حمة الراقصة» ان اللوردة وزوجاتهم يلبسون على رؤسهم نوعا من التيجان وهذا مما يرثى له لانكم لو فعلتم لسهل على المرء أن يميزكم من غيركم . ان ما أردت أن أقوله لك هو انى اكون لك شاكراً اذا رأيت منى شذوذا فيما يتعلق بالالفاظ والالقاب وأرشدتنى الى الصواب

فقالت مود فى رزانة

— بلا ريب يسرنى أن أعمل ذلك . هل تغضب اذا أرشدتك الى خطأك ؟

ـ كلا بالعكس ، اكون ممتنا . اذا قبلت ذلك فستجدين أمامك مهمة شاقة طويلة

فسكتت الفتاة هنيهة ثم قالت

ـ لاأظن انى سأعمل ذلك وخير لك أن تهتدى الى الامور بنفسك وفوق ذلك . وسكتت تامة . وفوق ذلك من دواعى التسلية والانتعاش أن يلتقى المرء بشخص تختلف آراؤه الميلا عن الآخرين . لعمرى انى أميل اليك كما أنت

تورد وجه رف وحول عينيه عن وجه المليح بجنبه وأجابها بشى من الانزعاج : الا

ـ لاتقولى هذا القول لـكى لا أشعر بعزلتى عن الآخرين ولا اسعى لتحسين أحوالى . واذا كان هذا يرضيك فان اباك لا يرضى به ولعمرى سببت له اليوم شيئاً من المتاعب ثم ان الرجال الذين رأيتهم اليوم فى النادى كانوا يعتقدون اننى واحد من العامة . نعم لم يظهروا شيئاً من ذلك وقد حالت آدابهم دون ابداء أقل اشارة ولـكنى مع ذلك ادركت مايجول بخاطرهم من نحوى

فقالت اللادى مود

ـ اننى أعرف ما ترمى اليه . ففيك بلا ريب مايلفت النظر ولـكن السبب الاكبر فى ذلك انك لاترتدى ثيابك مثل أهل البلاد هنا تماما

فقال راف فى شىء من الاستياء

ـ سيجهز لى ولسون بعض الثياب ولوانى لاأدرى كيف استطيع السير بقبعة عالية وسترة طويلة

فأكدت له مود انه سيجد كل شىء اسهل مما يزعم فدفع راف رأسه جانبا وانتقل الى حديث آخر

قضى الشاب والفتاة بقية الوقت في حديث سار . ومع أن راف القى على اللادى مود اسئلة لانهاية لها مدفوعا بعوامل حب الاستطلاع التى نتملك نفس الغريب ، فقد أجابته عليها كلها في صبر وطول اناة بل وفى اهتمام افعم قلب راف بروح الامتنان لها

ولما وقفت السيارة امام النصر في ميدان بلجريف مد راف كلتا يديه الى الفتاة لمساعدتها على النزول كما هى عادته اذا ماساعد فتاة على النزول من احدى عربات النقل ، ومع ذلك اعطته مود كلتا يديها الصغيرتين كما لوكانت هذه هى العادة المتبعة

دخلت مود القصر فالتفت راف الى جاكسون وخاطبه قائلا

ـ اسمع . اريد أن أتعلم كيف أسوق هذه « الماكينه » وسأركب الآن معك لناف لفة . اخرجها الى مكان فسيح حيث لايوجد كثير من المارة

أخرج جاكسون السيارة الى طريق « كيو » فجعل راف يراقبه بعين الدقة وأخيرا قال

ـ انها أشبه شيء بتسيير احدى السفن اليس كذلك؟ اعطني العجلة ودعني أنظر كيف تسير .

اعطي جاكسون العجلة لراف بقلب مضطرب ـ لكن لم يكن ثمة داع لانزعاجه لان الشاب أخذ يسوق السيارة ببطء وحذر ويسأل عن علة هذه الحركة و تلك ولم يلبث ان عرف اين يضع يديه ورجليه على حد تعبير سائقي السيارات . وقد وجد راف لدهشته ان تسيير دفة السيارة عمل من الاعمال اللذيذة ولو انك لاتستطيع مخاطبتها ولا تستطيع الرد عليك اذا خاطبتها

أخيراً عرج راف بالسيارة حول زاوية ووقف بها فجأة ثم قال

ـ انها شبه شيء حي . انها على حد قد مجرى الدم في عروقك تحس لاقل حركة من العنان . خذ هذا الجزء من الطريق مستقيما فسأنطلق بها . اجلس صامتا ولا تفه بكلمة حتى ترى انني ارتكبت خطأ

فاجابه جاكسون في ادب واحترام

ـ حسنا يا مولاي

انطلق راف بالسيارة الى أن وصل الى نهاية الطريق ثم

ـ ماذا تقول ؟

فقال جاكسون بلهجة الاحترام

ـ هذا حسن يامولاى . ان لفخامتكم يدا ثابتة وعينا حادة ، واكثر من ذلك انك شديد الجرأة

فقال راف فى شىء من الدهشة

ـ جرأة ! ماهذا القول ايها الرجل ؟ هل تقول انك فى حاجة الى جرأة لكى تسوق هذه السيارة ؟ كلا مطلقا . انك لاتقول هذاالقول اذا ركبت جوادا هزيلا فى أحدرد وقد اختفى لصان خلفك وراء الصخور واخذا يصوبان اليك غدارتيهما . . ساعود بها

ثم أخرج علبة سيجاره وقدمها الى جاكسون قائلا

ـ هل لك ان تدخن ؟

فقال جاكسون فى احترام

شكرا يا سيدى . ولكن [illegible] لى بالتدخين مادمت أسوق السيارة فى الشوارع

ـ هل التدخين [illegible] ؟ حسنا يجب ان تحرص على هذه المبادىء لكى لاتقع فى مشكلة . ولكن ضع السيجار فى جيبك ودخنه متى وصلت الى منزلك

ووصل راف بالسيارة سالمة الى القصر [illegible] جاكسون [illegible] المكان [illegible] [illegible] على [illegible] من مهارة راف [illegible]

أما الشيخ [illegible]

[illegible] كان [illegible]

[illegible]

ذهب راف الى المرآة ونظر الى صورته

فى استياء كان يزداد كل لحظة واخيرا قال مخاطبا نفسه

– اننى فظ غليظ ، هذه حالتى . انها تعاملنى كاننى ملك من السماء وتحسن معاملتى فليباركها الله

ثم نادى ولسون خادمه ولكنه تذكر الجرس فضغط على الزر ولجهله لم يرفع أصبعه عنه حتى جاء الخادم المسكين يلهث فخاطبه راف قائلا

– أريد الرجل الخياط فى الحال لاأستطيع الانتظار الى الغد . اذهب واحضره

ذهب الخادم فالقى راف نفسه على مقعد فى غرفة الاستقبال ثم اشعل غليونه واستعرض الحوادث التى وقعت له في يومه الى أن جاء الخياط فاضطرب عند ما ابتدره راف بلهجة شديدة قائلا

– هل انت الرجل الذى تصنع الثياب البديعة ؟ اصغ الى أريد بذلة كاملة

فقال الرجل — نعم يامولاى

ثم أراد أن يعرض عليه « عينات » الاقمشة ولكن راف نظر اليها بعين الارتياب وقال

– لافائدة من عرضها على . انتخب منها ماشئت فقط عليك أن تصنع لى ثيابا جميلة . هل فهمت قولى ؟ اننى ادع الامر لك ولواسون الذى يعرف هذه القواعد . اريد أن تكون لدى حاجيات كاملة من الادوات : قمعة طويلة ، قفاز . حذاء لامع وكل شىء . اريد أن احمل الدبوس [illegible] صدرى [illegible]

لم يتبسم الخياط ، لان اضطرابه بلغ حالة دون ذلك ، وشرع يأخذ مقاس فخامته

الفصل الثامن

من ذوى قرباه

خرج الشاب الذى رفض أن يعطي اللادى مود عنوانه من البستان وهو ينتفض انفعالا من صورة نفسية تعذر عليه كبح جماحها فتقلصت شفتاه وعاد الى وجهه امتقاعه الى أن وصل الى مكان من الاماكن العموميه فدفع الباب وكاد يدخل ولكنه لم يتحرك ووضع يده فى جيبه يقلب بعض النقود النحاسيه ثم لم يلبث أن عدل عن فكرته وواصل السير فى طريقه ، رافضا أن يمتع نفسه بكاس الشراب التى أراد تناولها

سار الشاب الآن بخطوات بطيئه فاجتاز الحي الارستقراطى من المدينة ووصل الى شارع قذر فى حي « [illegible]يكو » وهناك قرع باب منزل من المنازل الحقيرة ففتحت له خادمة نحيلة الجسم صغيرة تبدو عليها دلائل [illegible] [illegible] والشقاء ودخل [illegible] المنزل ثم صعد الى فوق السطح واغلق عليه باب غرفة خشبية منعزلة

وكانت غرفته احقر غرفة فى هذا المنزل الحقير لا تحتوى على شيء اكثر من مائدة عتيقة مهشمة وكرسى من النوع الرخيص الذى يطوى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وقصارى [illegible] كانت الغرفة [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible] لا [illegible] [illegible] الوحيدة التى بها على [illegible] السطح [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من مدينة [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] حوله [illegible] [illegible] [illegible] ثم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الكرسى ثم [illegible] [illegible] [illegible] الرأس [illegible]

المدفأ الخالى من الوقود ولم يلبث أن سبحت افكاره الى أن صحامن غفلته على صوت وقع اقدام تلاه دق خفيف على الباب

دخلت امرأة نحيفة الوجه ثم وقفت تنظر الى الباب فى شىء من الجرأة قائلة

ـ اصغ الى يامستر ترافرس

على ان هذه الجرأة لم تلبث أن ذهبت عندمارفع الشاب اليها عينيه السوداوين وتلاشت روح الثقة التى جمعت المرأة شتاتها وهى تصعد درجات السلم ولذا غيرت لهجتها فى الحال قائلة

ـ جئت لاسألك عما تنوى عمله فيما يتعلق بدفع الايجار المتأخر. لست من قساة القلوب وليس من عادتى أن أضايق احدا من مستأجرى منزلى ولكننى اريد أن اعيش وأنا ارملة مع اطفالى الثلاثة . لقد تأخرت ثلاثة اسابيع عن الدفع فاريد أن تخبرني عما تنوى عمله

نهض ترافرس من مكانه فى تراخ وقطع خيط حزمة اخرج منها عددا من غلافات بيضاء وكتابا بجلدة حمراء عنوانه « اسماء المتبرعين للجمعيات الخيرية بلندن » ثم قال بلهجة تنم عن التألم والحزن

ـ نعم . نعم ثلاثة أسابيع . أليس كذلك ؟ زعمت انهما اسبوعان فقط . انى آسف ولكنى كنت فى ضيق شديد فى المدة الاخيرة . وقد كان من المتعذر على أن أحصل على عمل ولكنني حصلت هذا الصباح على عمل بسيط . ثم اذا ما أرسلت هذه الخطابات فسأحصل على مبلغ من المال أقدمه اليك كله أو الشطر الاكبر منه لانه لابد لى أن احتفظ بشىء من النقود ابتاع بها خبزى . يحزننى ان اطلب اليك أن تنتظرى ولكن أظن انى سأفرغ من هذه المهمة غدا

زمجرت المرأة ثم تحولت ، فرافقها ترافرس حتى رأس السلم قبل أن يجد من نفسه الشجاعة فسألها قائلا

ـ هل لديك قليل من الفحم لانى أريد أن اصنع لنفسى فنجانا من الشاى ؟

فتمتمت المرأة وهى تدفع رأسها استياء ولكنها جاءته بعد فترة وجيزة بقليل من الفحم ، فاوقد ترافرس النار وصنع لنفسه قليلا من الشاى ثم جلس أمام المنضدة واخذ يعنون الخطابات من الدليل ذى الغلافة الحمراء . نعم كان هذا النوع من العمل لا يعود باجر يذكر مثل غيره ، وعلى المرء أن يكتب بسرعة وساعات طويلة قبل أن يكتسب بضعة شلنات ، ولكن لم يلبث ترافرس أن كف عن العمل بالرغم من حاجته القاسية الى النقود كان المسألة التى شغلت باله جعلت من المستحيل عليه أن يستمر حتى فى عمل ميكانيكى كهذا

أخيراً قام الشاب وهو يزمجر ثم فتح حقيبة عتيقة بالية واخرج منها جريدة مضى عليها ثلاثة أيام . ولم تكن لديه رغبة فى فضها ولكن سرعان ما [illegible] رغبته واخذ يطالع فقرة طويلة عن وجود اللورد ستراثنير وعودته الى انكلترا

وكان احد مكاتبى الصحف قد ابرق النبأ الى جريدته بعد ان اسعده الحظ برؤية [illegible] فبعث بوصف دقيق لسحنة الشاب الذى ورث هذا اللقب الرفيع . وكانت الاوصاف المدونة التى وردت فى الرسالة تشير بطبيعة الحال الى جسم راف الطويل الضخم وشعره النحاسى [illegible] هى بذكر القابه العديدة واحصاء [illegible] املاكه و[illegible]

([illegible])

قرأ ترافرس المقال ، أو بالحرى الوصف الطويل ، وتلاه على مهل وهو يتدبر معنى كل كلمة ولو أنه كان يحفظ كل عبارة منه عن ظهر قلب ولما فرغ من تلاوة المقال مال نحو المدفأ وجعل يحدق النظر الى النار التي أوقدها فيه وهو يفكر . دون كبير مشقة . فى مركز هذا الشاب الذى ارتفع فجأة من معدن عادى الي مصاف النبلاء والاشراف فى البلاد واصبح ذا ثروة لا تحصى وحاملا لقب من اقدم القاب الدولة واقدمها .

والواقع لم يكن لدى ذلك الشاب رغبة يعجز عن تحقيقها أو أمنية لا يستطيع الوصول اليها أو باب فى العالم يتعذر عليه ولوجه ، له أن يطمح الى نيل اجمل امرأة فى البلاد وأعظمهن نبلا ، فهو اشبه شىء بامير تبناه « الحظ » وتركه يرفل فى حلل من البهاء والجلال ومنحه بكل شيء مايشعر ترافرس بانه فى حاجة قاسية اليه

وثب ترافرس واقفا على قدميه ، تشدد يده الضغط على الصحيفة التى يحملها فى يده ثم أخذ يلعن لورد سترانفير ويصيب عليه جام غضبه لا بلسان طلق ، ولكن بصوت مبحوح متقطع وقد تجلت فى صوته وعينيه وعلى شفتيه دلائل البغض والمقت

أخيراً جلس الشاب أمام المنضدة ثانية واستأنف مهمته القاسية ولكن لم يلبث أن عادت افكاره الى ما كانت عليه ثانية فقال ان اللورد سترانفير كان يتريض فى سيارة مع احدى النبيلات ، وهما الآن يضحكان بلا ريب من السلوك الغريب الذى سلكه الرجل الذى القته سيارتهما على الارض ، الرجل الشقى المنكود الذى يجلس الآن فى غرفته المذرة الحقيرة فوق السطح يكتب عناوين أهل ابر نيحصل

على بنسات قليلة من كل واحد فى الف منهم

أدرك ترافرس الفرق الهائل بين الحالتين وقلمه يجرى بسرعة على الورق فامتلأ قلبه غلا وحقدا وهو يقول في نفسه ان جميع القوانين الطبيعية تقضى بان يكون هو أى ترافرس حامل اللقب وصاحب كل هذه الثروة الطائلة

لم يقل ترافرس هذا القول اعتباطا لانه كان أخى راف الطبيعى ابن المرأة التى اخطأ معها والد راف ، وهى المرأة التى ذكرها الرجل وهو على فراش موته وعادت اليها ذاكرته قبل أن يسلم الروح ! !

جز ترافرس على نواجزه وقال وهو يئن

ـ كلمات قليلة ـ كلمات فارغه يفوه بها رجل يرتدى بردة بيضاء تجعل كل هذا الفرق ! ! ان ظلامتى هى شر ما تحمله العالم اجمع من مظالم فانا رجل غفل من كل اسم ، مهجور منبوذ على حين يعد ذلك الشاب من نبلاء البلاد وسراتها يتقلب فى ضروب الرخاء النعيم . ولعمرى لست أدرى لماذا لم آخذ بتلابيبه واخمد أنفاسه الآن أدركت السبب الذي حمل قايين على أن يقتل أخاه وإنى لتمس ويم الحق له المعذير . اخ ! ! كيف يستطيع المرء ان لا يبغض اخا شغل المكان الذى ينبغى ان تملأه انت واستولى على كل ما كان لك أن تستولى عليه؟ نعم يوجد وجه لدفاع عن قايين . فقد شعرت وأنا أنظر الى وجهه يبتسم بروح الغدر تملأ قلبي وتسرى فى جسمي سريان السم فى عروقى . اتمنى على الله أن لا أراه ثانية

مسح ترافرس العرق البارد الذى تصبب من جبينه ثم نهض من مكانه يترنح تم... جرعة من الماء ثم ... نفسه فى ...

يحدق النظر الى الامام وهو يتمتم قائلا

ـ أظن انني غر أبله . كان يجدر بي ان اخبرها اين أقطن فربما عرضا على شيئا من المال لانني علم الله فى أشد حاجة الى النقود ولكنني لم أستطع . أليس من الغريب أن يشعر شقى منبوذ مثلى لحقه العار منذ يوم مولده ، بشيء من الكرامة ؟ لاأدرى من أين جاءنى ذلك انه ليس من ناحية الام ـ وهنا تقصلت شفتاه احتقارا لانه لم يحس للاسف من نحو امه بحب أو احترام ـ ربما كان من ناحية الاب لان الدم النبيل لايختفى فانا من أسرة هنتنجدن ، أو لصق على الاقل ثم رفع صدره افتخارا ـ كلا . ليس الله ... انما أريد . . مايمكن ان تسميه انتقاما أريد أن أمحو ... لحقته ... أريد ان أضربه كما ضربنى ولكنى لاأدرى هل ... لى ... انهم يقولون من صبر ظفر ـ ولكن لاأدرى

ثم ترافرس الصمت هنيهة وأخيرا هز رأسه وقال

ـ لا ، ان هذه اضغاث احلام . ستمثل الرواية الى النهاية ... املاكه لصفته لورد سترانفير ـ واعنى به أخى ... بثروته ويتزوج ويخلف بعده ... أموت كالكلب فى هذه الغرفة الحقيرة أو فى غيرها ، هذا اذا ... الحظ ومت تحت سقف يظلنى وبين جدران تحجبنى

أخيرا ابدى ترافرس اشارة كأنما أراد بها ان ... فكرة من رأسه ثم جلس على الكرسى بجانب ...

* * *

تأهب راف بمساعدة خادمه ...

فى قصر الوصى عليه ، وهو لايدرى شيئا عن اللعنات التى كان يصبها عليه أخوه من ابيه ، بل وهو لايعلم حتى بوجوده وكان راف لايزال يرتدى بدلته ولكنه لم يكترث لانه كان بعيدا عن الغرور ، على انه قصد على كل حال ، كما أخبر الخياط ، ان يرتدى ثيابا انيقة اسوة بالرجال الذين سيختلط بهم

دق جرس العشاء فنزل راف على مهل الى ان بلغ الجزء الاخير من السلم فعجب اذ رأى بنتا صغيرة تنزل فى خفة على أطراف اصابعها وقد امسكت الحاجز الخشبى بيدها الصغيرة البيضاء . وكان راف من الرجال الذين لهم ولع شديد بالاطفال والذين تتحلى محبتهم فى قلوبهم الرقيقة الطيبة . ورأى الآن فتاة من أجمل الفتيات الصغيرات وارقهن ذات شعر كستنائى اللون ، تدلى على ثوبها الحريرى الناعم القصير ، تلبس فى رجليها الصغيرتين جوربا أبيض جميلا ينتهى بحذاء ابيض من الساتان اللامع . وقد زعم راف انها شبح ملائكى لايجوز مخاطبته فجأة فنزل هو ايضا على أطراف أصابعه وراءها الى أن صار على مقربة منها فمد يده وداعب فى رفق شعرها الكستنائى فوقفت البنت الصغيرة ونظرت اليه من فوق منكبها نظرة تشف عن الدهشة واللوم ولكنها شاهدت فى وجهه الجميل ماحول دهشتها وتأنيبها الى ابتسامة يشوبها شىء من الغرابة ، على حين خاطبها راف بصوته الذى ينفذ دائما كالسهم الى قلوب الاطفال تأثرا

ـ مساء الخير أيتها الصغيرة : لقد زعمت فى البداية انك شبح ملائكى ولكنى أرى الآن من انت . اين عربتك وعرافتك ؟

قالت البنت او حاجز السلم ، نظرت اليه نظرة تنم عن الحيرة وقد

عقدت حاجبيها وأخيرا قالت

ـ ماذا تعنى ؟

فتظاهر راف بالدهشة والاستياء وقال

ـ الست انت سندرلا فى طريقها الى حفلة الرقص ؟ لقدزعمت انك الشابة التى قرأت عنها فى أقاصيص أولاد الجن

فتبسمت الفتاة وقالت

ـ لقد عرفت الآن . انك تعنى العربة التى صنعتها الساحرة من يقطين لسندرلا

ـ هذا ما اعنيه . واذا لم تكوني انت سندرلا فعليك أن تعترفى بأن غلطتى هذه عادية لان ثيابك حملتنى على الاعتقاد بانك ذاهبة الى حفلة رقص

وكانت الفتاة الصغيرة تزداد كل لحظة اهتماما بهذا الشاب الضخم الجسم النحاسى الشعر فقالت

ـ حقاً ؟ اننى أرتدى هذا الثوب دائما فى المساء كلما أقمت مع ابنة عمى مود . هل تظن اننى جميلة ؟

جلس راف على درجة السلم وجعل ينظر الى الفتاة فى استحسان واعجاب ثم قال

ـ جميلة ، ليست الكلمة الصحيحة . فانتُ أشبه شىء بصورة بديعة خرجت من دفتر الصور . اذن أنت ابنة عم اللادى مود ،

ـ شىء من هذا القبيل . اننى أدعوها فى بعض الاحيان «بخالتى» ولكنها ليست كذلك . اننى مغرمة بها

ـ كذلك انـ ... لا يدهشنى أن أسمع منك هذا القول هل تقيمين

فى هذا القصر ؟

ـ نعم جئت فى زيارة كمادتي

فقال راف فى حماسة

ـ شكرا لله على ذلك

تبسمت الفتاة وقالت

ـ لقد فهت بهذه الكلمات بصورة تدعو الى الضحك ، فلماذا

فاجابها راف فى بطء قائلا

ـ ترين اننى مغرم بالاطفال وقد رأيت ان هذا القصر قد توفر فيه كل شيء ولا ينقصه الا طفل أو طفلان . ولا اكتم عنك اننىأنا نفسى طفل

رفعت الفتاة عينيها فى بطء ونظرت الى جسمه الضخم ومنكبيه العريضتين وأخيرا قالت وقد ظهرت غمارة فى خدها الرقيق

ـ انك طفل جميل

ضحك راف ابتهاجا وسرورا وقال بلهجة تنم على الاعجاب

ـ بالعكس أظنك تعدينى من العمالقة ؟

فقالت الفتاة بلهجةالاعتذار

ـ نعم انك ضخم الجسم ولكنك لست مثل بلندبور

تظاهر راف بالحزم وقال فى شيء من الجلد

ـ ولكنى مثله . لقد نطقت بخير وصف لى ، فانا أكبر بلندبور رأيته . ان هذا أول اسم مستعار لى . ولما كنت قداخترعته فلاجدر لك ان تتمسكى به . ولكن ما اسمك أيتها الطفلة ؟

رفعت الفتاة وجهها وأرخت عينيها ثم قالت كأنها تلقى درسا حفظته

ـ أنا اللادى ايفلين دى فير نورمانبى فيركس فقال راف على الفور

ـ ماذا تقولين ؟ كررى الاسم ثانية ولا تنسى الوقوف عند كل مقطع

ذكرت الفتاة اسمها ولقبها على مهل وهي تحرك أصبعها الصغير على ارحة يدها ، فقال راف فى ذهول

ـ كذا ولكنى أراك صغيرة على حمل مثل هذه القائمة الطويلة من الاسماء . يحزننى أن أقول انى رجل غبى ـ وهذا ليس ذنبى لاننى ولدت هكذا ـ فاذا تقولين اذا أطلقت عليك اسم سندر لامدة وجيزة؟ لاننى أخشى ان لا تعى ذاكرتى هذه الاسماء الطويلة

تورد وجه الفتاة ابتهاجا وقالت

ـ نعم افعل . اننى أعرف بالطبع ألقابك ، فانت لورد ستراتفير وبارون بيتون وفيكونت كاسل هل ...

ضرب راف جبينه بيده كأنما وقع فى حيرة

ـ وهو الواقع ـ وصاح قائلا

ـ هيا ، كنى ، هل تعنين ان كل هذه القابي ؟

فقالت الفتاة بلهجة التأكيد

ـ أى نعم . أطلعت على جميع هذه الاسماء فى الكتاب الاحمر الكبير فى المكتبة . لقد علمت انك قادم الى هنا فاردت ان أعرف كل شيء عنك ، اذ ينبغي على المرء دائماً أن يعرف كل شيء عن الشخص الذى سيقابله لا سيما اذا كانت هناك صلة قرابة تربطه به

فقال راف

ـ هو ما تقولين . وهل انت قريبتى ؟

ـ نعم ولكن قرابة بعيدة . ليس لسلسلة أقاربك نهاية بالطبع

ـ حقا ؟ أظنهم جميعا من الوردة ؟ يلوح لى اننى لن اقابل أحداً لا يحمل وراء اسمه سلسلة من الالقاب . ان فى هذا مايدعوا الى الحيرة فى البداية لا سيما اذا كان اصدقاؤك القدماء والقوم الذين تعودت عشرتهم كلهم من العامة الذين يطلق عليهم اسم بيللي وجاك . ولكن اصغى الى . اننى اعاهدك على أن أدعوك باسم «سندرلا» اذ ناديتنى باسم « بلندنور »

فاظهرت الفتاة ارتياحها وصدقت على هذا الاتفاق قائلة

ـ حسنا . اننى أحب اسمك الجديد

ـ هذا حسن . يجدر بك ان .... لانى لا أكتم عنك انى أشعر بميل نحوك

فقالت الفتاة فى ابتهاج

— هذا جميل

— هذا من دواعى سرورى . هل ستأتين معى للعشاء ؟ إذا كان الامر كذلك فسنجلس معا

فقالت الفتاة فى امتعاض

— آتي الى العشاء ؟ كلا . أننى صغيرة السن فلايجوز لى ان اجلس مع الكبار لتناول الطعام ولكن يحتمل ان اشترك معكم فى تناول الفاكهة والحلوى ـ هذا اذا أرسل فى طلبى

فاهت الفتاة بالجملة الاخيرة ونظرت الى راف فاجابها الشاب على الفور قائلا

— كما تريدين أيتها الرفيقة . ثقى انه سيرسل فى طلبك

فقالت الفتاة

— ماأغرب لغتك . لماذا تدعونى رفيقة ؟

حك راف جلد رأسه وقال

— هل اتكلم بلغة غريبة جداً ؟ نعم هذا مااعتقده . ترين اننى لم أترب التربية الصحيحة وقد دعوتك باسم رفيقتى لاننى اميل اليك ولعمرى أراك «بيضاء» فى كل شىء

فقالت اللادى ايفلين

— هل تقول ذلك من اجل ثيابى ؟ ان مربيتى تلبسنى دائما ثيابا بيضاء فى المساء

فى هذه اللحظة جاءت اللادى مود فوقفت ونظرت الى الرجل والطفلة وهى تبتسم فى اهتمام ولكن كانت تبدو عليها دلائل ذلك الترفع الذى جعل راف يشعر دائما بانها بعيدة جداً عنه

قالت اللادى مود

— أرى انك تخطب ودايفيلين ياستر انفير

قام راف ووقف فى شىء من الصمت والحياء هنيهة . وكانت هذه أول مرة شاهد فيها شابة ترتدى ثيابها كاملة فلما وقعت عيناه عليها انحبست انفاسه لحظةولا عجب فقدرآها غاية فى الملاحة والجمال لايجوز لمسها لذلك ارتجف عند ماشاهد البنت الصغيرة تهرع اليها وتطوقها بذراعيها قائلة

— كنت اتحدث مع سترانفير . أنى احبه أيتها الخاله مود وهو مضحك ولكنه جميل وقد اخبرنى أنه سيدعونى الى غرفة المائدة أثناء تناول الفاكهة .

زعم راف أنه لم ير فى حياته احلى من الابتسامة العذبة والحركة

الرقيقة عند ماتناولت اللادى مود وجه الفتاة الصغيرة بين يديها وقبلت الشفتين الجميلتين وهى تخاطبها قائلة

— إذا كان ستراتفير قد طلب اليك القدوم فعليك ان تأتي ياايفا

وفيما كانت اللادى مود تتكلم أخذت تهبط درجات السلم فسار راف بجانبها صامتاً لانه كان لايزال مأخوذاً بجمالها ورشاقة قدها فى ذهول من تأثير تلك العاطفة المجهولة التى تملكت فؤاده عند ماوقعت عيناه عليها لاول مرة

وكان اللورد سان ايفز فى انتظارهما فى غرفة الاستقبال فخاطب راف قائلا

— هالو ! هذا أنت . ارجو ان تكون قد تمتعت بوقت جميل

فقال راف فى ابتهاج

— جميل جداً . يحزننى أننى هربت من ناديك ولكن لعبكم لم يثر اهتماما لدى وفوق ذلك رأيت اللادى مود

ذهب الى الجميع الى غرفة الطعام . وكان هذا أول عهد راف بمأدبة عشاء رسمية فى منزل رجل نبيل . فعجب أولا من كثرة الخدم والمظاهر الرسمية التى يظهرونها اثناء قيامهم بالخدمة وتنوع أصناف الطعام والوانه ودهش لكثرة الاكواب والكؤوس التى صفت بجانبه والخفة التى يظهرها رئيس السقاة فى مثلها

لم يكن راف بالغر الابله كما يتبادر الى الذهن أولا فلما ذ ق طعم الخمر التى لم يألفها توخى الحذر فى الحال ولم تمض لحظة وجيزة حتى رفع يده رافضاً زجاجة الشمبانى التى امتدت بها يد الخادم نحوه . وقد تألمت نفسه عند ماأدرك انه لايحسن استخدام الملاعق والشوك

والسكاكين التي خصصت له ، فاخطأ في استعمالها أولا ولكنه كان يراقب اللورد سان ايفز من طرف خفي ولم يلبث ان قلده في استعمال الادوات المختلفة التي رآها امامه على المائدة

خاض اللورد سان ايفز في حديث طويل أثناء تناول الطعام، وهو يحاول ان يعطي راف فكرة عن أهمية مركزه والمجهودات التي عليه ان يبذلها للقيام بالمهمة التي ستلقى على عاتقه بحكم لقبه ومقامه. والواقع شرع الوصي يحدثه قائلا

— اما فيما يتعلق بحلف اليمين فانك لاتقسمها طبعاً ولا تتبوأ مقعدك في مجلس اللوردة حتى تبلغ الحادية والعشرين من عمرك ، ولكن خير لك ان تهرع الى مكانك في اسكتلندا في اقرب وقت وستجده مهملا في حاجة الى من يشغله . ثم هناك قصر روكشير فانه لم يذهب اليه أحد منذ وقت طويل . نعم أنه مكان مهجور شديد البرد ولكن عليك ان تدبر شئونه لقد تلقيت خطابا من غردون يطلب فيه اليك ان تراجع بعض الاوراق والحسابات

احذ راف المسكين يشعر بالسآمة والملل وخيل اليه أن اللوردية ستكلفه متاعب ومشاق اكثر مما كان ينتظر ، فنظر الى اللادي مود فرآها تنظر اليه في تفكير على أنه لاحظ في عينيها ماارسل روح الطمأنينة الى قلبه والشجاعة في نفسه فقال

— حسنا . سأسوى كل هذه الاعمال في الحال . . . هل هذا ماتسمونه بالفاكهة ؟ اذن لتلك الطفلة أن تأتى ؟

ألقى راف هذا السؤال عندماشاهد الخدم يضعون إطباق الفاكهة الفضية ، فسأله لورد سان ايفز قائلا

— أية طفلة ؟

فقالت اللادى مود

ـ ان ستراتفير يعنى ايفا ، فقد وعدها بان يرسل اليها

ثم خاطبت أحد الخدم فجاءت اللادى ايفا بعد قليل . وكانت الفتاة تسير بخطوات صغيرة منسقة فحنت رأسها للورد سان ايفز وابتسمت للادى مود ثم ذهبت رأسا الى الكرسى الذى وضعه الخادم لها

ابتسم راف للفتاة الصغيرة واومأ لها برأسه ثم تناول برتقالة من الطبق الذى أمامه وصنع من قشرتها صورة خنزير بخفة ومهارة، والفتاة تراقبه فى اهتمام وابتهاج الى أن صاحت قائلة

— هذا جميل . أرنى كيف اصنع مثلها ان هذا صعب جدا

فقال راف فى فرح

ـ بل سهل جدا . تعالى الى

نظرت ايفا الى اللادى مود تستأذنها فلما منحتها ما طلبت، هرعت الى جانب راف ثم مالت اليه ووقفت تراقبه وهو يصنع صورة اخرى الى أن صاحت فى ابتهاج قائلة

— أواه ، انك ماهر . اليس كذلك أيتها الخالة مود ؟

فقال راف وقد زاد ابتهاجا

ـ هذا لا شيء . راقبينى حتى اصنع لك صفارة من هذه البندقة . انظرى اقطعها هكذا واصنعى ثقبا هنا ثم انفخى فيه هكذا

فنفخ راف فى صفارته فحدثت صوتا حادا فابتهجت الفتاة الصغيرة [illegible] ابتهاجا ولكنه كاد يحمر [illegible] اذا قفز على [illegible] قدميه [illegible] أرادت [illegible] لم تمض لحظة حتى [illegible] الغرفة

الجميلة بصفير يخرق الاذان

مال سان ايفز فى مقعده الى الوراء ثم ضحك على كره منه ضحكة تشف عن اليأس والقنوط ، ووقف الخدم يحاولون بشق النفس اخفاء ابتساماتهم ، على حين جلست مود تنظر الى الشاب والطفلة فى غرابة وتفكير . وكان راف لم يفرغ من قهوته ولعبه فلم تمض دقائق معدودة حتى جلست ايفا على ركبته ، تمسك برتقالة باحدى يديها وتلف الاخرى حول عنقه وقد رفعت وجهها الصغير الجميل اليه بعينين ملؤها الاعجاب والسرور

نسيت الفتاة بلا ريب كل شخص آخر فى الغرفة فأنبتها اللادى مود فى رفق قائلة

ـ ايفا ، انك تمنعين سترانفير من تناول شىء من الفاكهة . يجدر بك أن لا تضايقى أحدا

حولت الفتاة وجهها الصغير الذى كان يتهلل ابتهاجا وقالت

ـ اننى آسفة أيتها الخالة مود . ولكن أليس جميلا ؟ اننى أحبه . ولا تحبينه ؟

لم يتورد وجه اللادى مود حياء كما كان راف يتوقع عند سماع كلمات الفتاة الطائشة . و الواقع أن مود بلهجة تنطوى على الحزم والرزانة خيل الى راف انها اقامت حاجزاً دونه لا يستطيع اقتحامه

ـ اذا كان سترانفير قد لعب معك فان هذه مكرمة عظيمة منه . والآن قد حان وقت الذهاب الى فراشك

نزلت ايفا عن ركبة راف ولكنها ما تزال تحدق ثم رفعت عينيها وقالت اليه .

ـ لقد ضحكت كثيرا يابلندربور بحيث اشعر بتعب لا استطيع معه المشى .

فقال راف

ـ حقا ؟ حسنا . ان الذنب ذنبي وعلى ذلك سأحملك الى مخدعك

ثم حملها بين ذراعيه فاستسلمت الفتاة اليه فى اطمئنان وثقة وغادر الغرفة بخطوات واسعة

حك اللورد سان ايفز ذقنه ونظر الي ابنته فى حيرة واستسلام ثم هز رأسه مرتين أو ثلاثا وقال

ـ لعمرى انه شاب مدهش . سنتحمل شيئا من المتاعب مع سترانفير يامود . لاحظي قولى . انه اشبه شيء بدب مفترس خرج من الغاب

فقالت مود في تؤدة

ـ نعم ، ولـكنه دب جميل . اليس هذا اعتقادك ياابت ؟

* * *

نام راف تلك الليلة نوما هادئا عميقاً كالطفلة التى ظلت قبلتها بريئة معه الى أن غلب عليه النعاس ، فنام دون أن يشعر بروح الحقد والـكراهية التى كانت تتأجج لظاها فى الغرفة الحقيرة فى حي بماليكو أو يقترب ظلها منه وهو فى نومه فتنذره بما ينتظره من شر

على أن ذلك الظل كان يقترب منه بخطوات سريعة اذجاء درافرس بعد الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى الى القصر فى بيدن بلجريف وسأل عما إذا كان يستطيع مقابلة اللورد سترانفير . كان درافرس ، على عكس راف ، لم يذق للنوم طعما . بات ليلته يتقلب فى فراشه يتجاذبه عاملان : عامل الـكراهة وعامل المصلحة الذاتية . وقد اشتد النضال بين هذين العاملين الى أن كانت الغلبة للعامل الاخير

خيل الى ترافرس أن « الاقدار » مدت اصبعها اليه تدفعه الى الانتقام وما هو اكثر منه فلا بد له من الذهاب الى اخيه هذا. الذى يرى ترافرس انه اغتصب منه ماله ومركزه. ويكتم عنه حقيقة علاقته به ويعمل لاكتساب ثقته . وهذه مهمة ليست شاقة لان لورد سترانفير هذا لم يمض على قدومه من البلاد الموحشة التى جاء منها غير فترة وجيزة فهو جاهل بشئون العالم ، من السهل خداعه واخضاعه . أما ترافرس فكان واثقا من قدرته ومهارته وانه يفوق سترانفير فى كل شىء اللهم الا فى قوته الجسمانية

نفض ترافرس الغبار عن ثيابه البالية فى عناية ثم سار فى بطء وهو يدرس مشروعه ويقلبه فى رأسه الى أن بلغ القصر ، فقال البواب رداً على سؤال ترافرس ، انه سيتحقق مما إذا كان اللورد سترانفير فى الداخل ، ودعا الزائر فى احترام الى الجلوس فى بهو القصر ثم سأله عن اسمه فاجابه ترافرس قائلا

— قل ان سيدا يريد رؤية فخامته

بلغ البواب الرسالة الى احد الخدم فجلس ترافرس ثم وضع رجلا على رجل ومال الى الوراء ودار بعينيه حول البهو . وكان بديعا تدعمه اعمدة جميلة من الرخام وتزين جدرانه صور نفيسة وا لتحف اثرية ، فزكت هذه المظاهر الفخمة روح المقت والحسد فى قلب ترافرس ، ولكن ظل وجهه جامدا لا ينم على شىء مما يخفيه فى صدره

نزل الخادم من الدور الاول وقال

— هل لك أن تتكرم ياسيدى بالسير معى ؟

تبع ترافرس الخادم فصعد معه درجات السلم العريضة ثم سار معه فى الدهليز الطويل حتى الذى لم تطأه قدماه من قبل فى قلب [illegible] الى أن

وصل الى غرفة الاستقبال فوجد راف مستنداً الى النافذة يدخن غليونه وقد دس يديه فى جيبيه . على أنه لما شاهد الزائر اخرج يده اليمنى ومدها فى ترحيب اليه قائلا

— آه ، هذا أنت ؟ هذا من محاسن الصدف هل تدرى أيها الشاب انى عولت على البحث عنك لو لم تأت اليوم ؟ نعم اعترف أن مهمة البحث مهمة شاقه متعبة لاسيما فى هذه المدينة الكبرى ولكن متى وضعت همى فى شيء لا انحول عنه حتى اناله . على انك كفيتنى مشقة البحث والتنقيب ورهنت على أنك رجل « ابيض القلب » هيا اجلس . ماذا تطلب ؟ كأساً من الوسكى ؟ كم أنا فرح برؤيتك

حاول ترافرس أن يضبط نبرات صوته فاعتذر عن قبول ماعرضه راف عليه فقال الشاب

— حقا ؟ انى لا أذوق شيئا من الخمر فى الصباح ولا اكتم عنك انى لا أميل اليها كثيرا لأنها مؤذية على كل حال . هل لك فى سيجار

جاء راف بعلبة من لفائف التبغ هذه الفاخرة ودفعها الى ترافرس فتناول هذا منها لفافة . وفيما كان راف يشعل عوداً من الكبريت عاد الى حديثه الطويل . لانه ركب الفرس فى الصباح . اذا لاحظ أن يد زائره ترتجف خاطبه فى رفق وتودد قائلا

ان رؤيتك هذه مرة كبيرة منك . اظن انك لو تركت الامر قليلا لرأيت نفسك مدفوعا بشيء من الخشونة . لقد حاولت أنا والسيدة الشابة أن نعرف هل أصابت نفسك آه ؟ وهل صدقت ذلك ؟ . . . هل أنت واثق من أنك لا تريد شيئا . والشراب ؟ حسنا اذن سنحدث

معا . لا أخالك تجهل من أنا وما هو نصيبي . لقد ألقيت على مهام الوردية التي أرى بيني وبينها بونا شاسعا . لذلك أخشى أن أجعل منها خبيصة لانني لم أنل مانلت إلا اتفاقا ولم اسع اليه وانما القته الاقدار على عاتق القاء . الآن لا أريد أن استأثر بالحديث لنفسي . نخبرني أنت عن نفسك وقل لي ماهي مهمتك

بلل ترافرس شفتيه بريقه وأرخى عينيه اذ وجد أن الشاب قد جعل مهمته سهلة فقال وقد غطى رماد الارتياح جذوة الحقد والحسد التي تتأجج في صدره

— هذا ماجئت لاطلعك عليه أيها اللورد سترانفير . إذا أردت الحقيقة الخالصة فانه لا يسعني إلا أن اعترف لك أن عزة النفس هي التي اكرهتني على أن أرفض اعطائكما عنواني وأن أتحول عنكما بغتة بهذه الحال . انني فقير جداً أيها اللورد سترانفير ومع ذلك خشيت أن . . . .

فقاطعه راف وهو يومىء برأسه قائلا

— لقد أصبت الهدف باول رمية . هذا مافسرت به عملك وهذا ماكنت أسلكه أنا نفسي ، ولكنك على خطأ لان السيدة الشابة ماكانت لتقدم على جرح احساسك ولو كان في ذلك حتفها . أما أنا فقد جئت من بلاد يقتل الفتيان فيها كل من يتجرأ على أن يعرض عليهم نقوداً مقابل ضربات اصابتهم . لقد قلت انك من طبقة طيبة وقد صدق فيك ظني

فقال ترافرس بالابهة عينها وهو يزن كل كلمة يفوه بها

ـ أنني شاكر لك حسن ظنك بي أيها اللورد سترانفير . ولعمري

رأيت انى اخطأت فى حكمي عليكما فاتيت الآن لاقدم مايجب على من المعاذير

فقال راف فى ابتهاج

ـ ليس ثمة مايدعو الى ذلك . لقد فهم كل منا حقيقة الاخر ، كما يفهم الرجل الرجل والاخ أخاه ـ وهنا ارتجف ترافرس قليلا ـ ولكن اصغ الى أيها الرفيق . انك تعترف بانك سيء الحظ . حسنا . إذا وقع الانسان فى مثل هذا المأزق فليس من العار ان يعرض عليه المرء مساعدته كما أنه لاحرج عليه إذا قبل هذه المساعدة . . هاهي

مد راف قبضة يده الضخمة فبسط ترافرس يده الصغيرة الرقيقة وقد تورد وجهه انفعالا ، على حين قال راف

ـ هذا حسن الان اخبرنى عن خير وسيلة استطيع بها مساعدتك للحصول على أجر دائم ؟ هل تدرك معنى قولى ؟ لقد كنت معدنا حتى توليت مهمة الوردية فترى فى لغتى شيئا من الخشونة . ولكن هل فهمت غرضى ؟ ماذا استطيع عمله لك ؟ فى أى عمل تشتغل ؟

فقال ترافرس بصوت خافت

ـ انى أفهم ماتقول كل الفهم أيها الوردستر انفير . لقد اشتغلت بمهام عديدة . ويجدر بي ان اسمي نفسى كاتبا ولكنى لاأقوم بعمل ما الآن بل اتعيش من كتابة النلافات

بدت دلائل الحيرة على وجه راف ولكنه قال فى ابتهاج

ـ وهل لاتعود عليك هذه المهنة بربح ما ؟ اذن تحتاج الى عمل آخر . خبرنى أى عمل تريده ؟

ارخى ترافرس عينيه وتردد هنيهة وأخيراً [illegible] متظاهراً بالخجل

— اخشى يامولاى ان تعدنى جريئاً متطفلا ولكن متى كان المرء فى حالة ياس فانه لايحجم عن انتهارية فكرة وقد خطر ببالى أنه ربما ترى من الملائم ان تتخذنى سكرتيراً لك

فقال راف فى استغراب

ـ اتخذك ماذا ؟

فقال ترافرس يشرح غايته

ـ خطر ببالى ان لديك اعمالا كثيرة تحـ ... كالرد على الرسائل التى تتلقاها ... لا تجدون ... الاجابة عليها ، وانك تريد استخدام شخص ... أننى قادر ...

فقال راف فى تعجب ظاهر

ـ قادر . نعم هذا ماقوله أيها رفيق . هذ ... بالضبط . إذا كان هناك شىء فى العالم احتاج ... فذلك ... تتحدث عنها الآن . انك ... فانا فى حاجة الى ... بكل ماذكرت ثم ايرشدنى الى الطريق الصحيح ... اخشى ان أضل الطريق ... شخص ... ستحول ... ارتكاب الاغلاط ... لى ... هل لك ان ... كا ... ؟

وكان ...

— سكرتيراً

فقال راف

ـ تهدهد كرجل طيب

تهجا ترافرس الكلمة فقال راف

ـ هذا حسن . لقد فهمت الكلمة الان وساعيها على كل حال متى كررتها فى نفسى مرة أومرتين . الآن لنتكلم فى الاجرة ... كم «يسحب» السكرتير من النقود ؟ هيا لا أريد خداعا بل أريدان تلعب معي بامانة

فقال ترافرس

ـ افضل ان ادع قيمة الاجر ...

ولكن رفع راف حاجبيه وحدق النظر الى ترافرس فقال هذا

ـ اعنى قيمة المرتب . افضل ان ادع أمرهاالى مولاى . هل يكفى مائة جنيه فى العام ؟

فقال راف بعد ان اجرى العملية الحسابية

— معى هذا كرجنيهين فى الاسبوع . هذالايكفى أيها الرفيق لرجل متعلم رقيق مسلك لا نصف المبلغ . هيا ؟ مدت يدك

امتقع وجه ترافرس ولكنه مديده الصغيرة مرة أخرى وقد لمعت عيناه تقبض راف عليها بيده الغليظة ثم ضرب الشاب على منكبه وقال وهو يضحك

— ذن تم الاتفاق بيننا . لقد قدم جاكسون السائق الى خدمة عظيمة عندما اوقعك على الارض ، ياسكرتير !

الفصل التاسع

راف والعالم

سحب ترافرس يده من قبضة راف وقال

— لقد نسينا نقطة فى اتفاقنا هذا وهى أنه يجب علينا ان نحصل على موافقة اللورد سان ايفز أولا ،فهو الوصي عليك وليس فى وسعك طبعاً ان تقوم بمثل هذا العمل منفرداً دون موافقته

قطب راف جبينه وحك جلد رأسه ثم قال

ـ أى نعم لقد نسيت انني شبه طفل لاأستطيع السير منفرداً

ـ ولكن في وسعنا ان نحل هذه العقدة . ولكن لماذا يعارض؟ أنه لم يضع عقبة فى سبيل أمنية اردتها ولم يشدد الضغط على.هيا نذهب اليه فى الحال ونخبره عما تم عليه الاتفاق بيننا

سار راف نحو الباب مدفوعا بحماسته فمد ترافرس يده ليمنعه ولكنه لم يستطع فلم يسعه الا ان تبع راف الى الغرفة التى تعود اللورد سان ايفز ان يجلس فيها ليكتب رسائله ويطالع الصحف بعد تناول فطوره

دخل راف الغرفة مسرعا فرفع سان ايفز اليه عينيه فى دهشة فوضع الشاب يده على منكب ترافرس وخاطبه قائلا

ـ اصغ الى أيها اللورد سان ايفز . هذا هو المستر ترافرس الذى دفعته السيارة أمس .لقد دار الحديث بيننا فاستقر الرأى على ان نشتغل معا . وسيكون لى سكرتيراً ـ وأظن انك تفهم معنى ذلك اكثر منى الف مرة .وعلى كل حال قد تم الاتفاق بيننا وأظن انه ليس لديك اعتراض؟

حدق سان ايفز النظر من احدهما الى الآخر فرأى ان الشاب تبدو عليه دلائل التهذيب فتنفس الصعداء وطلب الى ترافرس ان يجلس ثم القى عليه بضعة اسئلة أجابه عليها بلهجة منمقة كان لها أثر شديد فى نفس سان ايفز الذى قال

ـ اظن ان ليست هناك مشقة فيما يتعلق بالضمان

فلما ذكر ترافرس اسم إحدى شركات وكلاء الاعمال الشهيرة اومأ سان ايفز برأسه ارتياحا وقال

ـ هذه فكرة بديعة ياسترانفير ، فيستطيع المستر ترافرس ان يقود زمامك ويسير دفتك بمهارة . ولكن كم المرتب ؟

فاجابه راف على الفور قائلا

ـ مئتا جنيه . هل هذا يكفى ؟

فقال اللورد سان ايفز

ـ قد لايكفيه ، ليكن ثلاثمئة جنيه ياسترانفير سيتحمل المستر ترافرس نفقات كبيرة اذا كان سيرافقك هنا وهناك

تحول راف الى ترافرس وقال

ـ لماذا لم تتكلم فى صراحة أيها الرفيق ؟ لتكن ثلاثمئة جنيه

احمر وجه ترافرس الشاحب ولكنه قبل التعديل باحناء رأسه. وكان اللورد سان ايفز يتوق الى استئناف المطالعة فقال

ـ حسنا. سويا الامر فيما بينكما . سنراك وقت الغداء يامستر ترافرس

فقال راف

ـ هذا حسن

ثم التفت الى ترافرس عند ماغادرا الغرفة وخاطبه قائلا

ــ الآن أصغ الى أيها الرفيق . ستحتاج الى مبلغ من المال لتبدأ المهمة به . خذا

ثم أخرج من محفظته أربع أوراق مالية من فئة العشرة جنيهات ثم وضعها فى يد ترافرس واستطرد فى حديثه فقال

— اذا وجدت أن هذا المبلغ لا يكفيك فاخبرنى . ان هذه الاوراق أسهل من النقود المعدنية . الم أقل لك اننا لا نجد مشقة فى اقناع الورد سان ايفز ؟ انه دائما مسالم : سأراك وقت الغذاء

غادر ترافرس القصر واحتاز الميدان وهو يشعر كانه سائر فى الهواء . لقد قرأ الناس فى « الف ليلة وليلة » قصصا مدهشة عن أكواخ حقيرة تحولت الى قصور شاهخة . ورجال من العامة صاروا امراء . وفقراء أصبحوا من ذوى الثروة والجاه ، ولكن خيل الى ترافرس انه لم يكن بين كل هذه الحوادث ماهو أدعى للدهشة من قصته هذه ولا من هذا التغيير الفجائي الذى طرأ على مجرى حياته

لو حدث هذا الانقلاب العظيم فى حياة رجل آخر غير ترافرس لافعم قلبه امتنانا ولتغلبت هذه العاطفة على كل عامل آخر ولكن لم تتقد فى صدر ترافرس جذوة الشكر أو الامتنان لانه كان لا يزال تحت تأثير الفكرة القائلة انه أحق بالاستيلاء على كل مايملكه راف ، واعتقاده بان المرتب وكل مايحصل عليه من مزايا وفوائد انما هى نقطة من محيط بالنسبة الى الثروة والجاه اللذين تقضى العدالة أن يكونا له

أحس ترافرس عن كل حال بشىء من الابتهاج عند ما دفع المتأخر عليه من الايجار لصاحبه المنزل وعند ما بلغها فى ترفع وفتور انه سيغادر غرفته غدا . وفعلا لم يتوان بل ذهب الى شارع « جرمين »

حيث استأجر غرفة للنوم واخرى للجلوس ودفع ايجار شهر مقدما ونقل أمتعته القليلة الى مأواه الجديد

ذهب ترافرس بعد ذلك الى خياط وأمره فى ابتهاج ان يصنع له بعض ثياب جديدة . وقد وقع اختياره على خياط من الطبقة الاولى ودفع له مبلغا كبيرا لانه لم يكن يرتاب فى انه سيحصل على مبلغ آخر من راف غير الثلاثمئة جنيه وهى المرتب السنوي الذى استقر عليه الاتفاق . وفى الساعة الاولى والنصف عاد الى « كلاريدون هوس » وقد وجد لذة فى النطق بهذا الاسم . ولا عجب فقد قضى كل حياته فى آلام أمانيه ومطامعه ، يحلم بما يستطيع عمله وما فى مقدوره الوصول اليه لو اتيحت له الفرصة التى يقدرها الناس كل التقدير . لقد كان بالامس يكتب عناوين أهل البر ويكد ويجد ليكتسب مايسد به رمق الحياة ، أما اليوم فقد صار سكرتير واحد من النبلاء بل وصديقه — فيالها من وثبة ! !

قابل راف سكرتيره فى بهو القصر فصافحه كانما افترقا منذ شهور ثم وضع ذراعه القوية فى ذراع ترافرس النحيلة ومشى معه الى غرفة الطعام . فلما دخلا هرعت اللادى انيتا الصغيرة الى راف ولكنها جمدت فى مكانها عندما وقعت عيناها على الرجل الغريب وراحت تتفرس فى وجهه بعينيها البريئتين ، فخاطبها راف قائلا

— هذا رفيق لى يا نيتا . ان اسمه المستر ترافرس وهو سكرتيرى هل تفهمين معنى ذلك

حنت الفتاة رأسها الصغير لترافرس الذى احس بشىء من التملق عندما رآها تتفرس فى وجهه ثم قالت

— أى نعم . انه شخصا يتهجا جميع الكلمات الصعبة التى لا تعرفها ويخبر الناس لماذا لا تريد أن تكتتب فى الاشياء التى لا تريد أن تدفع لها نقودا

فقال راف فى ابتهاج

— كيف ذلك يا ترافرس ؟ اليست نبيهة ؟ انها تصيب المرمى دائما . هالو . ها قد جاءت اللادى مود

تحول ترافرس عندما دخلت اللادى مود وكانت . قد علمت من أبيها خبر استخدم المستر ترافرس ؟ فتقدمت الى الامام فى ثباتها العادى وقالت

— من دواعى سرورى العظيم أن أراك يامستر ترافرس . لقد كنا فى قلق من نحوك ولكن شكرا لله لم تصب بسوء

حنى ترافرس رأسه فى احترام فلم تبسط اللادى مود يدها لمصافحته فاحس ترافرس ، كما أحس راف من قبل ، بخطتها المنطوية على الترفع فاستاء لها ، على عكس راف ، ولم يلبث ان ثارت فى نفسه روح الخصام ضد اللادى مود قائلا فى نفسه ان هذه الفتاة المتعلمه الراقية لا تعده أكثر من سكرتير ، من خادم ، ومع ذلك لو كانت تدرى لعلمت انه من دم اللورد سترانفير ولحمه — أخوه الاكبر !

دخل سان ايفز الغرفة وهم يتحدثون فقال

— آه ، هذا أنتم جميعا . أرجو الآن يامستر انفير ان تكون قد سويت امورك مع المستر ترافرس . ان هذه لهجتكم أليس كذلك ؟

ثم ضحك ارتياحا وعاد فقال

— سأتكلم باللهجة الاميركية مثلك ياستر انفير

قدم راف الى ايفا قطعة من اللحم وربط له الفوطة حول عنقها قائلا

— اننا على ما يرام

فقالت ايفا الصغيرة

— هل ركبت جوادك يا بلندربور ؟ انني أحب ثيابك هذه

فغمزها من تحت المائدة والقى نظرة تحذير نحو اللادى مود قائلا

— نعم خرجت على ظهر جوادى اليوم

فقالت الفتاة الصغيرة

— أظن انك تحسن الركوب . أود أن تأخذني معك أحيانا . نعم أتلقى دروسي ولكن المعلم شيخ خفيف لا يسمح لنا بالركوض . خالتى مود ، هل أركب مع بلندربور ـ اعنى ستراتفير ـ أحيانا ؟

ابتسمت اللادى مود لها وأومات رأسها بالقبول ، على حين التفت راف الى ترافرس وسأله قائلا

— هل تحسن ركوب الجياد يا ترافرس ؟ في وسعنا أن نجهزلك جوادا

هز ترافرس رأسه وأجابه قائلا

ـ لم تتح لى فرصة للتعلم

لاحظت اللادى مود فى لهجة ترافرس ما يشعر بوجود روح الحقد والبغضاء فى صدره . وكانت الفتاة الى هذه اللحظة تعده ، كما تعد كل فتاة فى مركزها ، رجلا أحط منها مقاما ، ولكن اللهجة الغريبة التى ظهرت فى جوابه كان لها وقع خاص فى اذنيها وحملتها على أن تدقق النظر اليه وتدرس أحواله فالقت عليه نظرة فاحص مدقق من عينيها الهادئتين مع انها لم تطل النظر اليه من قبل

رأت مود أن الشاب وسيم الوجه وانه من جميع نواحيه مهذب

راق الاخلاق ولـكنها ذهبت بغريزتها النسائية الى أبعد من ذلك فاحست بشيء لا تستطيع ادراك كنهه ، يحملها على أن تصدر عليه حكما قاسيا . وقد حولت الفتاة عينيها عن وجهه بعد أن القت عليه هذه النظرة الدقيقة ولـكن ظل الاعتقاد الذي تولد في قلبها باقيا ، ولولا انها شعرت باحتجاج في نفسها على هذا الاعتقاد قائلة انها لم تجد في أحوال ترافرس ما يستوجب اللوم بل بالعكس كان هادئا رزينا لا يتكلم الا قليلا ، وليس على ما يقوله أقل غبار

والواقع لعب ترافرس أثناء تناول الطعام دور الرجل الذي ارتفع فجأة وعلى غير انتظار الى مركزه وأتقن هذا الدور حتى سر اللورد سان ايفر به سرورا عظيما ولم يسع الآنسة مود الا أن قالت في نفسها ان لا أساس لوسواسها وانها كادت تصدر عليه حكما قاسيا فكانت النتيجة ان أظهرت له سرورها ورعايتها أكثر مما تظهره عادة لاحد من الغرباء

لم يكد ينتهي الطعام حتى أعلن الخادم قدوم المستر غردين فدخل المحامي ولما علم بمهمة المستر ترافرس تنفس الصعداء وشعر بما شعر به اللورد سان ايفر من الارتياح . لان المستر غردين كان في الحقيقة يخشى ان يرحب بكل شخص لا يستطيع ان يثبت انه ذلك الذئب الذي جاء به من الاقيانوس الهادي

وكان المستر غردين قد جاء معه ببعض أوراق تتعلق بالضيعة ، فذهب الرجال الثلاثة الى غرفة المكتب ودعا اللورد سان ايفر ، ترافرس الى مساعدتهم

شرح المستر غردين الامر له ، وكان الذئب جالسا على قاعدة النافذة يدخن سيجاره فاخذ يومىء برأسه من وقت الى آخر الى ترافرس

كأنما أراد ان يقول له :هذه مهمتك شكراً لله ولم تمض لحظة وجيزة حتى وجد المستر غردون أنه يخاطب السكرتير بدلا من راف

أخيراً قال ترافرس

ـ لقد فهمت ماتريد وسأشرح الامر للورد ستراتفير

فقال المحامي

ـ حسناً جداً . هناك مسألة أخرى (وهنا حول عينيه من اللورد سان ايفز الى راف) لم يتم شيء فيما يتعلق بنفقات اللورد ستراتفير. اظن أنك وجدت مدينة لندن من الاماكن التي تحتاج الى نفقات طائلة؟

وجه المحامي سؤاله الاخير الى راف فاجابه هذا قائلا .

ـ هو ماتقول . ولكن اعطاني لورد سان ايفز شيئاً من المال لانفاقه . ولاح لي ان لا أهمية في مدينتكم هذه إذا سار الانسان فيها وجيبه فارغا أو مملوءاً بالنقود لانهم لا يترددون في اعطائك ماتريد

فقال المستر غردون نتور

ـ بلا شك . ولكن نحن اتخذنا كثيراً من الاحتياطات لذا ان يخصص لك مبلغ محترما قوته إذا ... خمسة آلاف جنيه في العام أيها اللورد سان ايفز ؟

تورد وجه ترافرس قليلا وهو منكب على الاوراق التي قدمها اليه المستر غردون . خمسة آلاف جنيه ! ! يالها من ثروة هائلة

قال لورد سان ... في تأدب ... كتم ... تثاؤبه

ـ هذا يكفي على ما أعتقد

فقال المستر غردون

ـ حسنا . ... سأتفق مع المصرف . ... أن تأتي معي أيها

اللورد ستراتفير لتأخذ دفتر حوالاتك . أظن انه لم يبق هناك شيء ولكن أقول على ذكرى ذلك انه يجدر باللورد ستراتفير أن يسافر الى اسكتلندا في أقرب وقت مستطاع لان الوكيل ابلغني أن هناك بعض أمور تحتاج الى اهتمامه . انك رجل ذو شخصية سامية فى اسكتلندا أيها اللورد ستراتفير ، ويتوق رجالك بالطبع الى تقديم فروض الاحترام اليك فى أقرب وقت

فسأله راف قائلا

ـ كم يوما تستغرق الرحلة من هنا الى هناك ؟

ضحك سان ايفز وقال ان القطار يقطع المسافة فى ثماني ساعات

فقال راف

ـ حقا ؟ من الصعب أن يدرك المرء ان هذه الجزيرة صغيرة الحجم بهذا القدر بالرغم من الضجة التى يحدثها العالم حولها واهتمام الناس كل هذا الاهتمام العظيم بها . لقد التقيت مرة برجل اميركي قال لى انه لما كان فى انكلترا كان يخشى أن يتمشى مسافه طويلة مخافة أن يصل الى حافتها . ان ثماني ساعات مدة لا أهمية لها . سنسافر الى هناك بعد قليل ولكني أريد أن أشاهد ما فى مدينتكم هذه لانها اجمل مدينة رأيتها ولو انني لم أر مدنا عديدة

ذهب المستر هردون والشابان الى ادارة البنك حيث قوبل لورد ستراتفير الجديد بمظاهر الحفاوة والترحيب . وقد وقع راف بامضائه بحروف غليظة فى دفتر الامضاءات الكبير ثم تسلم دفتر « الشيكات » المستطيل الذى تستطيع اوراقه أن تجابه ضروب المسرات وان تزيح عن الطريق كثير من الاخطار والاهوال

اخيرا قال راف

ـ أما وقد حصلنا على كل هذا المال فهيا بنا نشترى ماتريد . انني أشعر الان بما يشعر به الفتيان عادة عند مايصيبون بقعة غنية بالذهب انني الان مطلق العنان وأود لو دهنت المدينة كلها لونا قرمزيا مفرحا ان فى قولى هذا مغالاة ، اليس كذلك ؟ ولكن فى وسعنا على كل حال أن نزور بعض هذه المخازن

تأبط راف ذراع ترافرس وسار الاثنان معا فى « بوسدستريت » وقد لاحظ راف النظرات الغريبة التى كانت تصوب نحوه وهو سائر يتحدث طول الطريق بملء حريته كما كان يسير بخطوات واسعة فى محلة « حنة الراقصة »

أخيراً وقف الشاب امام مخزن كبير من مخازن الحلى والجواهر وقال وهو يرمق مااحتوت عليه معروضاته

— يلوح لى أن هذا جميل . أريد أن اشترى حلية صغيرة للطفلة واعنى بها اللادى ايفا . آه ، اخبرني ماذا تقول فى هذه ؟

أشار راف الى حلية من الماس تليق بصدر دوقة ، فلم يضحك ترافرس ولكنه تظاهر بانه يفحص الحلية بامعان ثم قال فى شىء من التردد

— أراها كبيرة بالنسبة الى فتاة صغيرة ، اليس كذلك ؟ هيا ندخل فابلهما المساعد باحناء رأسه وعاد فكرر احناء رأسه عندما قال ترافرس

— أن اللورت ستو نفيلد يريد شراء حلية لبنت صغيرة

تقدم أحد مديرى المحل اللقب الرفيع فهرع اليهما وحنى رأسه غير مرة وتقدم اليهما كرسيين ولم تمض لحظة وجيزة حتى كثرت لوحة

الزجاج امامهما باللالىء والحلى النفيسة الغالية

وكان راف لايزال يبحث عن حلية كبيرة باهرة ولكن استطاع ترافرس بحذق ومهارة أن يحمله على شراء قلادة من اللؤلؤ ثمنها مايتان وخمسون جنيها ، فلما حول الثمن الى ريالات بدت دلائل الدهشة على وجه راف ولكنه قال

— قبلت ، اذاكان هذا قولك . ولكن ليس معي المال اللازم آه ، لقد نسيت ذلك الدفتر . هل تقبل « شيكا » ياسيد ؟

فتبسم المدير وقال

— كلا يامولاى . ليس ثمة حاجة لى ذلك . لاأريد ان اكبدكم مشقة

فقال راف

— هذا تأدب عظيم منك . ارسل الحليه الى « كلارندن هرس » فى ميدان بلجريف

— أعرف ذلك يامولاى

والواقع كان الرجل ، مثل معظم تجار « وست اند » قد وقفوا على تاريخ اللورد الشاب الذى ورث هذه الثروة الطائلة وعرفوا من أين جاء وتناقلت تفاصيل رؤيته

هم راف بالخروج ولكنه التفت الى الرجل وخاطبه قائلا

— عليك أن تكتب هذه الكلمات بحروف ذهبية وهى : « من سندولامون بلندن بورد »

التفت راف الى ترافرس وقال له أن هذا رمز مصحوك به بينه وبين الفتاة الصغيرة ثم عاد الى مخاطبة المدير قائلا

— ثم أصغ الى ياسيد . أريد أن اشترى حلية صغيرة لصديق

وسكرتيرى هذا . لقد تم الاتفاق بيننا اليوم فاريد ان أقدم اليه عربونا لصداقتنا

أحمر وجه ترافرس وأراد الرفض ولكن لم يكترث بقوله وخاطبه قائلا

ـ القى نظرة على ماحولك وانتق ماشئت منه . ماذا تقول اذا قدمت اليك خاتما بفص كبير من الماس ؟

جاء المدير الى مساعدة ترافرس فقال

ـ اذا قبلت رأيي فانى أقترح عليك شراء دبوس من اللؤلؤ

اختار ترافرس ، وهو لا يزال يحتج ، دبوسا صغيرا من اللؤلؤ ، فدعاه المدير الى المكتب لكتابة العنوان الذى يرسل اليه الدبوس وعندئذ انتهز الرجل الفرصة وهمس فى اذنه قائلا

ـ العمولة العادية بالطبع ياسيدى

صعد الدم الى وجه ترافرس وكاد ينفجر [illegible] في سخط واستياء ولكن التجربة كانت عظيمة [illegible] الصمت



الفصل العاشر

ترافرس الامين

وبينما كان ترافرس مشتغلا فى الناحية الاخرى من المخزن ، كان راف ينظر فيما حوله فى شىء من القلق لان نفسه كانت تتوق الى شراء هدية الادى مودول لكنه لم يجرأ على هذا العمل مخافة ان تغضب أو ترفض هديته قائلا فى نفسه ان هذا يكون تسرعا منه فعدل عن الفكرة وهو يقول

غادر الشابان المكان فتأبط راف ذراع سكرتيره وخاطبه قائلا

— اريد ان ابتاع واحدة من هذه السيارات ان نفسى تتوق الى امتلاك سيارة خاصة لاننى أتدرب على تسييرها وربما يستاء اللورد سان ايفز اذا هشمت له سيارته

فسأله ترافرس قائلا

— هل توجد حاجة الى الاسراع والعجلة ؟ لقد أنفقت اليوم مبلغاً كبيراً

فاه ترافرس بالجملة الاخيرة وهو يبتسم فقال راف

— حاجة الى الاسراع والعجلة ؟ بلا ريب من عادتي انه متى استقر رأيي على شىء حصلت عليه فى الحال . ثم لماذا انتظر اذا كان فى جيبي هذا الدفتر المضحك ؟ مال ! اننى غارق فيه ، ثم ما فائدته اذا لم استطع انفاقه ؟

هز ترافرس منكبيه وقال

— هذا سؤال لاجواب عليه أيها اللورد ستراتفير.

فقال راف

— هذا حسن . ولـكن أصغ الى . لا تخاطبنى بلقب «لورد» بل أدعنى باسم راف . ان هذا أسهل فى القول وادعى الى الصداقة

ـ أخشى أن يكون هذا بعيدا عن المجاملة واللياقة . ولـكن اذا كنت تصر على ذلك فانى اهمل اللقب وأدعوك باسم سترا نفير

ـ حسنا . جرب ذلك حتى تشعر بميل الى مخاطبتى بالاسم الآخر. أظن انه يجدر بى أيضا أن أدعوك باسم ترافرس . ولـكن اخبرنى ما اسمك الاول ؟

وكانت أفـكار ترافرس قد عادت به الى السيارة وقال هل ستعرض عليه عمولة اخرى يا ترى ، ولذا أجاب راف على سؤاله وهو شارد الفـكر قائلا

ـ ولفريد

كف راف عن السير فجأة ونظر الى ترافرس فى دهشة ثم قال بصوت خافت وهو يكتم انفعاله

ـ هذا غريب . ان هذا اسم أبى الذى لم أعرف به الا عند ما جاء المستر غردون فى محلة « حنة الراقصة » فى الليلة التى توفى فيها أبى .. ولفريد !!

وقف ترافرس مطرقا وقد امتقع وجهه وتقلصت شفتاه على انه ملك عواطفه وقال

ـ ان هذا اسم شائع وقد استعمل كثيرا فى اسرتى . ولا أقول ان هذا الاتفاق من دواعى أسوار رغما تدين انه علة ... تقرى أواصر الصداقة بيننا يا سترانفير

فقال راف فى رزانة

ـ هو ما تقول . ان هذه صدفة غريبة لا تجعلني أن أفتل من محبتك. ولا أكتم عنك انني شعرت بميل نحوك فى اللحظة التى وقعت فيها عيناى عليك . والواقع أحسست بعامل يدفعني نحوك عند ماشاهدتك، بعد حادثة السيارة ، واتفا تبدو عليك دلائل الترفع والشهامة كما لو كنت من طبقتنا ولا تريد كلاما لينا من أمثالنا ، ولو أننا كنا فى سيارة فاخرة وأنت سائر على قدميك ولعمرى، أرى فيك . فى تقاطيع وجهك ... اصغ الى يا ترافرس ، كما هناك فى محلة «جنة الراقصة» ـ وهو المكان الذى كنت اشتغل فيه بالتعدين قبل قدومى الى هنا ـ نحكم على الرجل من سيماء وجهه وملامحه لان الناس لا يأتون بك حاملين كتابا مطبوعا يتضمن تاريخ حياتهم بل سالمك أن تقدرهم كما هم وكما تتراءى لك . وقد جرت عادتنا هناك انه متى مال الرجل الى آخر اتخذه رفيقا له وعاش معه فى السراء والضراء وشاطره كل شيء وشد ازره في كل ما يصيبه . وقد كان هناك رجل أعرفه اسمه سوفتى سام ... ولكن اخبرني ما رأيك فى هذه السيارة ؟

فقال ترافرس

ـ سنذهب الآن الى شركة من أكبر شركات السيارات

فاستطرد الى قصته فقال

ـ وكان سوفتى هذا كالكلب الامين ، سليم النية من الطفل لا يعرف الخبث أو الخداع حتى انه نشمت منه جين ـ هذا اسم صاحبه ـ انا أخبرك عنه يوما ـ ان الرجل سوء الخداع يستطيع المرء أن ... على ... دون أقل مستة ، فاتفق ... ولا ... رفيقا واشتغل معه فى حفرته الى ان ...

النقود فسرقه الرجل فى اليوم التالى واختفى . هل فهمت؟ ... لم يبتهج سام بهذا السرور ولكننا اكتشفنا الامر فالتقينا أثر الرجل الى أن قبض عليه وعدنا به لمحاكمته فى « الصالون » ونادينا سام ليكون الشاهد الاكبر وذهب أحد الفتيان ليبحث عن حبل ليكون على استعداد بعد اصدار الحكم . ولكن قال سام : « ان الرجل ليس مذنبا ، فانا الذى أعطيته النقود من تلقاء نفسى ليسافر ويأتى بشقيقته التى أردت الزواج بها » فانتهى الامر عند هذا الحد لاننا لا نستطيع أن نشنق رجلا أراد سام أن يتزوج شقيقته

فسأله ترافرس قائلا

— وهل تزوج سام شقيقة الرجل ؟

فقال راف بلهجة جافة

ـ كلا لم تكن له شقيقة . ولكنا لم نقف على هذه الحقيقة إلا بعد أن صار الرجل فى عرض البحر . ولكن لماذا رويت لك هذه القصة آه ، هذا لانى أردت أن أبرهن لك على أنه متى اتخذ واحد منا صديقا له تمسك به ولو تبين فيما بعد أنه رجل شرير . ولكنك رجل طيب « ابيض » القلب . واذا شئت الصراحة أقول انه ليس من التأدب أن القى على مسامعك مثل هذه القصة . ولعمرى يلوح لى أن الفتاة الصغيرة صارت ارملا عندما اطلقت على اسم « بلندربور »

فقال ترافرس بصوت خافت

— فهمت كل المهم وانى مقدر صداقتك كل التقدير ولك أن تعتقد انى ابادلك شعورك اما فيما يتعلق بى ...

فتوسل راف اليه قائلا

ـ بالله تكلم على مهل وبلغة سهلة أيها الرفيق . لقد استعرت مرة قاموسا من رجل كنت معه فى التل ، فى وقت لم يكن لدينا عمل نعمله غير التدخين والاكل والنوم ولعب الورق والظاهر انك حصلت على ذلك القاموس وحفظته عن ظهر قلب ولكنى اعرف ماتمنى وهوانك تميل الى . حسنا . اننا اخوان من أب وأم آخرين ، اليس كذلك ؟

زعم راف أن هذا مزاح جميل فدهش عند مارأى الدم يصعد الى وجه رفيقه الشاحب ولكنهما كانا قد وصلا في تلك اللحظة الى باب شركة السيارات فدخلا وهناك قوبلا بمظاهر التجلة والاحترام التى لقياها فى مخزن الجواهر والحلى

شرع راف ، وهو يحمل سيجارا طويلا فى زاوية فمه ، يتفقد السيارات فاختار اخر سيارة ، كما توقع ترافرس ذلك منه . وقد أراد المديرهنا أيضاً أن لا يأخذ «شيكا» ولكن راف أراد أن يستعمل الكتاب السحرى فدعا ترافرس لكى يريه كيف يملأ الصورة ، وفى النهاية كتب ترافرس الحوالة وأمضاها راف الطمع

تناول الرجل الحوالة قائلا

ـ سأعطيك وثيقة بالاستلام يامولاى

ثم التفت الى ترافرس وأخذه جانبا على حين عاد راف الى مشاهدة السيارات ثم خاطبه بصوت خافت قائلا

ـ أظن أن هناك عمولة لك كالعادة يامستر ترافرس . ليس فى وسعنا أن نعطيك اكثر من خمسة فى المئه ولكن إذا سعيت لتغيير السيارة بعد قليل من الزمن ... هل فهمت ؟

فاومأ ترافرس برأسه علامة الايجاب

زار الشابان مخازن أخرى فكانا أينما حلا موضع الاحترام والاجلال الى أن قال راف فى النهاية انه يشعر بعطش فذهبا الى كارلتون ليتناول قليلا من الشاى . وفيما كان راف يتناول فنجانه مال فى كرسيه الى الوراء وأخذ يطيل النظر الى الرجال والسيدات فى ثيابهم الانيقة بروح الاهتمام والاستحسان ، على أنه كان يقول فى نفسه طول الوقت أنه لاتوجد بين السيدات والشابات الكثيرات التى رآهن . وبينهن عدد غير قليل من الجميلات . من تحاكي اللادى مود ملاحة وجمالا

أخيراً قام راف ومد ذراعيه ، بحالة لفتت اليه انظار الذين كانوا على مقربة منه ، وقال

ـ علينا أن نعود الآن . يجب أن أصل الى القصر فى وقت يساعدني على تنظيف الفرس ووضعها فى فراشها

بدت دلائل الدهشة على وجه ترافرس ، فشرع راف يشرح له ما اشكل عليه فهمه قائلا

ـ اعلم أن لدى فرسا أروضها للادى مود وقد تعهدت بأن اجعلها خفيفة الحركة سلسة القياد وديعة الخلق قبل أن اسلمها الى صاحبتها

فقال ترافرس فى هدوء

ـ فهمت

والواقع فهم الشاب اذ شاهد لمعانا فى عينى راف وتوردا في وجنتيه عند ماذكر اسم اللادى مود . على أنه قال

ان العشاء فى الساعة الثامنة على ما اعتقد سنلتقى بعد قليل يا أستراتفير

فقال راف

ـ لا أعد فترة فراقنا وجيزة ايها الرفيق الى الملتقى

سار راف فى طريقه فوقف ترافرس هنيهة ينظر الى الشاب الطويل ذى الجسم القوى الممتلىء وهو سائر بخطواته الواسعة وسط الجماهير المزدحمة على الرصيف ، وأخيراً عاد الى منزله الجديد فى شارع جرمين

كانت اللادى سود واللورد سان ايفز مدعوين الى تناول العشاء الليلة فى الخارج ، فتناول راف وترافرس عشاءهما منفردين وقد أثرت مظاهر الجلال والابهة ومشهد الخدم والطعام الفاخر فى نفس ترافرس اكثر من تأثيرها فى نفس راف ، لان ترافرس كان أقدر على ادراك قيمة هذه المظاهر ومغزاها من رفيقه . والواقع كان وقع المظاهر التى أحاطت به أقوى فى نفسه من وقعها فى نفس راف فلم يسعه إلا أن يعجب من أمر هذا المعدن الخشن وما اظهره من الثبات والبرود فى حضرة الخدم . وقد لاحظ أنه وان تكن خطة راف وأطواره لا تتفق مع مايظهره الذين هم فى مرتبته عادة ، فقد كان الخدم ، من رئيس السقاة وما دونه ، ينظرون إلى اللورد الشاب بعين الحب والاجلال

قال ترافرس فى نفسه ان هذا الحب وذلك الاجلال انما يرجعان الى مكانة راف ومنصبه الرفيع ، ولكنه كان على خطأ فى حكمه هذا لان الرجال الذين شاهدهم يتحركون بخفة ونشاط في الغرفة قد أدركوا ما في الشاب من النبل والشهامة ، وهى المظاهر التى تجلت بصورة واضحة جلية فى طول قامته وامتلاء جسمه ونظرات عينيه الرائقة ورنة صوته

جلس الشابان بعد تناول العشاء يدخنان ويتجاذبان أطراف الحديث فاستدرج ترافرس راف الى الكلام عن الحياة في محلة «حنة الراقصة» ولم يكن راف فى حاجة الى استدراج اذ لم يلبث أن شرع يقص على

مسامع ترافرس كثيرا من مظاهر الحياة في المحلة وهو يحمل سيجاره في زاوية فمه

واتفق أن وصل راف في حديثه الى ذكر فيني فلم تكد شفتاه تنطقان باسمها حتى امسك عن الكلام فجأة كأنما اصطدم بذكريات قوية فأرهف ترافرس السمع وقال متظاهراً بعدم الاكتراث

ـ ان في حياة فتاة في مكان كالذي وصفته مايدعو الى الاهتمام. هل كانت الفتاة جميلة ؟

عقد راف حاجبيه . لقد ذكر اسم فيني في مجرى قصته وهو لايزيد الكلام عنها فلاحظ ترافرس تردده فازداد شوقا الى معرفة ماهنالك أخيراً قال راف

ـ أى نعم انها جميلة . ان فيني مستقيمة الاخلاق في كل شيء

فقال ترافرس

ـ أظن أن الفتاة الجميلة المستقيمة ، كما تصفها ، تتزوج في الحال لان خطابها يكونون عديدين

فقال راف

ـ أى نعم . ان كثيراً من الفتيان يتمنون الزواج بفيني ولكن لم يستطيعوا حملها على القبول ثم لاأظن ... كما قلت لك ...

استطرد راف في قصته فذكر نبأ معركة حامية دارت من أجل حفرة في أحد المناجم ولكن ترافرس أدرك أن هناك علاقة ودية قلبية بين الشاب وفيني ووعى هذا الامر في رأسه كما كان يعني كل شيء يتعلق براف للالتجاء اليه في المستقبل . ولا عجب فقد كان ترافرس في كل ساعة ، بل قل في كل لحظة منذ التقته المقادير مع أخيه في دائرة

واحدة ، يشعر بكابوس فكرته ، وشوقه الشديد للقبض على زمام راف واستخدامه إذا استطاع اداة للانتقام منه مقابل الذنب الذى جناه أبوه عليه ، أى على ترافرس

خرج الاثنان معا بعد ذلك فاقترح راف ان يذهبا الى دار من دور الملاهى والتسلية. وكان الوقت قد مضى للذهاب الى أحد المسارح فدخلا قاعة من قاعات الموسيقى .على ان راف لم يجد فيها تسلية وهو أمر يدعو الى الدهشة إذا راعينا حياته الماضية

ولكن اتصاله باللادى مود كان قد هذب كثيراً من أطواره ، فلما جلس الآن فى القاعة حاملا ذقنه بيده الضخمة ، متكئاً بمرفقه على ركبته ،يراقب المغنيات ويصغى الى غنائهن تخيل اللادى مود بوجهها الجميل وقد بدت عليه دلائل الجمود ثم السخرية والاستهزاء ، فلم يسعه الا ان التفت الى ترافرس وخاطبه قائلا

ـ لا اشعر بميل الى هذا المظهر .سأراك غداً أيها الرفيق

وفيما كان راف يدخل القصر إذ وصلت عربة سان ايفز ، فذهب الشاب اليها مدفوعا بغريزته وما يمليه واجب التأدب ليساعد اللادى مود على النزول فلما وقعت عيناه على ملاحتها الباهرة تردد ولم يجرأ على ان يمد اليها يده ولكنها بادرت وبسطت له كلتا يديها فساعدها على النزول ثم رافقها الى غرفة الاستقبال فقالت الفتاة وهى تخلع قفازها الطويل

ـ لعلك لم تقض ليلتك فى حزن وكآبة

فاجابها راف قائلا

ـ كلا . ولكنها لم تكن ملأى بدواعى الابتهاج والسرور . لقد

ذهبت مع ترافرس الى مكان من اماكن التسلية ...

انقطع راف عن الحديث فجأة ونظر اليها بعينيه المملوءتين اخلاصاً وصراحة ، فقابلت الفتاة نظراته في اطمئنان وسكون ، على حين قال الشاب

ـ لعلك تشعرين بميل نحوه ؟

فقالت الفتاة

ـ لم ار المستر ترافرس إلا قليلا ...

ولكن قاطعها الشاب بضحكة قصيرة قائلا بلهجة لا تخلو من اللوم

ـ آه ، كفى أيتها اللادى مود . فى وسعك ان تزنى كل رجل وكل امرأة فى طرفة عين انه شاب طيب ورجل « ابيض » ...

فقاطعته الفتاة بدورها بهزة من كتفها وضحكة رقيقة قائلة

ـ إذن قضى الامر . إذا كان هذا قولك فليس لدى ما أقوله

لم يرتح راف الى هذا الادعان الكلي فقال

ـ حاولى ان تميلى اليه . انني شديد الميل اليه

نظرت اللادى مود اليه ثم قالت وهي تبتسم

ـ هذا ما اراه . عم مساء يا ستراتفير

استيقظ راف فى الساعة السادسة من صباح الغد فتولى تنظيف الفرس ثم ركبها وخرج الى البستان . وكانت الان قد صارت سلسة القياد بقدر ماهي جميلة وانقادت الى هذا العملاق ووجدت في لمس يده رفقا وحنوا كما وجدت في صوته ومخاطبته اياها لذة وابتهاجا حتى عجب السواس لامرها وقال احدهم انها تعرف وقع خطواته وتتبعه فى الحديقة كما يتبع الكلب صاحبه اينما سار

لما عاد راف بالفرس الى القصر وحرى بيده على جسمها الناعم الاملس واخبرها غير مرة أنها «بنت» طيبة وأنه معرم بها ، اغتسل بالماء البارد ثم تناول فطوره الفاخر لذى حمله به الى غرفته . واتفق ان جاء ترافرس قبل ان يفرغ من طعامه فنظر الى بقايا الطعام فى صمت مقرون بدهشة

وكانت رسائل راف قد اخذت تزداد فدنع للشاب اليه بجموعة من الخطابات قائلا

— خذ هاهي الشحنة العادية . من الغريب ان عددا كبيرا من الناس يطلبون نقودا ويلوح لى انهم جميعا يعتقدون انى اسلت الى العالم لاعولهم واقدم اليهم ما يطلبون

تورد وجه ترافرس قليلا ثم قال

— اما وقد تكلمت عن النقود فان معى مبلغا من المال اقدمه اليك هذا الصباح

ثم اخرج من جيبه رزمة من اوراق البنكنوت ووضعها امام راف فسأله الشاب قائلا

— هالو ، ما هذا ؟

وكان ترافرس يرمق الاوراق المالية فى حسرة لان الخطة التى وضعها آلمته كثيرا فقال

— وصلتنى هذه النقود من الناس الذين اشترينا منهم امس الحلية والسيارة . فقد جرت العادة ان يعطى الرجل الذى يقدم رجلا آخر عمولة عما يشتريه . وقد زعم اولئك الناس انى اتقبل هذه العمولة فارسلوها الى أوراقا مالية ولم يرسلوها تحويلا على أحد البنوك لان التحويل

يسهل اقتفاؤه

لم يصح راف دهشة كما كان ترافرس يتوقع ذلك ولكنه عد الاوراق ثم نظر الى الشاب وقال

ـ انى لاأرتاب فى امانتك أيها الرفيق

ثم ضحك وهو يتكلم ارتياحا اذ وجد لديه هذا الدليل ليقدمه الى اللادى مود برهانا على امانة ترافرس . والواقع عاد الى حديثه فقال

ـ انى مسرور على كل حال باحضار هذه النقود .

فسأله ترافرس قائلا

ـ هل أردها ثانية ؟

كان راف ساذجا فى بعض الامور ولكنه كان فطنا فى غيرها فقال فى جفاء

ـ لاأظن ذلك

ثم دسها فى جيبه [illegible] على سطائها ترافرس [illegible]

غادر راف سكرتيره مشتغلا بالخطابات ثم خرج يبحث عن اللادى مود فوجدها [illegible] فى البهو تتأهب للخروج فسألها قائلا

ـ الى أين أنت ذاهبة ؟

فقالت وهى تبتسم

ـ [illegible] جميل [illegible] الصباح بحيث أفضل المشى [illegible]

سار [illegible] الى [illegible]

اللادى مود [illegible] الكلام [illegible] حالة آخر

[illegible]

ـ قلت انني أريد التمشي لا السباق ياستراثير

ـ آه ، معذرة ! لم يخطر ببالي ! انني أسير مسرعا لانني كنت غارقا في افكاري . هل أخبرك بماذا كنت أفكر ؟

فاجابته الفتاة في رزانة قائلة

ـ اذا شئت

ـ حسنا . كنت أقول في نفسي انه لو جاءني أحد منذ ثلاثة شهور وأخبرني انني سأتمشى في هذه المدينة بجانب اجمل ـ اعني سيدة راقيه مهذبة مثلك ـ لضحكت من قوله . ولكن هي الحقيقه

فقالت مود

ـ ليس أغرب من الحقيقه

ـ هو ما تقولين . انني أشعر بذلك كل يوم . . . هل وصلنا ؟ اخبريني كم تستغرق مهمتك ؟ سأنتظرك هنا اذا شئت

ـ أن هذا يتوقف على مدام برحامونت الخياطة . لك أن تنتظرني اذا كنت واثقا من أنه ليس في انتظارك مايضجرك

فقال راف في لهفة ولكن في شيء من الجبن

ـ في وسعنا أن نتمشى بعد ذلك في البستان قليلا ؟

ـ نعم في وسعنا ذلك . سأسرع مااستطعت

تهلل وجه راف مسرورا بالنزهه المنتظرة قائلا في نفسه ما أجمل مرافقتها الى أحواض الزهور ذات الالوان البديعة الزاهية ، والوقوف جانبها ومشاهدة الاولاد وهم يسحبون زوارقهم الصغيرة فوق مياه البركه

أشعل راف لفافة من التبغ ثم جعل يتمشى ذهابا وجيئة ويداه خلف ظهره وقد جذب قبعته نحو حاجبيه وغض عينيه قليلا ولكنه

كان بالرغم من حالته هذه ، يراقب مايجرى فشاهد بعد قليل عربة فحم قادمة فى الشارع الضيق المنحدر ، يجرها جوادواحد ، كان يناضل بحمله الثقيل بشجاعه

وقف راف يراقب العربة فرأى السائق جالسا فى مقعده يصيح فى الجـواد المسكين ويلهبه بالسوط على رأسه فى قسوة ووحشية فكان الجواد يتنفس بمشقه ثم يستجمع قواه ويكافح لجر حمله الثقيل ثانية

لم يطق الشاب رؤية هذا المشهد فوثب الى العربة وأمسك بعنق السائق وجذبه عن مقعده والقاه على ظهره وسط الشارع ، وفى اللحظة نفسها تقريباً امسك برأس الجواد المسكين وأخذ يخاطبه بكلمات رقيقة ملؤها التشجيع

قام الرجل يتعثر ووقف ينظر حوله وقد خيل اليه ان صاعقة نزلت به من السماء أو داهمته قوة سحرية القته عن مقعده ، الى ان وقعت عيناه على راف فصاح غضباً وحمل على الشاب وهو يزمجر قائلا

— هل جننت ؟ باى حق تتعرض لجوادى ؟

لم يقصر الرجل حملته على الصخب والوعيد بل صوب قبضة يده الى انف راف فضربه الشاب بيده اليمنى بينما كان يداعب الجواد باليسرى فالقاه على الارض مرة أخرى بعد ان اصطدم بالعربة

لم يدع راف الجواد ولكنه مد رجله ورفس الرجل بقدمه قائلا بلهجة خالية من الغضب ولكنها لاتخلو من الاحتقار

— قم وادفع العربة من الخلف أيها الغبي الاحمق

حدق الرجل النظر الى الشاب الغريب الذى رجع امامه ثم مسح

الدم الذى خضب وجهه وسار الى العجلة يدفعها دون ان يفوه بكلمة فسارت العربة الى ان اجتازت الجزء المنحدر واستأنفت سيرها فى سلام

لم تغادر لفافة التبغ فم راف ولكنها انطفأت فاشعلها فى برود واطمئنان كأنه لم يقع شىء ثم أخذ يتمشى ثانية ، ولكن لم تمض لحظة وجيزة حتى فتح باب المنزل وخرجت اللادى مود شاحبة اللون ، تلمع عيناها فى اضطراب وخوف

وكانت الفتاة قد شاهدت ماحدث من النافذة فتعلقت بذراع الخياطة ومنعتها من الصياح ثم وقفت جامدة وقد فغرت فاها واضطربت انفاسها واشتدت ضربات قلبها وهي تحدق النظر الى راف

إذا قلنا ان المرأة تعبد القوة فى الرجل فانما نكرر حقيقة ممتازة لكن إذا استخدمت هذه القوة انتصار الطفل أو حيوان ابكم اشتعلت هذه العبادة مثل نار نقية ولكنها كاوية

كانت هذه النيران تشتعل الآن فى قلب الفتاة وهي سائرة بجانب راف . فلزمت الصمت هنيهة حتى استطاعت ان تضبط نبرات صوتها لكى لايتم على حقيقة حالها وعندئذ سألته فى تأدب ولكن فى غير اكتراث قائلة

– لعلك لم تشعر بسآمة يا مستر اغير ؟

فاجابها الشاب فى انشراح قائلا

– كلا . مطلقاً . ان الانسان لايفتأ يرى أشياء تدعو الى الدهشة فى مدينتكم هذه . ولكني اريد ان احدثك شيئاً عن باريس

فشرع راف بلهجة الصدق يقص عليها محاورة [illegible] باريس

ولكن الفتاة لم تعره [illegible] ولا عجب فقد تحولت بها [illegible]

حرة فى حياتها من حمل الرحل وايقظ فى فؤادها عاطفة جديدة قوية كادت تلقى الرعب فى قلبها منها

نعم فاهت مود بهذه الكلمات فى جد ورزانة ولكنها عضبت وامتعضت عند ماوجدت نفسها مضطرة الى مقاومة حمرة الخجل التى صعدت الى وجنتيها . اما راف فقداحمر وجهه حياء وهو يميل لتقبيل الفتاة وقدعجب فى نفسه قائلا ماذا تقول [illegible] مود لو جاءها بهدية ثمينة من الهدايا التى تاقت نفسه الى [illegible] ؟

الفصل الحادي عشر

راف يتقدم

اطنب ترافرس فى ذكر امانة [illegible] وامتنامته وظل يتحدث عنه طول الطريق وكانت اللادى [illegible] والكنها ظلت تجيبه وهي شاردة الفكر . ولما وصلا الى القصر ذهبت تواً الى غرفتها وشرعت تخلع ثيابها الخارجية [illegible] دون ان [illegible] مشفه ولكنها جلست على مقعد بجانب المائدة [illegible] لاتزال على رأسها ، ثم [illegible] فى تفكير ومدت نصرها الى ما [illegible] الهدايا

وكانت [illegible] التى [illegible] عند ماشاهدت [illegible] التى وقعت بين [illegible] سائق [illegible] [illegible] خفيفة سمعت [illegible] [illegible] من الفتيات اللاتى [illegible]

جموع الرجال الذين اعجبوا بملاحتها وقد وقع بعضهم فى شرك غرامها ولكن لم يستطع واحد منهم حتى الآن ان يحرك قلبها ، ولم يكن السبب في ذلك برودها ولكن كانت مبادئها عاليه ومستواها رفيعاً ولم يكن بين الذين وقعوا فى شرك غرامها واحد استطاع الوصول الى ذلك المستوى

لم يستطع راف بلوغ هذه الدرجة بلا ريب فانه بالرغم من القابه الرفيعة وثروته الطائلة ، لم تستطيع الفتاة ان تتجاهل الحقيقه الواقعه وهي انه كان معدنا خشنا غير متعلم وكانت لا تعلم الا النزر القليل من تاريخ حياته ولكن هذا القليل كان كافيا لاقامة سد بينه وبينها وستزوج يوما بلا مراء ولكن الرجل الذى ستقبله زوجا لها لا يكون من طبقتها فحسب بل لا بد ان يكون ذا ثقافة ، سامي المدارك ، ليس له ماض كما مضى راف

قالت مود في نفسها ان ما أصابها انما هو نتيجة المشهد الذى رأته فى الشارع تحتها ، وانه لا يوجد ، على كل حال ، ما يعد عملا ينطوى على البطولة فى تقدم شاب قوى العضل مثل راف لمعاقبة رجل ضعيف يشتغل بنقل الفحم

لم تعترف الفتاة في نفسها لحظة واحدة بانها أحست به عاطفة أقوى من عاطفة الاعجاب نحو ما أظهره راف من القوة نحوهم ورباطة الجأش ، ومع ذلك حمدت ربها لانها ستتناول عداءها اليوم مع احدى صديقاتها وابتهجت لانها لا تقابل راف ثانية حتى يحين وقت العشاء . ولما جلست مع صديقتها وقت الغداء ثم ذهبتا معها بعد ذلك لتبتاعا بعض حاجاتها من المخازن ، ظلت مود طول الوقت لا تفكر الا فى

أغلاطه العديدة وخشونته وحقارته . على انها أحست بشيء في داخلها يثور عند ما نعتته بالوصف الاخير نعم انه خشن ، رجل غليظ الطبع جاء من أحد المناجم ، ولكنها كانت تعلم انه ليس بالحقير

أكرهت مود نفسها على الاعتقاد بكل عيوبه الاخلاقية وسوابقه حتى كادت تفضح سرها باضطرابها عند ما فتح الخادم الباب قبيل وقت العشاء ودخل راف عليها بثياب السهرة

يقولون في الامثال العامة : «لبس البوصه تبقي عروسه» ولكن راف لم يبد في ثيابه الجديدة ، طرازا بديعا للرجولة فحسب ، بل ظهر بشكل فاخر ممتاز ومن الغريب ان الشاب لم يصبه شيء من الزهو أو الحياء لان أفكاره كلها كانت موجهة اليها ولا مود كانت قد خضعت لغريزتها النسائية فاختارت الليلة أجمل ثوب لديها فكانت مثالا للملاحة ، ذات بهاء وجلال يكفي لطرد روح الغرور من رأس كل رجل أشد غرورا من راف

لم يكن سان ايفر أقل تأثرا من ابنته فوضع نظارته على عينيه وحدق النظر الى الجسم الممتلىء الطويل ثم أومأ برأسه استحسانا وقال

— هل بلغت كل هذا المبلغ الليلة يا مستر [illegible] ؟ كيف توصلت الى ذلك ؟ ان الرجل يقضي [illegible] عن [illegible] صنع بذلتي

فتبسم راف وهو يصافحه

— نعم ، ولكني [illegible] لم ابلغ الرجولة [illegible]

اذا لم يوسع ملابسه في أقرب وقت

فقال سان ايفر

— [illegible] حياته.

ليتك تلقي الرعب فى قلوب غيره ... أقول انهم أبدعوا فى صنع ثيابك هذه

فالتفت راف فى حياء لاول مرة الى مود وكانت قد لزمت الصمت الى الآن ، وسألها قائلا

— هل هذا صحيح ؟

فقالت الفتاة وعلى ثغرها ابتسامة صغيرة

— ان شكلك حسن فى ثياب السهرة ياسترانفير

فقال الشاب فى ايجاز

— هذا من دواعى سرورى . انى أشعر بغرابة فى البداية من هذه الذيول . وقد أوصانى ولسون أن لا أجلس عليها ولا أدري كيف أستطيع ذلك ولكنى ساجرب لاننى صرت أخشى ولسون ولعمرى اعد نفسى مثل دب يتعلم الرقص

فقال سان ايفز فى جفاء

— سيكون كل شيء على مايرام

ذهب الجميع لتناول العشاء ، وروى راف لهم بالطبع قصة ترافرس والعمولة التى ارسلت اليه ، فارماً للورد سان ايفز برأسه وقال

— ان المستر ترافرس رجل «جنتلمن» [illegible] اود أن يكون جميع الذين نعاملهم مثله [illegible] الا انه كم دفع أكثر مما يجب . اذن اشتريت سيارة .. [illegible] جديدة ؟ أرى انك بادرت الى شراء ما تريد

عجبت اللادى [illegible] نفسها وقالت [illegible] اشترى [illegible] يا [illegible] لان راف لم يحص شيئا [illegible] الخل [illegible] وعلى [illegible] على انها لم تنتظر [illegible] على حالة [illegible] أطباق [illegible]

وكانت عينا الفتاة الصغيرة تلمعان لمعان النجم ، وشفتاها ملتويتين وهى تحاول اخفاء ابتسامتها ، فسارت بخطوات خفيفة الى أن جلست فى المقعد المعد لها بجانب راف ثم القت عليه نظرة ملؤها الثقة المتبادلة وأرخت عينيها كما لو كان بينها وبينه سر عظيم

على انه لم تمض لحظة واحدة حتى سألتها اللادى مود قائلة

ـــ ما هذا الذى حول عنقك يا ايفا ؟

صفقت الطفلة بيديها وضحكت ثم أومأت برأسها الى راف وصاحت قائلة

ـــ ألم أقل لك ان خالتى مود سترى القلادة فى اللحظة الاولى ؟

ثم نزلت عن كرسيها وهرعت الى اللادى مود وسألتها قائلة

ـــ أليست جميلة أيتها الخالة ؟ وجدتها على منضدة الثياب هذا المساء . انظرى الى العلبة . أليس هذا عملا جميلا منه ؟

فحصت مود القلادة ثم تبسمت ورفعت حاجبيها وهى تنظر الى راف وقد ابتهج لانشراح الفتاة ، وقالت

ـ أحل أنها جميلة جدا يا ايفا . يجب أن تعتنى بها الاعتناء كله لانها من اللآلىء المديمة

وكانت الفتاة الصغيرة قد هرعت الى سمان ايفرفلد صاحها وأيضا قائلا

ـ نعم عليك أن تهتمى بها أيتها الصغيرة لانها قد كلفت ثمنا غاليا بلا مراء

ثم التفت الى راف وهز رأسه قائلا

ـ هل هذا رأيك فى تقديم هدية الى طفلة صغيرة يا ستر انفير ؟

فقال الشاب فى غير اكتراث

ـ ستعتنى بها كل الاعتناء بلا ريب فتخلعها عند الساعة الثانية

عشرة مساء ثم تنسحب الى مقرها مثل العربة وما شاكلها ، أليس كذلك يا سندر لا ؟

فقالت الفتاة بلهجة التأكيد

ـ سأعتنى بها كل العناية يا عزيزى بلندربور

وفيما كانت تعود الى كرسيها ، وقفت بجانبه وطوقت عنقه بذراعيها الصغيرتين ومدت شفتيها الرقيقتين قائلة

ـ احن رأسك يا بلندر بور لانني اريد أن اعطيك قبلة . هل افعل أو لا أفعل أيتها الخالة مود . . . ألا يجدر بي أن أفعل ذلك ؟ لو أعطاك مثل هذه الهدية الجميلة لفعلت ذلك ؟

فقالت اللادى مود فى رزانتها العادية

ـ اجل . ان هذا أقل ماتستطيعين عمله

نعم فاهت مود بهذه الكلمات فى جد ورزانة ولكنها غضبت وامتعضت عند ماوجدت نفسها مضطرة الى مقاومة حمرة الخجل التى صعدت الى وجنتيها . أما راف فقد احمر وجهه حياء وهو يميل لتقبيل الفتاة وقد عجب فى نفسه قائلا ماذا تقول اللادى مود لو جاءها بهدية ثمينة من الهدايا التى تاقت نفسه الى شرائها ؟

تركت ايفا تتحدث مع راف عما راق لها التحدث عنه طول وقت العشاء ، على حين كانت اللادى مود تراقب ماتجلى بينهما من دلائل العطف ، دون أن تتظاهر بشيء من ذلك فرأت ان الطفلة تعبد الشاب بقلبها الصغير . ولاحظت دلائل العطف والحنان التى تجسمت فى عينيه وهو ينظر الى الطفلة وفى نبرات صوته وهو يخاطبها . وصفوة القول لم تجد اللادى مود أثرا لطباع المعدن الخشن بل خاتمه قد تحول أيضا

الى طفل وديع على نقيض ذلك الرجل الفظ الذى شاهدته يكيل تلك الضربة الفاسية لسائق العربة منذ ساعات قليلة

لما ذهبت مود الى غرفة الاستقبال منفردة أحست بقلق غير عادى وقد ظلت طول حياتها واثقة من نفسها ، قابضة على زمام عواطفها لا تعتمد على غير نفسها ، ثابتة فى وجه العالم اجمع بل وفى وجه نفسها أيضا ، ولكنها شعرت الليلة بحاجة الى الاعتماد على نفسها كما لو كانت دعائم قوتها اخذت تتزعزع من تحتها

على انها لم تلبث أن نهضت من مكانها بعد قليل فذهبت الى (البيانو) وأخذت تعزف وتغنى . فلما دخل راف عليها لم تشأ الكف عن العزف بل اكرهت نفسها على الاستمرار ، على حين تقدم راف حتى وقف بجانب المنضدة خلفها الى ان فرغت الفتاة من عزفها وغنائها فلم يبد ملاحظة ولا شكرها بكلمة فنظرت اليه من فوق منكبها مكرهة فهالها مارأته على وجهه من دلائل الذهول حتى بدا كانه فى حلم عميق يخشى اليقظه منه

كان راف قد ادرك الان ماهى الموسيقى ووقعها في نفسه . ولو كان الصوت الذى سمعه صوت مغنيه عادية لتحركت عواطفه ، ولكن لم يكن الصوت وحده هو الذى حرك شجونه الى هذا الحد بل صاحبته أيضا . والواقع لم يخاطبها الشاب بكلمة وانما أشار بأصبعه نحو (البيانو) وكانت الفتاة تنوى النهوض وتسأله فى غير اكتراث قائلة «هل تحب الموسيقى ياسترانفير ؟» ولكنها بدلا من ذلك اطاعت الاشارة كما لو كانت امرا واستأنفت الغناء ثانية

لم تكد تتلاشى النغمة الاخيرة حتى غادر راف الغرفة دون أن

يغوه بكلمة ، فلم تتحرك اللادى مود بل جمدت فى مكانها وجلست تحدق النظر الى المعزف وقد اضطربت انفاسها وعقدت حاجبيها ولا عجب فان العاطفة التى طغت عليه قد اتصلت بها وداهمتها ايضا ولما نهضت فى النهاية من مكانها احست بجسمها يرتجف قليلا

اما راف فقد ذهب الى غرفته توا فاشعل غليونه واخذ يدخن بقوة وسرعة، وصدى صوتها العذب لا يزال يرن فى أذنيه وفى حنايا قلبه ... ان شعوره الان كان شعور تألم اذ خيل اليه انها لا تزال بعيدة المنال ، وان كوكبه يلمع فى السماك الاعلى، فلا حيلة له فى بلوغه أو الوصول اليه

نعم أدرك راف أنه كان يجدر به ان يشكرها على غنائها له، ولكنه كان عاجزاً عن الكلام لان صوتها الرخيم مع ملامحها الفتانة كانا قد حركا فى قلبه نار الوجد التى إذا تحركت فى قلب رجل قوى لا تظهر فى شكل كلمات تقال بل فى شكل اعمال تعمل . لذلك وقف بجانب المضدة يصغى الى صوتها الساحر دون ان يجرأ على النظر اليها مخافة ان تتغلب عليه رغبته فى ضمها الى صدره وتشديد الضغط عليها

استقر رأى راف على ان يعتذر اليها فى الصباح عما فرط منه واعد الكلمات التى يقدمها اليها وكررها في رأسه غير مرة، ولكن مود لم تعطه الفرصة للتكلم بل حيته فى هدوئها العادى واكثرت من اظهار المودة له ولكنها اظهرت ترفعا لم تظهره من قبل . وقصارى القول جعلته على مرمى الذراع منها وأوقفته عند حده كما تعرف المرأة .. مهما تكن شابة ، كيف توقف الرجل الذى بدأت ... تخافه

قدمت مود الى أبيها خطابا عند مهم الجميع بمغادرة المائدة فتناوله

سان ايفز وقال

— آه ، اصغ الى ياسترانفير . ان صديقتنا اللادى كوانتوك ستقيم الليلة حفلة وقد طلبت الينا ان نأتى بك معنا

وضع راف يده على قبضة الباب ونظر الى اللادى مود ولم يلبث ان قال فى ابتهاج كأنما اجابته الفتاة على سؤاله

ـ حسناً . لابأس . مانوع هذه الحفلة ؟

فاجابته مود وهى تبتسم قائلة

ـ حفلة راقصة عادة ، لان قاعات اللادى كوانتواك تكون غاصة دائما بالمدعوين

فقال راف

ـ وهو كذلك اننى مغرم بالرقص فقد كنا نخلى « الصالون » من الادوات لنرقص فيه كلما أصاب أحد الفتيان حفرة غنية بالذهب أو تلقينا شحنة من الوسكى

غادر راف الغرفة وأغلق الباب خلفه فنظر سان ايفز الى ابنته ثم هز كتفه وقال

ـ أرجو أن لايوقعنا سترانفير الليلة فى ورطة لأنه يندفع فى بعض الاحيان ، فيجدر بك أن تراقبيه ... أو هل لايجوز أن . . .

فتح الباب فى هذه اللحظة وأطل راف برأسه وقال

ـ ماذا تقول إذا أخذنا ترافرس معنا ؟

فضحك سان ايفز وقال

ـ هذا ما كنت أنوى أن أقترحه عليك . أطلب اليه أن يأتي معنا وسأسوى الامر مع اللادى كوانتوك لانها من أقدم اصدقائنا

ذهب راف ثانية فالتفت سمان ايفز الى ابنته وقال

ـ سيتولى ترافرس الاهتمام بشؤونه

بلغ راف الرسالة الى سكرتيره بعد ذلك فرفع الشاب رأسه عن الاوراق التي كان منكبا عليها وقد تورد وجهه قليلا وبدت في عينيه دلائل الرغبة وكانت بذلته الجديدة قد وصلته في ذلك الصباح لانه كان استحث الرجل على صنعها بسرعة كما فعل راف . فوجد ترافرس في هذه الدعوة اغراء له لان نفسه كانت تتعطش الى مخالطة الطبقة الارستقراطية الراقية التي يعتقد من أعماق قلبه أن له الحق كل الحق في دخولها .

وعلى ذلك تردد لحظة واحدة فقط وقال

ـ حسنا . هذا من دواعي سروري

خرج راف وترافرس بعد الظهر لتجربة السيارة الجديدة وأخذا جاكسون معهما . وقد أعرب راف بعد قليل عن رغبته في تسيير السيارة فقطع بها بضعة أيام على أحسن حال ولكن اتفق أن صادفه منحن في الطريق فصعدت العجلة الامامية فوق الرصيف ومالت السيارة الى جانبها بحالة خطرة فضحك راف بالطبع وقال

ـ كدت أقلب السيارة كلها في المرة الاولى

لم ير راف امتقاع وجه ترافرس ، ولكن جبنه هذا لم يدم غير لحظة واحدة اذ تغلب عليه في اللحظة التالية بهز منكبيه وقال في غير اكتراث .

ـ نعم كان الموقف دقيقا

لم يلاحظ راف ماستولى على ترافرس من الهلع ولكن لاحظه

جا كسون السائق فادرك الفرق الشاسع بين السيد الجرىء والسكرتير الجبان

اتفق راف وترافرس على أن يذهبا مشيا على الاقدام الى منزل اللادى كوانتوك وكان فى شارع سوث اودلى . فلما وصل ترافرس الى « كلارندرن هوس » فى الساعة العاشرة وجد راف واقفا على السلم يجذب قفازاً من الجلد الابيض . وكان الشاب قد ساعد اللادى مود على ركوب عربتها منذ فترة وجيزة وقف يفكر بها لا بالقفاز فانشق نصفين عند راحته فنظر راف اليه فى احتقار وقال

ـ ياله من شيء كريه !

ثم نظر الى يد ترافرس واستطرد قائلا

ـ ان قفازك ملتصق بيدك كأنه غا معها . ولكنى سأتغلب على كل شيء فى حينه . هل لك فى سيجار ؟

وقف الشابان عند زاوية الميدان ليشعلا لفافتى التبغ واتفق أن القى ترافرس خلفه نظرة فشاهد فتاة تمشى خلفهما على مسافة بضع خطوات . ولم يكن فى منظرها أو شكلها شيء غير عادى يلفت الانظار وكانت شابة صغيرة الجسم ترتدى ثوبا أقرب الى الطراز الريفى منه الى الطراز الحضري . ولولا أنها قامت بحركة غريبة غير عادية مالقى ترافرس عليها نظرة أخرى لانها وقفت فجأة عندما وقفا ودارت على عقبها فى خفة وسارت فى الناحية الاخرى من الطريق

لمح ترافرس وجهها فقط ولكن هذه النظرة القصيرة دلته على أنه لايخلو من الملاحة . كانت الشمس قد لحقته ولكن كانت تبدو عليه دلائل الشحوب ، تألق فى وسطه عينان رماديتان كالنجم اللامع وقد خطر ببال ترافرس لاول وهلة انها تتسول ولكنه لاحظ فى

شكلها وحركتها الاستقلالية وفى طراز ثوبها ما دفع هذه الاوهام من رأسه على ان أثر هذا الحادث التافه لم يطل فى رأسه ، فلم يلفت نظر راف الى الفتاة وتقهقرها السريع

❖❖❖



ظهور فينى

اصطف خارج قصر اللادى كوانتراك خط طويل من السيارات والعربات ، واحتشد جماعة من الناس على الرصيف لمشاهدة وصول السيدات والسادة من المدعويين والمدعوات ، فسار راف فى صمت ولكنه كان يراقب كل شىء ، فاجتاز البهو ثم صعد درجات السلم العريضة الى حيث وقفت سيدة بدينة الجسم طيبة القلب ، ترتدى ثوبا من الحرير القرمذى محلى بالجواهر الغالية واللآلىء الثمينة ، تصافح ضيوفها

سأل راف بصوته العميق قائلا

— من السيدة السمينة ؟

فتمتم ترافرس قائلا

— اللادى كونتراك

وكان اللورد سان ايفز واقفا بجانب صاحبة الدار فلما أبلغها من هو راف مدت اليه يدا غليظة وتهلل وجهها قائلة

— يسرنى أن اراك أيها اللورد سترانفير . الا ترى انه يشبه اباه ؟

تناول راف اليد السمينة التى امتدت اليه وضغط عليها وقد تورد

وجهه ولمعت عيناه ثم قال

— هل تعرفين أنت أيتها السيدة وتعتقدين انني اشبهه؟ ان قولك هذا خير ماسمعت منذ قدومي الى هذه البلاد . أود أن احدثك عندما تفرغين من هؤلاء القوم

سحبت اللادى كوانتوك يدها التى ضغط عليها وهي لاتدرى هل تستطيع أن تستخدمها الليلة ثانية ، ثم بدت عليها دلائل التألم هنيهة ولكنها تملكت عواطفها وتبسمت قائلة

— انك فتى عزيز وستبقى كذلك

ثم التفتت الى سان ايفز وخاطبته قائلة

— انه شاب جميل . احضره الى فيم بعدلان نفسي تتوق الى محادثته

فقال راف فى حماسة

— حسنا ياسيدتى . انى هنا . هذا صديقى المستر ترافرس وهو شاب طيب ستميلين اليه

حنت اللادى كوانتوك رأسها الى ترافرس وهى تبتسم ثانية على حين قاد سان ايفز ، راف بعيدا . وكان وجه الشاب يتهلل ابتهاجا وفخارا فقال

— انظر كيف انها تعرف ابت

— يوجد عشرات هنا يعرفون أباك يابنى عندما . قبل . عندما كان شابا قبل أن يغادر انكلترا

فقال راف بصوت خافت

— من دواعى فخرى ان اقابلهم

فتمتم سان ايفز فى نفسه قائلا

— حسناً . لابد من اجتياز هذه المرحلة

انسحب سان ايفز مع راف الى زاوية القاعة ، فنظر الشاب فيما حوله بعينيه الهادئتين وكان المشهد جديداً في عينيه بلا مراء فتولاه شيء من الارتباك من جراء الانوار الساطعة والنساء الجميلات في ثيابهن الانيقة البديعة ، واللآلىء المتألقة وحركة الرائحين والغادين وأصواتهم

واتفق ان كانت الفترة التي دخل فيها راف ووصيه من فترات السكون بين أدوار الرقص ، فامسك سان ايفز بذراع رجل كان مارا بهما وقدم راف اليه كما قدمه الى غيره ، وعلى ذلك لم تمض لحظة وجيزة حتى احاط براف دائرة صغيرة من الرجال. وفوق ذلك كان نبأ وصوله قد انتشر فاتجهت اليه أنظار الكثيرين وهكذا كان ظهور راف لأول مرة في الهيئة الاجتماعية مشعرا بايجاد مايسميه رجال الصحافة « ضجة »

وكان راف خلال حديثه مع مستقبليه يدور بعينيه باحثا عن مود الى ان رآها في النهاية واقفة بجانب رجل محدودب الجبين تميل ذقنه الى الوراء ولكن كانت تبدو عليه بالرغم من هذا الثوب الخلقة دلائل الرزانة والهيبة

قال راف مخاطباً ال[illegible] سان ايفز

— [illegible] ذهب لأطلب لي الذي[illegible] ترقص معي

ثم غادر جماعة الرجال [illegible] الفتاة [illegible] القاعة بخطوه [illegible] جسمه [illegible] حتى وصل الى الفتاة فسألها قائلا

— قولي يا [illegible] هل لك [illegible] ترقصي [illegible] ؟

وضع الرجل الذى كان واقفاً بجانب الفتاة نظارته على عينيه على مهل ثم جعل يتفرس فى الشاب من قمة الرأس الى أخمص القدم ثم من اخمص القدم الى قمة الرأس

اومأت مود برأسها ثم تحولت الى رفيقها وخاطبته قائلة

ـ هذا لورد سترانفير ... سترانفير ، هذا لورد سنبورن

فمد رالف يده وقال

ـ من دواعي فخرى ان أراك

صحب الفيكونت سنبورن ، نجل دوق وبردج ووارثه ، من لهجة رالف، لكنه مد اليه يده واحتمل قبضته القوية دون ان يتململ على حين قالت اللادى مود فى رزانة بالرغم من أنها ادركت ماتولى اللورد سنبورن من الدهشة

ـ ان اللورد سنبورن من اصدقائنا القدماء تجاور املاك أبيه املاكك باسترانفير ، فارجو ان تكونا صديقين

فقال رالف على الفور

ـ إذا كنت تقولين ذلك فقد قضي الامر سنشرب معاً كأساً من الخمر [illegible] متى رغبت [illegible] لنرقص . تعالي يامود

وكانت الموسيقى بدأت توقيع انغام رقصة « لولنز » ، فمثل رالف [illegible] ثم [illegible] وقال [illegible] عن الحيرة

ـ [illegible] ، ماذا تسمون هذه الرقصة ؟

فقالت [illegible] فى [illegible] حيرته واستغرابه

ـ [illegible] رقصة « الولتز » الا ترقصون ؟ [illegible] فى ...

- فى «جنة الراقصة» ؟ كلا . اننا لانتحرك هذه الحركة على كل حال بل يقف الواحد منا مقابل الآخر وندع أقدامنا تسير مع نغمات الموسيقي ونميل من وقت الى آخر لتغيير حركتنا

فقالت اللادى مود

- اظنك تعنى رقصة الترنح الى الوراء . هذه رقصة اسكتلندية . أى نعم فى وسعك ان ترقصها فى اسكتلندا اما نحن فلا نرقصها هنا في لندن الا نادراً . ولكن لابأس . هيا نجلس معاحتى ينتهى هذاالدور هل لنا ان نذهب الى ذلك الركن بعيداً عن الناس ؟

وكانت اللادى مود قد لاحظت النظرات القاسية التى صوبت الى راف وهو واقف كالصخرة لايتحرك دون ان يشعر بها فاقترحت عليه هـذا الاقتراح فاجابها الى طلبها ولما جلس على الكرسى بجانبها خاطبها قائلا

- يلوح لى ان امامى أشياء كثيرة اجهلها فى مدينتكم هذه . ولكن اصغى الى فاننى حرمتك هذه الرقصه وليس هذا من الانصاف

وكان ترافرس قد تلقى وصيه من اللورد سانت ايفز بمراقبة راف، فتقدم اليهما بخطوته الهادئه الرزينه التى طالما حسده راف عليها ولما وقع نظر الشاب عليه قبض على [illegible]

- هيا ياترافرس خذ اللادى مود وارقص معها هذا الدور فانني افسدته عليها

[illegible] الى [illegible] الطلع [illegible]
تحفظ مركزه . فانتصبت [illegible] بجانبه [illegible] ثم
[illegible] الرقص [illegible]

فلما جلس راف يراقبها وهما يسبحان وسط القاعه فى خفه ونشاط احس بشىء أشد قوة من الشعور بالخيبه وقال فى نفسه

يجدر بهذا الشاب أن يأخذ مكانى

كانت هذه أول فكرة خطرت ببال راف الذى أدرك الليلة المرة الاولى الفرق بينه وبين الرجل الآخر الذى جلس الآن يراقبه فى اهتمام شديد وشىء يشبه الحزن

سبحت أفكار راف وغاص فى لج ر تأملاته — وهى حالة لم يعهدها راف المسكين من قبل لانه رجل عمل لا رجل احلام — الى أن أفاق فجأة على صوت اللادى كوانتوك وهى تضحك قائلة

— اذا كان الجبل رفض المجىء اليك فعليك أنت أن تذهب اليه ، أو هل يجوز قلب الآية ؟ لقد جئت الآن اليك لكى أجلس بجانبك واحدثك عن أبيك . كم كان رجلا عظيما ! .. هل أنت فى حاجة الى يا عزيزتى ؟

ألقت صاحبة الدار هذا السؤال على شابة تقدمت نحوها . وكانت الفتاة صغيرة الجسم نحيلة البدن ، رقيقة المظر ، تبدو كأنها قطعة من الصينى الشفاف الرقيق ، ولكن كانت مدلين دسبار بالرغم من ضعفها الظاهرى ، أعرف الشابات الخبيرات بشئون العالم

قالت الفتاة وهى تنظر بعينيها الى قارين الى وجه فى الحاق ورقه

— انما أردت أن اخبرك كم اتمتع بهذه الحفلة البهيجة الجميلة يا عزيزتى اللادى كرانتوك

فاجابتها السيدة قائلة

— هذه رقة عظيمة منك ياعزيزتى . أود دائما أن أرا كم جميعا في ابتهاج وهناء كما تعلمين وقد كنت فيما مضى فتاة مثلك ، ولو انك ربما لا تصدقين قولى

وكانت « فتاة دسبار الصغيرة » — كما يسميها بعض الرجال — لا تزال توجه نظراتها التى تشبه نظرات الطفل ، الى راف فقالت اللادى كوانتوك في رفق

— دعينى اقدم اليك لورد ستر انفير نجل أحد عشاق الاولين . هذه مس دسبار ايها اللورد ستر انفير فعليك أن تطلب الرقص معها الآن

فقال راف وهو ينظر الى الجسم الخيالى الصغير

— فى ذلك خطر عليها اذ يحتمل ان « أكسرها »

فاجابته الفتاة على الفور بالحقيقة وهى لا تدرى قائلة

— لست قابلة للكسر كما يلوح لك

ثم التفتت الى اللادى كوانتوك وقالت وهى تجلس على مقعد بجانب راف

— هل في وجودى تطفل ياعزيزتي اللادى كوانتوك ؟

فاهت الفتاة بكلمة « تطفل » باللغة الفرنسية فلم يدرك رافه معناها ونظر من احداهما الى الاخرى ثم شرع يتحدث عن أبيه

تأثرت اللادى كوانتوك لسذاجة رقة أدراكه وحدقت مدلين دسبار اليه النظر بعينيها الواسعتين وقد فغرت فاها قليلا فى شىء من العجب والدهشة لأن راف قص عليها شيئا كثيرا من الحياة فى محلة « جنة الراقة » و « الالدرادوصالون » وفاض بطبيعة الحال فى ذكر « بياض » قلب أبيه وشجاعته

وجاء بضعة أشخاص آخرين فالقوا زيارة استئذان على اللادى

كوانتوك ثم جلسوا يصغون الى حديثه فنظر راف اليهم بعينيه الثابتتين ولم تمض لحظة وجيزة حتى تولى الجميع الصمت واشتدت روح الاهتمام الذى أثاره وجوده من قبل . ولم يكن الاهتمام مقرونا بالدهشة والغرابة فقط بل كان مقرونا بما هو أكثر من ذلك فاغرب الرجال عن استحسانهم للشاب وهم ينظرون اليه ، وبدا فى أعين النساء لمعان ينم على روح الاعجاب . فلما طلبت مدلين دسبار اليه فى النهاية ان يرافقها الى قاعة الطعام وجد نفسها وسط جماعة من الاشخاص يود كل واحد منهم أن يتحدث أسابيع مع «هذا الشاب الغريب المدهش ، لورد سترانقير»

بعد أن ملأ راف طبق مدلين دسبار بانواع الطعام اللذيذة ، شرع بتناول طعامه ، ولكن بالرغم من شعوره بالجوع الشديد وتظاهره بالاصغاء الى حديث رفيقته التى كانت ترعاه بعينيها وتهتم بتسليته ، كان راف يدير بعينيه فى جوانب القاعة من وقت الى آخر ، يبحث عن مود فلم تمض لحظة وجيزة حتى رآها قادمة تتكىء على ذراع اللورد شنبورن

حدق راف النظر الى اللادى مود فاذعنت الفتاة لحكم العاطفة المشهورة ونظرت نحوه ثم تبسمت وأومأت برأسها ، فرفع راف كأس الشمبانيا ورد تحيتها بحنى رأسه على طريقة المدنيين

وكانت مدلين دسبار قد لاحظت ما طرأ على وجهه من التغير الفجائى فاتجهت اليه بنظرة يرجى فيها ثم قالت

— ألا ترى أن اللادى مود سيدة ملاحة فاتنة ؟ أى امتعة من أجمل النساء طرا ، ألست تعتقد ذلك ؟

فقال راف فى تجاهل

— نعم

لمعت عينا مدلين وتصلبتا هنيهة ثم قالت

— يقال بعض الناس انها على شيء من البرود ولكنى أعتقد أن برودها هذا يلائم طرازجمالها ، الا تعتقد ذلك ؟

فقال راف بالابهجة عينها

— نعم

— ربما ليست من البرود كما يلوح للمرء ولكنك أدرى بطباعها لانك تعيش معها في منزل واحد ، اليس كذلك ؟

فقال راف

— نعم

كان الشاب ينظر الى الناحية الاخرى من القاعة نحو اللادي مود ورفيقها وهو يقول فى نفسه انهما صديقان قديمان وان للرجل الحق فى أن يميل نحوها ويضحك معها ويتحدث اليها كأنهما كانا شقيقين ، على حين قالت مدلين

— أظن أنك تعرف الرجل الذى معها فهو اللورد سمورذ ؟

فقال راف وهو لا يزال مشتغلا بمراقبة الاثنين

— نعم

تورد الوجه الرقيق ونظرت العينان الزرقاوان اليه من خلال هدبهما وقالت صاحبتهما

— انه صديق حميم لى . ويستحق المحبة لأن أملاك السوق فى امكتلند تجاور املاكك

وتبسم راف وقال

— آه يلوح لي أنك تعرفين كل شيء

— بلا مراء . ان هذا مدون في الدليل الخاص باشراف البلاد

— حقا ؟

ضحكت الفتاة وضربته بمروحتها في رفق ثم سألته قائلة

— هل أنت سليم النية كما تبدو حقا ؟

فأكد لها قائلا

— واكثر

فاجابته الفتاة على الفور قائلة

— هذا لا يمكن

ثم لزمت الصمت هنيهة وسألته قائلة

— هل تعتقد انهما نداز ؟

فسألها راف قائلا

— من ؟

فاجابته الفتاة وهي تحدق النظر اليه قائلة

— اللادي مود وسنبورن طبعا

كان راف سليم النية ، ولكنه لم يكن من السذاجة بحيث يستسلم لفتاة مثل مداين دسبار مهما بدت عليه دلائل البساطة . نعم أحس الشاب كأن يداً ثلجية أمسكت قلبه وكأن كابوسا سقط عليه فكاد يخمد أنفاسه ولكنه عرف كيف يتمالك عواطفه ثم يبد أقل اشارة ثم ملأ كأسها وكأسه قبل أن يجيبها قائلا

— اذن تظنين أنهما سيقترنان ؟

ـ هذا مايقوله جميع الناس . وإذا لم تكن اللادي مود خطبت

له فسيتم ذلك فى المستقبل القريب . وقد تناول هذا الحديث منذ زمن بعيد وهمافى الواقع ندان وفوق ذلك لا يجهل أحد أن اللورد سنبورن مفتون بها .

فقال راف

ـ فى وسعي أن اعتقد ذلك

فاه الشاب بهذه الجملة فى برود ورزانة وبلهجة صادقة حتى أن مدلين دسبار زعمت بالرغم من ذكائها وفطنتها أنها خدعت بما رأته على وجه راف عندما دخلت اللادى مود القاعة

رأى راف بعد فترة وجيزة من الصمت أنه يستحيل عليه أن يبقى فى مكانه ويرى مود ورفيقها جنبا الى جنب فقال

ـ إذا كنت فرغت من طعامك فلنرجع

وفيما كانا عائدين الى قاعة الرقص ، ومدلين تتحدث طول الوقت وراف يصغي اليها وقد مال برأسه نحوها كما يصغي المرء الى هذر طفل اذ تبادلت بعض النساء نظرات ذات مغزى بل وجاهرت احداهن برأيها وهى تهز كتفها قائلة ان مدلين بادرت الى انتهاز الفرصة

على أن الفتاة اضطرت الى مغادرة راف بعد قليل اذ جاءها رفيق لها فسارت معه ولكنها التفتت الى راف من فوق منكبها وخاطبته قائلة

ـ سأعود واتحدث معك متى انتهت هذه الرقصة اذا شئت

فقال راف فى ابتهاج

ـ ان هذا ما أتمناه

ولكن لم تمض خمس دقائق اخرى حتى كان قد نسيها

أخذ راف يتنقل حول قاعة الرقص وقد عقد يديه خلف ظهره ،

تبحث عيناه فى جوانبها عن المرأة الوحيدة التى يريدها ، فخيل اليه انها كانت تشترك فى كل رقصة وأنها سعيدة سعادة آنستها اياه

على أنه أحس بوخزة الاحتقار من نفسه وقال لم لا ؟ إذا كانت تفكر برجل واحد فهو بلا ريب ابن ذلك الدوق الذى قالت مداين أنه سيقترن باللادى مود ، نعم تحدث معه كثير من الاشخاص وحاز بسذاجته وسلامة نيته وبوجهه الجميل وجسمه الممتلىء المعتدل ، اراء ذهبية ، ولكن العبء الذى التى على عاتقه بدأ يظهر أثره ، فرآه ترافرس ، وكان يراقبه طول الوقت ، يجلس على كرسى اعياء ويعقد يديه خلف رأسه ، فتقدم اليه فى الحال وقال

ـ لقد تأخر الوقت فهل اكتفيت ؟ اذا كان الامر كذلك فهيا بنا

فوثب راف واقفا على قدميه وقال

— اننى معك فى كل وقت . اننى اشعر الآن بما شعرت به يوم ذهبت الى النادى وراقبت لعب الورق . بل أشعر بما هو شر من ذلك

ناولهما أحد الخدم قبعتيهما وساعدهما على ارتداء معطفيهما ثم غادرا القصر . وكان راف رزينا هادئا ينظر الى الامام مباشرة على عكس ترافرس الذى كتم انفعاله وسروره فى نفسه . والواقع كان الشاب متورد الوجه ، تلمع عيناه بنور غريب ولا عجب فقد ذاق الليلة حلاوة دخول الهيئة الاستقراطية التى طالما املغ نفسه أن له الحق فى الانتماء اليها . وقد وجد بفضل أخلاقه الطيبة ووجهه الوسيم شيئا من الترحيب ورقص كثيراً مع سيدات من طبقات راقية بلا مراء ، وفوق هذا وذاك رقص مع اللادى مود التى عدها ، مثل راف ، اجمل من ضمتهن هذه الحفلة من السيدات . ولما كان ترافرس ، مثل غيره ممن هم فى

فى مركزه ، يفتتن بما يجده تعيد المثل وكانت مود قد شغلت الركن الاول من رأسه وتخيلاته فانه لم يجرأ يرفع اليها عينيه لانه كان مثلها مثل الاقذار الملقاة على جانب الطريق من نجوم السماء . ولكن ماالقول اذا كان لورد سترانفير ... كما يجب أن يكون ... ؟

لما خطرت بباله هذه الفكرة ، الفكرة التى لا تفتأ تتردد فى رأسه نظر الى الشاب الذى يسير بجانبه وأحس كأن سهما من الكراهية والبغضاء قد اخترق قلبه . على أنه قال بعد صمت طويل

ـ لعلك قد تمتعت بالرقص ؟ يلوح لى انك اكتسبت أصدقاء عديدين

فقال راف وهو شارد الفكر

ـ نعم . لقد اشتهرتم ياأهل لندن بشيء واحد وهو انكم لا تستحون ولا تعرفون حدا تقفون عنده

ابتسم راف عند ماذكر مدلين دسبار ثم عاد فقال

— لعلك تمتعت بوقت جميل ؟

فقال ترافرس

— تمتعت بوقت جميل جدا فقد رقصت مع عدد كبير من السيدات الجميلات . لقد رأيت كثيرات منهن الليلة

فقال راف وهو لايزال شارد الفكر

— هو ماتقول

فقال ترافرس فى غير اكتراث

— ولكنى لم أر بينهن من تحاكي اللادى مود ملاحة ورقه

فقال راف وقد أفاق من سباته هذه المرة

— هو ماتقول . أتدرى ياترافرس انى حسدتك عند ما رأيتك

ترقص معها ؟ اخبرني هل استطيع أن أتعلم الرقص الآن ، أو هل تعتقد أن هذا لايكون الا في الصغر

فضحك ترافرس وقال

— كلا بل في وسعك أن تتعلم بسرعة . ولكن عدداً كبيراً من الناس يفضلون عدم الرقص في هذه الايام

— نعم رأيت جماعة منهم جالسين بجانب الجدران ، ولكن يلوح لى انك تتمتع بتسلية اعظم إذا اشتركت فى الرقص نفسك

وكانا قد وصلا الآن الى زاوية ميدان بلجريف فقال راف

— هل تأتى لنتناول كأسا وندخن سيجارا ؟

فاجابه ترافرس قائلا

— كلا شكرا ، لقد مضى الوقت . سأسير معك حتى الباب لانه يلذ لى المشى فى الهواء بعد الفترة التى قضيناها فى قاعة الرقص الحارة

فامن راف على حديثه قائلا

— هو ماتقول

لم يكد يبلغ الشابان نقطة تبعد نحو مئة خطوة من باب القصر ، حتى شاهد ترافرس شبح فتاة تسير بخطوات بطيئة بجانب الافريز من الناحية الاخرى من الميدان . وكانت مولية ظهرها نحو ترافرس ولكنه رأى شكلها مألوفا لديه فاخذ يراقبها في تفكير ، إلى أن بلغت الفتاة زاوية الميدان فحولت وجهها فرآها تحدق النظر الى « كلارندون هوس » ولم تلبث أن حولت عينيها اليهما فلما رأتهما وقفت فجأة ثم تحولت ثانية وسارت فى الجهة المضادة

صعد راف درجات السلم ودق الجرس ولم يكن قد لاحظ الفتاة

حيي ترافرس باحناء رأسه وبقوله عم مساء ثم دخل القصر . فتحول ترافرس بسرعة وجد السير حول الميدان ولم يلبث أن التقى مع الفتاة وجها لوجه كما كان يرجو ويتوقع

وقفت الفتاة ثانية عند رؤيته وترددت لحظة ثم حولت وجهها جانبا وسارت فى طريقها مسرعة ولكن دار ترافرس على عقبه ولحق بها ثم رفع قبعته وخاطبها قائلا

— هل تريدين مخاطبتى ؟

وقفت الفتاة وجفلت قليلا الى الوراء ثم نظرت اليه بوجه متورد وعينين لامعتين واتفق ان سقط ضوء المصباح فى الشارع على وجهها تماما فتفرس ترافرس فى وجهها بدقة فرأى أن صاحبته غريبة لاتشبه أهل لندن وانها بلا مراء ليست من متسولات الازقة والشوارع فحار فى أمره فسألها بلهجة رقيقة قائلا

— هل تريدين مخاطبتى ؟

فاجابته الفتاة فى خوف مقرون بجرأة

— كلا . كلا لا أريد

فتبسم ترافرس وقال

— تقولين كلا ؟ اذن كنت تريدين مخاطبة السيد الذى كان معى ؟

ذهب تورد وجهها وابرقت عيناها ولكنها ارختها وعضت على شفتها وقالت بلهجة قاسية وانفاس مضطربة

— لاادرى ماذا تعنى اخبرنى ، باى حق تطلب الى الوقوف وباى حق تخاطبنى ؟

لمعت عينا ترافرس ابتهاجا لاعجب فقد لاحظ ان صوت الفتاة

وزمجرتها ولهجتها تشبه صوت راف وزمجرته ولهجته ، ولم يلبث ان ذكر فى طرفة عين ان راف كان قد اخبره عن فتاة معينة فى محلة حنة الراقصة — فتاة اسمها فيفى — فهل يمكن ان تكون هذه الفتاة هي فيفى؟

قال ترافرس بلهجة أرق من الاولى

— يحزننى جداً إذا كنت قد ظهرت بمظهر الخشونة والتطفل. لقد شاهدتك مساء اليوم خارج المنزل ورأيتك ترجعين فجأة كأنك لا تريدين ان يراك أحد منا — لان صديقى كان معى كما تذكرين — ثم رأيتك الآن كأنك تنتظرين أحداً فلما وقعت عينك علينا تحولت كما فعلت فى المرة الاولى تماما فزعمت بطبيعة الحال انك تريدين مخاطبة واحدمنا فى أمر يهمك .

وقفت الفتاة تحدق النظر الى وجه الشاب فى ارتياب وجرأة، وقد شددت يدها القبض على ثوبها كأنما تريد ان توقف دقات قلبها وأخيراً قالت وهي تحاول الابتسام فى استخفاف

— انك ماهر ... ماهر جداً . ولكن إذا كنت أريد ان اخاطب أحداً فانه ليس انت . اسمع، اننى اكلفك مشقة لاهتمام بشئونك الخاصة. أننى لا اعرفك ... وأنت لا تعرفنى ...

فرفع ترافرس قبعته وقال

— معذرة

وكان قلب الشاب يخفق ولكن بحالة غير حالة الفتاة وعلى ذلك لم يلبث ان قال

— تقولين أنى ماهر ، فهل تزعمين أنى ماهر بحيث استطيع ان اخمن ما اسمك ؟

فقالت الفتاة وقد ثار استياؤها وخوفها

ـ اسمي ! ماشأنك باسمي دعنى فى طريقى

وكان ترافرس قد تقدم أمامها خلسة فرفعت الفتاة يدها كأنما تريد دفعه بعيداً عنها ، فامسك اليد التى ارتفعت اومال نحوها ثم قال بصوت خفت

ـ هل اخمن ؟ هل اسمك ... فيفى ؟

الفصل الثالث عشر

الاغراء

هي ... فيفى ؟

وقفت الفتاة جامدة فى مكانها . وكانت حمرة الاستياء قد غادرت وجهها وتركته الآن شاحباً تعلوه صفرة تشبه صفرة الموت ، وتجلت دلائل الخوف والدهشة فى العينين اللتين ارتفعتا اليه على حين راح ترافرس تستجمع قواها كأنما تجفل من صدمة حلت بها . والواقع ان الفتاة فى النهاية وهى تلهث

ـ من أين علمت ... ؟ من اخبرك ... انك غريب لامعرفة لى بك

فقال الشاب بلهجة رقيقة ولكنها كانت تنم على ان صاحبها يشعر بأنه يملك زمام من يخاطبه

ـ ولكنك لست غريبة لدى لأنها تدعى فيفى وعلى ذلك ماأسمك الآخر ؟

فقالت الفتاة وهى لاتدرى كيف انقادت بقوة مغناطيسية

ـ ...له

فقال ترافرس كأنما سمع الاسم من قبل ثم نسيه

ـ آه ، ويلد . انهما اسمان جميلان : فيني ويلد

كرر ترافرس الاسمين بلهجة رقيقة ولكن كان في لهجته ما أرسل الدم الى الوجه الشاحب ثانية فارفت عيناها وعضت على شفتها السفلى كأنما تناضل سورة تملكتها فجأة وأخيرا سألته قائلة

ـ [illegible] ماذا [illegible] ؟ اعلم ان ليس لك حق في ايقافي والتحدث معي [illegible] ليس لك أي شأن معي

[illegible] وقال

ـ ولكن أظن أن [illegible] معك شأناً . [illegible] قبل كل شيء الاهتمام [illegible] فتاة [illegible] الجسم [illegible] على المرء [illegible] آخر [illegible] هل لك أن [illegible] ؟ اذ [illegible] بهم امرنا . [illegible] أغلق [illegible] على [illegible] من هذا الطريق [illegible] أن تتحدث [illegible] لا [illegible] نتحدث قليلا [illegible] ؟

[illegible] الفتاة [illegible] الجبين [illegible] مثل [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أنها ستنمو وتكبر حتى تصير ذات أثر فعال

أخيرا سأل ترافرس الفتاة بلهجة الابتهاج قائلا

ـ الآن خبريني عن كل شيء

فسألته بلهجة عنيفة قائلة

ـ اخبرك عن ماذا ؟ اسمع ياسيد . اذا كنت تزعم انك تستطيع أن تملك زمامي وتكرهني على أن اطلعك على أشياء لاأريدأن تبوح بها فقد ارتكبت خطأ عظيما . لست من هذا الطراز ، ولست طفلة

فاجابها ترافرس على الفور قائلا

— ومع ذلك كانت طفلة كما تعلمين ياعزيزتي . ان جميع النساء أطفال متى كان حظهن مثل حالك . ولكني سأخبرك السبب الذي سيدعوك الى أن تفتحي قلبك لي ...

حدقت الفتاة في وجهه وضحكت ضحكة ملؤها التحدي والسخرية قائلة

— افتح قلبي !!

— ستفتحين على كل شيء لأني اعتقد يابنيتي العزيزة ربما أكون لك خير صديق

بدت الفتاة صدى كلمات الشاب وقد برقت عيناها ببريق الخوف والكره قائلة

— أنت خير صديق لي ! لماذا تكون لي صديقا ؟ لست بالصديق . انى لا أحبك ولا أحب صحبتك ولم أشعر بميل من نحوك منذ اللحظة الاولى التي وقعت فيها عيناي عليك

هز ترافرس رأسه أسفا وقال

— هذا مما يرثي له . ولكن هذا محال منك ياعزيزتي فيفي ...

فقاطعته الفتاة قائلة

— لا تخاطبني ولا تدعني باسم « عزيزتي فيني » إنك جريء ياسيد كيف تقدم على هذه الجرأة

— ان اسمي ترافرس وسأقص عليك كل شيء عن نفسي في الحال .. أو كل شيء تقريبا يجب أن نتبادل الثقة يافيني وستجدين انك لا تميلين الى فقط بل انني سأكون لك حقا الصديق الوفي . فلنشرع الآن من البداية فاخبريني لماذا غادرت محلة «حنة الراقصة» وجئت الى لندن؟

وقفت الفتاة لحظة وحدقت النظر اليه ثم قالت

— هل تعلم ... ؟

ثم سكتت فقال ترافرس

— انني اعرف من انت ومن أين جئت بالضبط .

فقالت الفتاة على كره منها

— هل اخبرك ؟

— إذا كنت تعنين لورد سترانفير فاني اقول لك نعم . فقد اخبرني كل شيء عن حياته الماضية وحياة الفتيان في «حنة الراقصة» واخبرني عنك بطبيعة الحال . ولعمري رأيت مما تجلى في عينيه انك أنت صاحبة المكانة الاولى في قلبه وقد تحدث عنك طبعاً

تورد وجهه و ارتجفت شفتاها ثم لزمت الصمت دقيقة واخيراً قالت بصوت يكاد لا يسمع

— تحدث عني كما ... كأنه لم ينسني ... كانه يريد ان يذكرني ... ويتحدث عني ؟

وكانت حديثه قد زادت رقة فرفعت اليه عينيها الرماديتين وقد ...

فيها دلائل التوسل والاستعطاف فاجابها ترافرس قائلا

ــ نعم بلا ريب . انك لاتنصفين نفسك ياميني ، ولا تنصفينه ، ان الورد ستراتمبر من خيرة الرجال الذين لاينسون اصدقاءهم القدماء لاسيما صديقة حميمة مثلك

فكرت الفتاة في هذه الاقوال وهي لاتزال مطرقة الرأس متوردة الوجه ، وأخيراً قالت بلهجة رقيقة

ــ نعم ، ان ترافرس ليس من الذين ينسون اصدقاءهم القدماء

ولكنها لم تلبث ان تحولت اليه وسألته قائلة

ــ ولكن اخبرني من انت ، الوح لي انك تعرف كل شيء عنه . فمن أنت ، من ذوي قرباه ؟

اصاب السهم الذي أرسلته حزاقا المرمى ، فتردد ورجهه ونأى به جانباً ثم لزم الصمت هنيهة وأخيراً قال

ــ اني صديق حميم للورد ستراتمبر بل اتوقع اني سأكون ...ه

فقالت الفتاة بلهجة الاحتقار

ــ خادم !

ــ شيء من هذا القبيل ولكني صديق له ايضاً . هل تأذنين ... ان يحدثني عن ميني الصغيرة اذا لم اكن له صديقاً ؟

فقالت الفتاة مسرعة

ــ هل دعاني بهذا الاسم ؟ تقول هل دعاني بهذا الاسم ؟

ادرك ترافرس خطأه فقال

ليست هذه الكلمات بالضبط ولكن من السهل على المرء أن يقرأ ما بين السطور حتى كان الرجل يتحدث عن المرأة ... وعلت

الى هذا القرار ولكن أرى اننا نضيع الوقت سدى ، فاخبريني لماذا غادرت محلة « حنة الراقصة » وكيف غادرتها ؟ لاتترددى. لم ألق عليك هذا السؤال لاطفاء رغبة فى نفسى ولكن لدى سببا آخر لذلك

فقالت الفتاة فى شيء من التأفف

— ليس في الامر سر . كانت لى شركة فى احدى الحفر فاصبنا مقداراً من الذهب فاخذت نصيبي من [illegible] فسئمت المحلة والحياة فيها بل وكل شيء وقد [illegible] الى انكلترا [illegible] فاتيت . هذا كل ماهنالك .

فسألها ترافرس فى تأدب قائلا

— وما رأيك في انكلترا ؟ انها بلاد جميلة أليس كذلك يافيني ؟

نظر الشاب الى ثوبها الحقير نظرة ثم استأنف حديثه فقال :

— هذا إذا كان لديك مبلغ كبير من المال . هل كان نصيبك من المال كبيراً ؟

فاعترفت الفتاة فى شيء من التبرم قائلة :

— كلا . لم يزد نصيبي [illegible] نفقات سفرى الى هنا .

— هل انفقت كل [illegible] لكى تشاهدى انكلترا [illegible]

[illegible]

تراقبينه أيضاً عندما عدنا الآن . هل كنت تريدين مخاطبته يا فيني ؟

أبرقت عينا الفتاة وأجابته في حدة قائلة :

— كلا . انما أردت فقط ... أن أراه . كان صديقا حميا لي . أظن أن بلادكم هذه بلاد تقدس الحرية ففي وسع المرء أن يرى صديقا قديما له دون أن يتعرض له البوليس أو يضايقه رجل مثلك ؟

— ان هذه ياعزيزتي فيني بلاد يستطيع فيها الهر أن ينظر الى الملك . هل جئت كل هذه المسافة لكي تلقي نظرة على رفيقك القديم انني أعد هذا نبلا منك واخلاصاً وتفانيا . لقد أثرت أخلاقك هذه في نفسي أيما تأثيرياعيني . أظن انك ستعودين الى ذلك المكان الموحش ثانية ؟ هل قنعت نفسك بالقاء هذه النظرة البسيطة على صديقك القديم وهو سائر في الشارع ؟

فقالت الفتاة بلهجة التحدى

— نعم . سأعود ثانية . ولكن ليس من شأنك أن تعرف ماأنوى عمله ... اصغ الى ، لقد سئمت نفسي هذه المضايقة . يجب أن نفترق هنا . لعلي لااسحق قلبك إذا قلت لك يامستر ... ترافرس انني اتمنى أن لاتقع عيناى عليك مرة أخرى

فاجابها الشاب في ابتهاج قائلا

— انك تسحقين قلبي اذا فعلت ياعيني ولكنك لا تقولين هذا القول . ثقي انما سنفترق الى مدة وجيزة وانك سترينني كثيراً . لقد خاب رجائي فيك ياعزيزتي فيني . لما رفعت عيناى على وجهك لاول مرة قلت في نفسي « هاهي فتاة جميلة ذات أخلاق » اعني ذات اخلاق سامية لانني اعرف طبعاً أن اخلاقك العامة بعيدة عن كل لوم

مكثت الفتاة لحظة لاتستطيع ادراك معنى قوله ولكنها لم تلبث أن تورد وجهها وحدقت عيناها النظر اليه فى سخط ، على حين استطرد ترافرس فى حديثه قائلا

— لقد خيبت فيك ظنى لانك لم تعملى كما كنت أتوقع ، والحقيقة انك تسلكين مثل ... مثل طفلة صغيرة

أبرقت عينا الفتاة وأجابته قائلة

— لايهمنى ماتظن ولا يهمنى شىء يتعلق بك فانت لا شىء لدى وسأبعدك عن فكرى على اثر مغادرتى اياك ، وسأدعك عند نهاية هذا الطريق

وكانا قد وصلا الى مقعد فجلس ترافرس عليه اعياء وأشار الى الفتاة أن تجلس بجانبه ولكنها هزت رأسها ثم وقفت وقد حولت وجهها عنه وشددت الضغط على يده التى ارختها بجانبها ، فقال الشاب

— خير لك أن تجلسى . ان الجو دافىء وستجد راحة فى الجلوس حتى نفرغ من حديثنا . حسنا كما تريدين أما أنا فانى تعب لانى قضيت الليلة فى الرقص فقد دعيت أنا ولورد ستراتفير الى حفلة دعى اليها معنا عدد كبير من النساء الحسان وكان من صديقات اللورد ستراتفير . يا له من شاب جميل ، ألا تعتقدين ذلك ؟ لقد حدثت حوله ضجة الليلة وسيكون محبوبا هنا فى لندن كما كان فى حفلة « دوقة الرانصة » . ان له تأثيرا غريبا فى القلوب ، أليس كذلك يافيفى . ولعمرى لابد أن [illegible] عادت كثيرات من هؤلاء السيدات الى منازلهن الليلة يحلمن به [illegible] ولا أخالك تجهلين ماهية تلك الاحلام

وكانت الفتاة لاتزال مائلة عنه بوجهها [illegible] الدم يصعد

اليه ورأى بريق الغيرة يلمع في عينيها اللتين أرختهما ولاحظ كيف كانت يدها السمراء تنقبض وتنبسط ، فاستطرد الشاب في حديثه في الحال كأنما يناجي نفسه قائلا

ـ ان اللادي مود معجبة بلا ريب . آه لقد نسيت . ربما لا تعرفين من هي . انها ابنة الوصي عليه وهو يعيش معهم في منزل واحد . ان اللادي مود شابة مليحة جدا . وهذه الحقيقة لا يسعك الا الاعتراف بها متى رأيتها

فقالت فيني على الرغم منها

— لقد رأيتها . هل ... هل كانت هناك الليلة ؟

فقال ترافرس في رفق

— نعم كانت هناك ، وكانت أجمل امرأة في القصر كله

عادت فيني فقالت في امتعاض

ـ لقد رأيتها . رأيتها أثناء خروجها من القصر

ـ وأعجبت بها طبعاً ؟ أتعلمين أنه يستحيل على المرأة أن [illegible] بأخرى ولكني واثق من أنهم لم يخطئوا . نعم [illegible] لورد [illegible] بعروس جميلة

تحركت فيني [illegible] وأخرى [illegible] ضعف [illegible] فجلست في المقعد [illegible] الى [illegible] الجالس بجانبها [illegible]

ـ هل سيقترنان ؟

[illegible]

ـ هذا ماأعتقده . هذا مالم ...

حولت الفتاة عينيها اليه قليلا وسألته قائلة

ـ مالم ماذا ؟

ـ مالم تكن هناك روابط أخرى . مالم تكن هناك ... صديقة قديمة ... فى محلة «حنة الراقصة» يهتم بهاالىحديحافظ معهعلى ولاتها. فهل توجد تلك الصديقة يافيني ؟

بللت الفتاة شفتيها بريقها والقت عليه نظرة سريعة وقالت وهى تجر على نواجزها

ـ هل تعنيني أيها الشيطان ؟ انك على خطأ. ليس بيننا شيء ... ولم يكن .. أننا صديقان ليس إلا .. دعنى أذهب

وضع تراورس يده على ذراعها ثم حملها على الجلوس ثانية فى غير خشونة . ثلا

ـ احلسى قليلا يافيني . اظن انك تظلمين نفسك بتواضعك هذا واعتدالك الذى تجاوز الحد . لست واثقاً كل الثقة انه يعدك صديقة قديمة فقط

تحولت الفتاة اليه عندئذ وارتعدت شفتاها . وكانت الفتاة تذكر يوم سافر راف من المحلة كيف ضمها الى صدره وتذكرت القبلة التى وضعها على شفتيها ، تلك القبلة ، وهي الاولى منه ، التى كانت عزاءها الوحيد منذ فراقها والتى عاشت عليها واقتاتت بها كما يقتات الاعرابى فى الصحراء بحفنة من التمر وجرعة من الماء تصدان عنه غائلة الموت ولم تلبث ان سألت نفسها قائلة :

هل حقاً ان راف يهتم بها .. وهل إذا بقى لمحلة ولم يصب هذه فى

الثروة التى جاءته فجأة ، كان يتعلم كيف يحبها ؟

تنهدت الفتاة عند مادارت هذه الافكار بخلدها لانها أدركت انه مهما تكن الفرصة التى تتاح لها للفوز بحبها لو بقى بجانبها ، فان هذه الفرصة قد ضاعت الآن . فقد رأت اللادى مود واكبرت من ملاحتها والواقع اثرت ملاحتها الفائقة فى قلب الفتاة الخشنة التى جاءت من البرارى والقفار كما لو كانت فينى من النساء اللائى قد خبرن شئون العالم

ايقنت فينى ان لا أمل لها فى منافسة فتاة حسناء كاللادي مود ، فدفعت شعرها عن جبينها فى ملل وسآمة وقالت

ـ ليس فى حديثك هذا شىء . لم يكن راف مولعاً بى فى محلة «حنة الراقصة» بالطريقة التى تظنها ...

فقال ترافرس فى رزانة

ـ ولكن البعد يصلى القلب ناراً ياعزيزتى فينى . ان راف كما تسمينه ، من الرجال الذين ..

فقاطعته الفتاة فى ازدراء شديد قائلة

ـ لاتكلف نفسك مشقه ولاتخبرنى عن راف ومن أى طراز هو . انني اعرفه خير منك ، كل طباعه وكل عواطفه

ـ إذن تعرفين ان اللورد سترانفير ليس بالرجل المتقلب مالم ... يكن هناك اغراء قوى لايمكن مقاومته . الآن اعترف ياعزيزتى فينى بان لك منافسة قوية ولكن لاتيأسى واذكرى أنى صديقتك وانى فى جانبك ومن انصارك

دارت الفتاة على عقبها وأوجهته بجبين مقطب وعينين تجلت فيهما دلائل الشك والارتياب وسألته قائلة

— ماذا تعنى ؟ ولماذا تكون فى جانبى ومن النصارى ؟ لم ترنى قبل هذه الليلة وليس هناك سبب بدعوك الى أن تكون « صديقا » لى كما تدعو نفسك ، ولا ما يحملك على أن تشد أزرى ثم أننى أمقتك وأمقت رؤياك ، ولا أدرى لماذا ولكن ربما كان السبب ابتسامتك هذه الباردة ، وتلك النظرات المريعة فى عينيك السوداوين اللتين تشبهان جذوتين من نار حتى وأنت تبتسم اخبرنى يا مستر ترافرس ، اذا كنت تريد أن تلعب دوراً صريحا فاشرحه وقل لماذا وقفت الليلة فى طريقى ولماذا تكاد تسلبنى صوابى بحديثك هذا عن راف . . . وعنى ؟

مال ترافرس فى مقعده الى الوراء ومد بصره الى الامام ، فوجد فى الفتاة التى أمامه شيئا يكرهه على احترامها والاعجاب بها ، لان شر الرجال وأحطهم يضطرون مرغمين على احترام ضحاياهم متى وقفوا أمامهم فى شجاعة ورباطة جأش . والواقع أحس ترافرس بما يدفعه الى الاعتراف لها بحقيقة حاله فيخبرها أنه أخو راف من أبيه ولكنه ضبط عواطفه قائلا أن هذا سر يجب أن يظل مكتوما فى صدره فلا يبوح به ولكن استقر رأيه على أن يطلعها على شىء من الحقيقة فقال

— ان سؤالك هذا عدل وانصاف . نعم فى وسعى أن العب دورى فى صراحة وجهراً وسأفعل ذلك . سأضع جميع أوراقى على مائدة اللعب أمامك ومتى رأيتها ادركت السبب الذى حملنى على أن اتطفل عليك الليلة ، وأدركت لماذا اكرهتك على أن تضعى أوراقك على المائدة كذلك . قد يكون فيما سأقوله ما يثير عجبك ودهشتك ولكن اعلمى يا فينى أننى أريد أن يقترن ستر انفير بصديقته ورفيقة صباه — أريد أن يقترن بك

الفصل الرابع عشر

الطعمة

— يقترن بى . . . لماذا ؟

— لانه اذا اقترن بك لا يستطيع الاقتران بتلك الفتاة الجميلة وأعنى بها اللادى مود

أبرقت عينا فينى وقالت

— هل تريد أن تأخذها لنفسك ؟

قبل ترافرس الاقتراح وقال فى هدوء

— بالضبط . لقد أصبت المرمى لاول وهلة

صاحت فينى دهشة واحتقاراً قائلة

— أنت ؟ لماذا تقترن بك ؟

سكتت الفتاة هنيهة وهى لا تزال تنظر اليه ثم عادت فاستطردت فى حديثها بلهجة بطيئة قائلة

— لا أجهل أن بعض الفتيات يعدونك وسيم الطلعة وقد يملن اليك ، ولا أنكر أنك جميل تتحدث بطريقة جذابة ، ولكنك تقول انك خادم راف أى أنك لست ذا شخصية تذكر . ثم هى سيدة عظيمة فقد شاهدتها ترتدى ثيابا فاخرة أنيقة وتتحلى باللآلئ الغالية والجواهر النفيسة — أى نعم انها سيدة عظيمة من الطبقة التى ينتمي اليها راف الآن ، فلماذا تريد الزواج بك ؟

ثم ضحكت فقال الشاب

— هذا قول صريح منك يا عزيزتى فينى أرى بعض المشقة فى الجواب عليه فى مثل هذه الساعة من الليل ، ولكنك نسيت يا بنيتى العزيزة انها سيدة عظيمة فى وسعها أن تتنازل دون أن تخسر شيئا وعلى كل حال بسطت لك السبب الذى حملنى على محادثتك ، وأنا عاشق للادى مود مغرم بها وقد صممت على الزواج بها لذلك أريد أن يفسح اللورد ستراتفير لى الطريق ، وهذا هو الذى أريده منك

أطرقت الفتاة هنيهة ثم قالت بصوت هادىء

— هل تريد أن أتى بينه وبينها ؟ لنفرض أننى رفضت . ثم لنفرض أننى . . . أميل اليه الى حد أن اخلو له الطريق . . . ولا أود أن اشترك فى الامر ، فماذا يكون ؟

ـ اصغي الى يا عزيزتى فينى . يستحيل على أن أتصور رأيا أشد سخافة من رأيك هذا . اذ لا توجد امرأة مولعة بحب حبيبها مثل ولعك بحب راف تستطيع أن تقف جانبا . اننى أعرف النساء

فأجابته على الفور وبلهجة جافة قائلة

ـ ولكنك لا تعرفنى : انى لا اتردد عن قطع يدى ـ ومدت ذراعها وحدقت النظر اليه ـ اذا كان فى قطعها ما يجعل راف سعيدا

فقال ترافرس وهو يبتسم

ـ لا اشك فى قولك هذا ولكن عملا سخيفا كهذا لا يجعله سعيداً اكثر من وقوفك جانباً وترك اللادى مود تفعل ذلك . معذرة يا بنيتى العزيزة اذا قلت لك انك لاتفقهين شيئاً من شئون العالم أو من أمور الرجال الذين يعيشون فيه . ثقى أنه إذا اندفعت اللادى مود وراء جهالتها واقترنت باللورد ستراتفير فسيعيش كلاهما فى تعاسة وشقاء

فسألته على الفور قائلة وقد اضطربت أنفاسها

— كيف تعنى ذلك ؟

فاجابها ترافرس قائلا

— ألا ترين ؟ انى أقول فى كل جرأة انه لا يوجد شخصان لا يليق أحدهما بالآخر مثل اللادى مود ولورد سترانفير ، فاللادى مود التى رأيتها ياعزيزتى فيفى ، من المتصرفات في الحضارة والمدنية أو بعبارة اخرى ـ وهنا أسأت المعذرة ـ على عكس حالتك وما أنت عليه الآن ...

فقاطعته الفتاة بلهجة الاستياء قائلة

— احفظ لسانك ياهذا . . .

فقال الشاب فى تؤدة

— لا أقصد اثارة النزاع بيننا وانما أردت أن أقول لك انها على نقيضك فى كل شيء . اما أنت وراف فكلا كما يشبه الآخر فى أخلاقه وشعوره ، وفى أخلاقك ... أخلاق راف وأطواره ما يلقى سحابة على شمس سيدة مهذبة راقية كاللادى مود . ولعمرى لا يمضى شهر العسل حتى تكسف شمسها وبحتجب ضياؤها نعم مالت الفتاة الى وجهه الجميل ونهوره وبسالته التى تأسر قلوب كثير من النساء . ولكن لا تنسى ان وراء الوجه الجميل ، وذلك الجسم القوى الممتلىء ، يوجد المعدن الخشن الغليظ الذى تربى في القياف والقفار ، هنا فى محلة « جنة الراقصة »

دارت الفتاة بوجهها نحوه ثانية وأبرقت عيناها ثم قالت فى ازدراء وسخرية لا حد لها

— لو كان هنا ما نطقت بهذه الكلمات . مخافة أن يسحقك سحقا

— ربما ما نطقت بها ولكننا — أنا وانت منفردين هنا ، ثم لا تنسي يا فيني اننا نلعب باوراقنا « على المكشوف » كما يقولون . فراف الذي فتك بحبه ليس الا معدنا أو راعي بقر ، شاءت الاقدار بسخريتها ان ترفعه الى مركز لا يصلح له مطلقا . لو عندي لا ينتصف شهر العسل حتى تمل اللادي مود عشرته وتبلغ روحها التراقي وتزول عن عينها الغشاوة . كفى ، انك لا تجهلين ماذا اعني . انك تعلمين انه سيكون تعيسا شقيا مثلها وانه لا يقضي نصف شهر العسل حتى يرجع ببصره الى الوراء ، حتى يمل اللادي مود كما تمله ، حتى تعود اليه ذكرى الفتاة الصغيرة التي تركها في محلة حنة الراقصة وتتوق نفسه شوقا اليها

وكانت الفتاة قد جلست على المقعد ثانية وهي تصغي الى الصوت الرقيق ، فاخذت يداها تشددان الضغط لا ن احداهما على الاخرى وأرخت عينيها وأرجفت شفتاها . وكانت رقة الصوت وهدوءه وثباته هو الذي أثر في نفس الفتاة فقالت اذا سمح قوله — وهذا ما يتم عليه صوته — فان من الخطأ بل من الاحرام ان تقف جانبا

وكان عقرب الغيرة من اللادي مود لدغ قلب فيني . ولا عجب فانه لما تكلم ترافرس عن شهر العسل تصورت راف والفتاة الجميلة معا منفردين — زوجا وزوجة ! فاصابتها قشعريرة وأحست بقوة خفية تدور صورتها في نفسها وتوحي اليها قائلة : انك تحبينه مثلها بل أكثر منها انت أول من أحبته فلك عليه حق اذا ... اذا كان زواجه بها سيجعله شقيا تعسا

قال ترافرس بعد فترة وجيزة من الصمت

— ها ترين انني على حق واني أكون لها خيرا منه بكثير

فحملت عليه بصوت خافت قائلة

— انت . . . . ليساعدها الله هي أو أية امرأة تقترن بك

ضحك ترافرس وقال

— هذه قسوة وظلم ، ان كراهيتك لي تدعوك الى التحامل علي ، ولكن لاخرج أنا من مدار البحث لانه لا أهمية لي في الوقت الحاضر . والآن يا ابنتي بعد أن أستقر الرأي بيننا على أن ستراتفير اذا اقترن بك يكون أسعد جدا مما لو اقترن باللادي مود ، علينا أن نبحث كيف تتحقق غايتنا ويتم زواجك به . لاريب ان الزواج لا يتم اذا تقدمت اليه والامور على ما هي عليه الآن من الدقة . . .

صعد الدم الى وجه الفتاة وقالت بصوت خافت

— لا اريد أن أعمل ذلك . لم أقصد محادثته ولا أردت أن يعلم بوجودي هنا في انكلترا وانما أردت أن اشاهده ، وان أطمئن على صحته . . . وأن أراه سعيدا

فقال ترافرس

— فرأيت انه بعيد كل البعد عن السعادة اعلمي يا عزيزتي ذيي انه توجد فتاة واحدة في هذا العالم تستطيع أن تجعله سعيدا ، وهذه الفتاة هي انت . لك أن تأخذي هذا القول مني قضية مسلمة وحقيقة ساطعة لا تحتاج الى برهان . والآن وقد خاطبتك على الصراحة وادرك كل منا غاية الآخر فاني أطمع في أن تعديني صديقا لك وان تسترشدي بنصائحي في المستقبل . ونصيحتي اليك في الوقت الحاضر هي أن تسترى حركاتك فلا تقدمي نفسك الى راف ولا تظهري في ميدان لمعرفة أو تحاولي اقتفاء أثره فقد كاد يراك الليلة لو لم أقف حائلا في وجهه .

وهو بلا ريب يرحب بك ويبتهج برؤياك

فتمتمت فيني قائلة

— نعم أن رافـ ليس من الرجال الذين يتجاهلون اصدقاءهم القدماء ولكنى لا أريد

فقال ترافرس في دهاء

... انه يبتهج برؤيتك ويرحب بك كصديقة ... ثم ... ثم يصر على أن يقدمك الى اصدقائه الاغنياء الجدد

ألقى ترافرس ... الرث الحقير نظرة ذات مغزى ثم ابتسم فتوردت وجهها وعضت شفتها فقال ترافرس كما لو كان قد سمع جوابها

— يا للبساطة . انك فتاة ذات شمم واباء يافيني . هل تعلمين انى رأيت فيك كل هذا في اللحظة الاولى التى وقعت فيها عيناى عليك ؟ انك لا تعلمين لوقوفك وانت ... هذه ... تلك ... الفتاة واعنى بها ... ود ..

وثبت الفتاة واقفة على قدميها وقالت وهى تحز ... ا

— استاذ ... انك شيطان . انك ... بى وتجعلنى ... مثلك . ولكنك تعلم انى ... الموت على أن اجعله ... ى ... ى

... ان

... ال ...

— ...

ثم ثيابك ـ لاتظنى أنى أريد الاساءة بك ـ ولـكنى تمثلت فى رأسى كيف تكونين جميلة الطلعة اذا ارتديت ثيابا أنيقة . الان ترين كل شيء امامك جليا واضحا ، فعليك أن تخبريني ماهى حالتك المالية ؟

فقالت الفتاة وهى تلهث

— اذا كنت تزعم اننى اقبل سنتيما واحدا منك . . لعمرى اننى أفضل السقوط على الارض والموت جوعا

فقال الشاب بلهجة الاستحسان

— ياله من شمم بالغ حد الـكمال . اننى أعجب بروحك لان مثل هذه الروح تستطيع أن ترفع صاحبتها الى أى مكان شاءت . ولعمرى أنت خير من تصلح للزواج بِاللورد سترانفير ، وسوف لاتمضى شهر العسل حتى يرى فيك مايحمله على الاعجاب بك . كلا . لاأعرض عليك مالا كمنحة مني أو هبة بل ستدفعين لى مااقترضته نقدا . . وبطرق اخرى . . طرق ثمينة ، فحاولى أن تنظرى الى بعين الصداقة . . . أن تعديني صديقا حميا وتقبلى منى قرضا صغيرا .

فقاطعته فى غضب قائلة

— ولا سنتيما واحدا

هز ترافرس كتفيه وقال

— حسنا . على كل حال يجب أن تفكرى فيما عرضت عليك يجب أن نلتقي ثانية فاخبريني أين تقطنين يافتاتى

ضحكت الفتاة فى سخرية واستهزاء وهى تهز رأسها فقال ترافرس فى ارتياح

— انى أفهم السبب فى تبرمك وترددك . يجب أن نتقابل على

كل حال في أى مكان شئت ، بعيداً عن هذا المكان لانه قريب جدا من القصر

فقالت الفتاة ودلائل السرور تتجلى فى عينيها وصوتها

— لا أريد مقابلتك ثانية مدى الحياة

— لاشك فى أن هذا شعورك الليلة ولكن ثقى بأن شعورك هذا سيتغير فى الصباح ولن يغمض لك جفن الليلة يا ابنتى ، بل ستقضين ليلتك فى التفكير والبحث والتدقيق ، وسترين بعينى فكرك الرجل الذى تعشقينه زوجا لامرأة اخرى

— امتقع وجه الفتاة اذ علمت انه وصف الساعات التى تنتظرها أصدق وصف ، وتنبأ بالتعاسة التى ستكون نصيبها ، على حين استطرد الشاب فى حديثه فقال

- وعندئذ ستقولين ليتك قبلت ما عرضته عليك من صداقة ومساعدة

نهض ترافرس من مكانه فجأة ثم وضع يده على معصميها وشدد الضغط عليها وقد تغيرت حالته كلها فحدق النظر اليها وصوب اليها نظرات عينيه السوداوين كالسهام ثم خاطبها ، لا بصوته الرقيق العذب بل بلهجة جافة خشنة قائلا فى هدوء ووحشية

— ايتها الحمقاء الصغيرة ، هل يدور بخلدك أن لديك القوة التى تساعدك على المقاومة ، هل تظنين انى لا أهتم بمثلك وبمثل ذلك وانى أهتم بشئ وحدى : هل ? تحسبين انى سأصبح الفتاة التى حدثتها الليلة من مقابلتى لك ? صغيرة تقولين انى لا اصدق [illegible] مهما تكن قيمتك ? صغى لى يا ابنتى : لقد عقدت عزمى على أن تقترنى بذلك الرجل الذى يقف حدا بينى وبين المرأة التى [illegible] الآن

قردي ولكن لا ، سأقرر انا ماتريدينه . عليك أن تقابليني غدا فى الساعة التاسعة مساء فى طرف ذلك الطريق بجانب القصر الكبير . هل ترينه ؟ حسنا يجب أن تكونى هناك . . ا كراما لك وللرجل الذى تحبينه

شدد ترافرس الضغط على منكبها وهو يضحك فى وجهها الشاحب الذى رفعته اليه ثم أومأ اليها برأسه وتركها و نصرف

وقفت فيني جامدة فى مكانها كانما حولتها قبضة يده الى حجر ، وأخيراً شهقت شهقة طويلة ثم هزت منكبها فى تأفف وتألم وجلست على المقعد اعياء ولم تلبث ان غطت وجهها بيدها تحاول التفكير فى ما كان وما سيكون

ان الاسباب التى حملت فيني على مقابلة المحتة بسيطة لا تحتاج الى شرح طويل ، فقد كان كثيرا من المعدنين يعرضون عليها من وقت الى آخر أن يكون لها نصيب فى الحقول التى يشتغلون فيها . ومن الغريب أن احدى هذه الحقول اصابت ذهبا فى اليوم نفسه [illegible] نخيل الى فيني المسكينة أن [illegible]

وقد [illegible]

أن [illegible]

[illegible]

ومشاهدة [illegible]

هذه [illegible]

[illegible]

[illegible]

ذو ثروة طائلة ، فما الذى يحمله على العودة الى أميركا ؟ اذن لن تراه ثانية

ولدت هذه الفكرة روح القنوط فى نفس فيني وعصرت قلبها عصرا لا تحس به ولا تقدره الا المرأة التى ذاقت مثلها مرارة الحب ولعبت بها أعاصير الغرام ، وخيل اليها أن الحياة لا تساوى شروى نقير ولا تطاق إذا حرمت رؤيته الى الابد . فحن قلبها اليه وتاقت نفسها الى التمتع بالقليل التافه منه وهو أن تلقى عليه نظرة واحدة ولو من بعيد

والآن أتيحت لها الفرصة التى تساعدها على بلوغ امنيتها هذه فقد حصلت على المال الذى يكفى لاجتياز الاطلانتيك والوصول الى انكلترا والانفاق عليها حتى تجد عملا تقتات منه وهى تستطيع الحياة بالنزر اليسير وتقنع بكل مأوى يأويها مهما يكن حقيرا

وكانت الفتاة تعلم أنه سافر الى لندن ، وهى الوحيدة — إذا استثنينا المحامى جو — التى تعرف اسم راف الحقيقى و [illegible] فمن السهل أن تجده وعندئذ يكون فى وسعها أن تلقى عليه نظرة من بعيد ، من وقت الى آخر . ولم تكن لديها نية للتحدث معه بل يكفيها أن تراه وأن تعلم أنه بخير وأن تجد عزاءها فى رؤيته سعيداً وفى القرب منه ولو أنه لا يراها

وكانت الاخلاق المتينة والصلابة التى استطاعت فعلها أن تعيش [illegible] فى [illegible] ونهضت الآن [illegible] لم تتوان فى تنفيذ خطتها وقالت انها مسافرة فى مهمة قصيرة الاجل ثم سافرت فى أقرب وقت . [illegible] فلم [illegible] فى [illegible] من [illegible] أو الاستقبال [illegible] لأن الصدفة جرت

بينهم أن يسافر كل من أصاب منهم مالا الى الخارج لترويح النفس والتمتع بملاذ الحياة فكم سافر رجل منهم وجيوبهم مملوءة بالذهب ثم عادوا بعد قليل وكل واحد منهم صفر اليدين

ركبت فيني لحسن حظها احدى البواخر السريعة فعبرت المحيط فى الدرجة الثانية وعند انتهاء الرحلة وجدت نفسها فى لندن وحيدة لاناصر لها ولا معين ولسنا فى حاجة الى وصف التأثير الذى احدثته المدينة الكبرى فى نفس فتاة كفيني ، تربت فى احدى محلات المناجم وعاشت فى واد بعيد تكتنفه التلال من كل جانب حتى كادت تفصله عن بقية العالم وانما يكفى أن نقول انها سألت نفسها قائلة ما هذا البحر الزاخر الذى القت نفسها فيه !!

ارتبكت الفتاة وتولتها الحيرة عند ما وقعت عيناها على القصور الشامخه والجماهير العديدة والجلبه التى قامت حولها والحركة العنيفه التى لا نهاية لها . وقد ثبطت همة الفتاة وخارت عزيمتها عند مابلغت المحطة النهائيه وخطر ببالها أن ترجع من حيث أتت ، ولكن تقدم اليها أحد الحمالين فى رفق عند مارآها منفردة تلوح عليها دلائل الحزن والارتباك ومد اليها يد المعونة فارشدها الى منزل صديقه له حيث تستطيع الحصول على غرفه

كان المنزل بشارع كارولين ، من المنازل العادية ، فى حي من احياء الفقراء فلما وصلت فيني اليه نظرت الى ماحولها وشهقت شهقة طويلة كأنما كانت فى حاجه الى الهواء ثم دخلت فوجدت من صاحبة الدار اهتماما بها وايناسا فصعدت السيدة معها الى غرفة ، ولم تكن أصغر من الكوخ الذى كانت تقطنه فى « حفنة الراقصة » ولكنها كانت فى

الدور الاعلى ، تطل على اسطح منازل ومداخن لا عداد لها ، يتصاعد منها الدخان بكثرة تولدت منه سحب كثيفة كادت تختنق منها الفتاة

ترقرق الدمع فى مآ قى فينى ولكنها حبسته واستجمعت قواها وقالت فى نفسها انها الآن فى لندن فلا بد أن يكون راف فى مكان ما على مقربة منها وانها ستراه لا محالة وفى هذا عزاؤها وسلواها بعد المتاعب التى تحملتها أثناء السفر والتى تتحملها الآن فى هذه المدينة الغريبة

رقدت فينى ليلتها الاولى تتقلب فى فراشها تصغى الى جلبة الشارع وحركة المارة تحتها الى أن استيقظت في الصباح بعد فترة وجيزة من النوم ، فقامت مستمدة من ثقتها برؤية راف عزما وقوة فغادرت المنزل على أثر تناول فطورها تبغى البحث عنه . على انها لم تقض مدة وجيزة حتى أدركت بفطنتها انها لا تستطيع ان تجد راف ، وهو فى ظروفه الجديدة ، فى هذا الجزء من المدينة الغاص بالسكان . فعادت الى المنزل حيث أخذت تتحدث مع صاحبة الدار فعلمت بصفة غير مباشرة ودون أن تذكر اسم راف ، ان الاغنياء يقطنون فى حى خاص ، فى منطقة يطلق عليها ، « وست اند »

بعد ظهر ذلك اليوم نفسه غادرت فينى المنزل مرة اخرى واتجهت نحو الغرب ، وكانت تتوقع رؤية عدد من المنازل الفخمة القائمة وسط البساتين والمروج ، فرأت فعلا قصورا شامخة لدرجة غريبة ولكنها رأتها كلها فى صفوف متراصة تتخللها شوارع لا نهاية لها ، ثم رأت فينى انه يستحيل عليها ان تجد راف فى هذه الشوارع الواسعة الطويلة كما وجدت ذلك مستحيلا فى الحي القذر المزدحم بالسكان الذي غادرته من قبل

أخيرا وجدت الفتاة نفسها قرب الغروب واقفه فى زاويه أحد الشوارع تنظر فيما حولها فى يأس وقنوط حتى لفتت حالتها هذه بعض المارة فنظروا اليها فى دهشة وغرابة ، ولم تمض مدة وجيزة حتى جاءها الشرطى ، وكان يراقبها عن كثب ، ثم خاطبها قائلا

— نعم يابنيتى ، هل تبحثين عن حبيبك الشاب ؟ هل تأخر ؟

تورد وجه فينى ولكنها اطمأنت عندما شاهدت ابتسامة الشرطي تتجلى على ثغره وفى عينيه . وكان قنوطها قد بلغ حده فسألت الرجل قائلة

— لا أنتظر أحدا ولم اقترف ذنبا

ثم سكتت والرجل ينظر اليها الى أن سألته قائلة ؟

— هل سمعت .. بشخص يدعى ستراتفير

فاهت الفتاة بالاسم فى بطء فحك الشرطى ذقنه ثم نظر اليها مليا وأخيرا قال وهو يبتسم

— نعم هذا ما أظنه . ان لصحف ملأى بذكره . ولكن لماذا تريدين معرفته ؟

انفي الشرطى عن [illegible] هذا السؤال وهو [illegible] بعين الارتياب والشك . فاج[illegible] [illegible] [illegible] قائلة

— اريد أن أعرف [illegible] أين يقطن

— [illegible] وسعي [illegible] ذلك . سيرى الى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ميدان ، فى [illegible] . هل فهمت ؟ هل جئت [illegible] [illegible] تريدين [illegible] !

[illegible] الفتاة فى [illegible]

— [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

ـ أظنك تريدين رؤية واحد من الخدم ؟ حسنا تعالى اريك المنزل

سار الشرطي بجانبها الى الميدان ثم أشار الى « كلاريدونزهوس» وعاد الى مقره الاول ، فالقت فيني نظرة طويلة على القصر ثم عادت مسرعة . على انها عادت ثانية فى غسق الليل ففازت ببغيتها اذ رأت راف يهبط درجات سلم للقصر فوضعت يدها على قلبها وارتجف جسمها وأخذت تتمتم قائلة : « أى ، راف ، راف » ثم تحولت وصارت فى طريقها مطرقة الرأس بعينين تحجب بصرهما الدموع

ظلت فيني تذهب كل مساء الى الميدان وتنتظر حتى تأتى نظرة عليه وكانت فى كل مره تتمتم قائلة : « اى . راف . راف » . ثم تنصرف

والآن اكتشف سرها هذا الرجل ـ ترافرس ـ خادم راف وصديقه الذى انتزع سرها من صدرها ولواها كما شاهدت المعدن يلوى قطعة من معدن الرصاص . وبينما كانت جالسه هناك استعرضت فى رأسها كل كلمة فاه بها ترافرس ، وقالت : هل حقا يهتم راف بها انه لم ينسها على كل حال لانه ذكرها لهذا الرجل صاحب الصوت الناعم والعينين الحادتين والا تسامة المملوءة سخرية ، الرجل الذى أخبرها ان راف سيقترن بالشابة الجميلة التى رأتها سيقترن باللادي مود مالم ..

نهضت فيني من مقعدها وقد استقر رأيها على ان تفلت من قبضة هذا الرجل وتعود الى محله «جنة الراقصة» أو هل يجدر بها ان تذهب الى راف وتقول له ان خدمه هذا ، ان هذا الرجل الذى يدعى صداقته . هو صديق كذاب منافق يخدعه ويريد ان يغدر به ؟

سارت فيني بخطوات بطيئة فى طريقها الى أن بلغت المنزل فصعدت الى غرفتها دون أن يشعر بها أحد وهناك القت نفسها على فراشها

وخاضت غمار معركة حامية لاتخفى على أية امرأة

ليتها تثق بأن راف يهتم بها ! ولـكنه على كل حال ينتمي اليها اكثر مما ينتمي الى تلك السيدة الجميلة ، فهى قد أحبته وهو فقير لا أهمية له ، وفى وسعها أن تحبه حبا لاتستطيع هذه الفتاة أن تجاريها فيه وقد قال الرجل أن راف يكون شقيا تعيسا اذا تزوج اللادى مود . أواه هل هذا صحيح ؟ اذا كان الامر كذلك . . »

استمرت المعركة طول الليل وحمي وطيسها الى آن غادرتها فى الصباح شاحبة اللون خائرة القوى ، ولـكن كانت جذوة حب راف قد اشتد لهيبها فى قلبها فظلت طول يومها تهيم على وجهها ، لتجاذبها الاهواء المتضاربة ، ولـكن كانت لعاطفة الحب الغلبة عليها فلم يحن الوقت حتى رأت رجليها المتعبتين تحملانها الى المـكان المعين

دقت الساعة التاسعة ولـكن ترافرس لم يظهر لان الشاب كان يعلم انه اذا تأخر عن الموعد قليلا جعلها هذا التأخير اليز عريكة وأسلس قيادا . والواقع رأته فيني بعد التاسعة والربع قادما يتهادى فى مشيته فارادت أن تتحول وتهرب من وجهه ولـكنها لم تستطع التحرك من مكانها

رفع ترافرس قبعته وحياها باحناء رأسه وابتسامة رقيقة وقال

ـ هاقد أتيت يافيني . اخشى أن أكون قد تأخرت قليلا ولـكني كنت أتولى خدمة اللورد ستراتفير

نادى ترافرس عربة وأشار الى الفتاة أن تركب معه فترددت وارتدت الى الوراء ولـكنه ضحك وهز منكبيه قائلا

ـ اركبي يابنيتي العزيزة . لقد استقر رأيك على مقابلتي ولعمري

قد أصبت فى قدومك

سارت المركبة بهما الى مطعم هادىء فى حي « سوهو » فلم تردد فيني بعد وانما تبعته فى عزم وثبات الى زاوية منعزلة من المكان الذى لم يكن يقصده غير الغرباء

طلب ترافرس طعاما للعشاء ولكن لم تستطع الفتاة أن تأكل شيئا وجلست تحمل ذقنها بيدها تحدق عيناها النظر الى غطاء المائدة على حين كان ترافرس يتناول طعاما لذيذا ، ويتحدث فى مواضيع عادية شتى . الى أن فرغ من الطعام فاشعل لفافة من التبغ ثم قال بلهجة أخرى تختلف عن لهجته الاولى

ـ الآن ياعزيزتى فيني هيا نضع الخطة لحلتنا . ولكن اعلمي قبل كل شيء اننا قد صرنا من الليلة رفيقين نعمل معا لفائدتنا المتبادلة ألا نزال أوراق اللعب « مكشوفة » على المائدة ؟ حسنا ، اذن اعلمي انني سأساعدك على الزواج برفيقك القديم . لا تسأليني كيف سأصل الى ذلك ولكن ثقي بنجاحي . ليس ثمة مايدعوك الى التردد أو الشعور بتأنيب الضمير لاننا ، أنا وأنت ، نعمل لخيره . . وخيرنا . الآن هل لك أن تعطيني عنوانك ؟ لا تخافى ! سوف لا أثقل كاهلك بزياراتي ولكن قد اضطر الى مكاتبتك وسأرسل اليك بعض أشياء بلا مراء

القت فيني عليه نظرة استفهام ثم تكلمت لاول مرة فسألته بصوت خافت وهى تحدق النظر اليه قائلة

ـ ماذا تعني ؟

ـ اعنى ان تغييرات عظيمة ستطرأ على ظروفك ياعزيزتي فيني يجب أن تعديني أخا لك ، وبهذه الصفة يجب أن تدعيني أهيم بك

أخرج ترافرس من جيبه كيس نقوده ثم عد لها عشرين جنيها من الذهب ، دفعها فوق المائدة نحوها قائلا

ـ كلا ، لاترفضى . لايستطيع الانسان أن يعمل شيئا بدون نقود وستحتاجين الى ما أقدمه اليك . . هذا قرض أقدمه يافيني فاشترى منه بعض ملابس . ربما لا تستطيعين معرفة ماأنت فى حاجة اليه بالضبط نخبرلك أن تذهبي الى هذا المخزن ـ وكتب لها عنوانه وهناك اخبريهم انك ستشتغلين وصيفة لسيدة غنية فيعرفون ماأنت فى حاجة اليه من الملابس الجيدة البسيطة

نظرت فيني الى النقود ثم الى وجه الشاب الجالس امامها ، فكادت تخنقها العبرات ولكنها تمثلت فى تلك اللحظة وجه راف فاشتعلت فى قلبها نار هواه ولم تلبث ان مدت يدها بحركة دلت بلغة صامتة على شعورها وقبضت على النقود الذهبية ، فقال ترافرس وهو يومىء اليها برأسه

ـ هذا حسن . الآن سأطلب لك فنجانا من الشاى لانك لاتذوقي طعاما فتتناوليه اثناء حديثنا كأخ وأخت يافيني ؟

الفصل الخامس عشر

راف يسأم

لا نغالى اذا قلنا أن الثروة والجاه لا يجلبان السعادة في بعض الاحيان ، فان راف بالرغم مما صادفه من النجاح وحسن الاحدوثة وسط جمهور الاستقراطيين الذين احتشدوا في قصر اللادى كوانتوك وبالرغم من الحسد الذى أفعم قلوب المدعوين من نحو الشاب الذى اغدقت عليه الاقدار النعم والعطايا والذى وهبته الارادة الالهية فوق ذلك جمال الوجه وقوة الجسم — نقول أن راف بالرغم من كل هذا كان فى حالة نفسية لا يحسد عليها وهو يتمشى فى غرفته ذهابا وجيئة ، يدخن لفافة التبغ فى عنف ويذكر حوادث المساء . لان قلبه كان مثقلا بالهموم والاحزان ، فله الذى أفعم بحب الشباب الاول والواقع كان غرامه بجرد يزداد يوما بعد يوم وينمو ساعة بعد ساعة مثل حبة صغيرة زرعت فنمت وترعرعت حتى تحولت الى هيام ملك عليه قلبه ومشاعره

لما طرق الحب قلبه لم يكن له أمل لان العاطفة التى تملكته كانت وقرب الى العبادة منها الى الرغبة على حين ماشى اعتقاده برفعتها وعلوها نمو غرامه بها ، فلم يخطر بباله مرة أنفى وسعه أن يبوح لها حتى بحبه قال فى نفسه أنه يكفيه أن يعبدها وأن يكون على مقربة منها ، وأن أيهتم بها ويتولى خدمتها فى الامور البسيطة — وفى الامور العظيمة أيضا اذا هيأت له العناية الالهية الاسباب وساعده الحظ فى ذلك .

والواقع خيل الى راف أن الفتاة فوق كل امرأة أخرى ، وأنه لا يجرؤ رجل على أن يرفع عينيه اليها · فلما أبلغته مدلين دسبار أن اللورد سنبورن سيقترن بها على الارجح لم تكن الصدمة التى أصابته ناجمة عن عقرب الغيرة فحسب بل كانت أيضا تلك الصدمة التى يعانيها المرء متى وقعت عيناه على عمل فيه انتهاك حرمة شيء مقدس . فهاله أن يطمع هذا الشاب الذى تنحدر ذقنه وجبهته الى الوراء ، فى أن يكون قرينا لفتاة مجيدة كاللادى مود

على أنه كان قد شاهد الان من شئون العالم وأطواره ما ساعده على ادراك ما يمتاز به اللورد سنبورن عليه فقد كان سنبورن واحدا من هذا العالم العظيم . من هذه الطبقة الغريبة التى كان يجدر براف أن ينتمي اليها والتى يؤهله مركزه فى الواقع أن ينتمى اليها ولكنه كان يشعر بانه متطفل عليها . نعم ان الثياب الجديدة من العوامل التى تغير مظهر الانسان الخارجى ولكن راف كان لا يزال فى عينى نفسه غليظا ، خشنا جاهلا هزلا ، يختلف اختلافا تاما عن هؤلاء القوم المثقفين المتعلمين الذين القته المقادير فى وسطهم

ذكر راف وهو غارق فى افكاره ما أظهره ترافرس من الخفة والنشاط فى محادثة المدعوين واستطاعته الرقص مع اللادى مود ومحادثتها هى وغيرها كانه واحد منهم ، وقال ان ترافرس « جنتلمان » أكثر منه وأنه اليق منه بمركز لورد سترانفير وأصلح منه لهذا المقام

على أن الادهى من كل هذا أن راف ارتاب فى مقدرته على اكتساب صفاتهم الجميلة ، ومداعباتهم اللطيفة فى أحاديثهم وحركاتهم الهادئة الرشيقة فى مشيهم وغير ذلك من الصفات التى امتاز بها هؤلاء القوم

الذين اضطر الى الاختلاط بهم ، وأيقن أنه مهما بذل من جهود ومهما جاهد فانه لا يستطيع أن يمحو اللطخه التى التصقت به من جراء حياته الاولى فى محلة حنة الراقصه

ولكن قامت فى نفسه روح العدالة تحتج على هذه الفكرة قائلة ان الحياة هناك كانت حقيقه خشنه وجافه ولكنها كانت حياة شريفه ليس فيها ما يخجل أو يشين . فقد كان والده صاحب حانه ولكنه كان « جنتلمان » كما كان معظم الفتيان « بيض » القلوب من الاصدقاء المخلصين . . ليس في الحياة القديمه لطخة عار وليس فى أصدقائه القدماء ما يحط أو يشين . ولكنهم وهو معهم . يعدون على كل حال من طبقة أخرى تختلف عن هؤلاء الرجال الذين يحق لهم الزواج باللادي مود بالرغم من انحدار ذوقهم وجباهم

ولما كان الاسد الجريح ينشد دائما العزلة والانفراد . فان آل سان ايفز لم يروا راف الا قليلا خلال اليومين أو الثلاثه التاليه . فقد استيقظ الشاب فى صباح يوم حفلة الرقص فى الميعاد المعين فاسرج الفرس ثم ركبها الى مسافه بعيده خارج المدينه حيث توجد اماكن عتيقه ذات مشهد بديع وذهب الى أحد المروج فى « سورى » وهناك ترجل عن ظهر الفرس وأمر بان يقدم اليها العلف والماء ثم تناول غداءه من الجبن والخبز والسمك فى غرفه حانه صغيره ولما استراح قليلا استأنف سيره وسط الحقول والمروج

استقر رأى راف على أن لا يفكر باللادي مود ولا اللورد سنبورن وحول دفة افكاره الى محلة حنة الراقصه . وكان من الطبيعى أن يفكر بفيني لان الفتاة لم تخطر بباله منذ وصوله الى لندن والواقع كانت

المرة التي ذكرها فيها في حديثه مع ترافرس هي الاولى التي كبد نفسه مشقة التفكير بها ولكنه فكر بها الآن وتذكر ساعة فراقهما

قال راف في نفسه انه لو مكث في « حنه الراقصه » لزاد حب الفتاه على الارجح ، الفتاة التي تعلقت بعنقه ورفعت اليه عينين ملؤهما الحب والتي بللت دموعها صدريته وهو يودعها ربما كان بقاؤه خيراً له — نعم كان خيراً أن يبقى راف الشاب العادي ، راف المعدن ويقترن بفيني

على أنه هز رأسه لدى هذه الفكرة وقال في نفسه انه توجد فتاة واحدة هي التي يتمنى الزواج بها — ولكنها ليست بل للورد سنبورن

وفيما كان راف عائداً بالفرس على مهل لاحظ انها روضت تماما فارتاحت نفسه فلولا انها ستكون فرساً جميلة تليق بالليدي مود . ومع أن الشاب قضى يومه دون أن يرى مود وتعطشت نفسه لرؤيتها فقد استقر رأيه على أن لا يتناول طعام العشاء في القصر ، وعلى ذلك ذهب الى « سافواى » . وكان ترافرس قدمه الى اصحابه من قبل ، فارشده الخادم الى مائدة صغيرة جلس راف أمامها . بيد أنه لم يكد يشرع في تناول طعامه حتى جاء جماعة الى المائدة المجاورة له . وقد فاه احدهم باسمه فالتفت راف فرأى بينهم المستر بونسني جونز ، الشاب الذي لقيه في النادى من قبل . على حين كانت مدلين دسبار احدى النساء اللائى معهم نصاحت ابتهاجا عند رؤيته قائلة

— آه ، لورد ستراتمير . ما هذه الفرصة البديعه ! هل تتعشى منفرداً ؟ تعال وانضم الينا

تورد وجه راف ابتهاجا ، لانه كان يشعر بوحشة وكآبة وسط

الجماهير التى تعالت أصواتها حوله بالضحك والحديث فقام والتحق بهم فرحبوا به طبعا وجلس بجانب مدلين دسبار التى تظاهرت بالسذاجه والخفه وعاملته كأنه صديق قديم لها

وكانت دلائل الابتهاج والحبور تتجلى على الجميع لانهم كانوا من الشبان والشابات الذين يميلون كل الميل الى الانشراح والحبور ، حتى المستر بونسي جونز ودمث طبعه انتعش انتعاشا عظيما على حين كانت ضحكات مدلين تتخلل الحديث من وقت الى آخر

وكان الخادم يظهر اهتماما خاصا بكأس راف ، فلم يمنعه الشاب ، على عكس عادته ، بل ظل يتجرع كأسا بعد أخرى ولم يلبث أن انطلق لسانه فى الكلام مثل غيره وهم يشجعونه على الحديث ويتبادلون نظرات الدهشه والاستغراب من لهجته وبعض عباراته الخشنه لانهم وجدوا فيه شيئا جديدا لم يعهدوه من قبل

وكان الجماعة قد عقدوا النية من قبل على الذهاب الى أحد المسارح فذهب راف معهم طبعاً . وكانت الرواية هزلية موسيقية ، كان يعدها راف فى أوقات أخرى أمثالا سخيفة صبيانيه ولكنه كان قد تجرع كمية كبيرة من الشمبانيا فلعبت برأسه الخمر ولكنه وجد لذة فى الالحان والرقص والنكات التى كان يلقيها الممثلون .

وكانت مدلين [illegible] هتمامه [illegible] الوشاح الحريرى [illegible] الوشاح الى كتفه ثانية [illegible]

تصاعدت رائحة شعرها الزكية الى رأس راف ولعبت الشمبانى دورها فى عروقه ، فاتفق أن وضعت مدلين يدها على يده لتلفت نظره الى شيء ما فضغط راف ، وهو لا يدرى ، على اليد الصغيرة وعندئذ نظرت اليه الفتاة من خلال أهدابها وعلى ثغرها ابتسامة ساحرة مغرية

تناول الجماعة بعد الفراغ من التمثيل شيئا آخر من الطعام والشمبانى ولكن راف كان قوى الرأس كما كان قوى الجسم ، فلم يبد عليه شيء من تأثير الخمر ، اللهم الا احمرار وجهه ولمعان عينيه الحادتين

وفيما كان الرجال يساعدون مدلين على ركوب سيارتها فى النهاية ، اذ مالت الفتاة الى الامام ووضعت يدها الصغيرة على ذراع راف ثم لصقت وجهها بوجهه ونظرت اليه نظرة كم أحدثت تأثيرها السيء فى قلوب كثير من الرجال وتمتمت قائلة

— ألم تقض ليلة سارة بديعة ؟ يجب أن تتمتع باخرى بل وبليالى عديدة ، فهل تعد ؟

فقال راف بصوت عميق

— نعم اعدك . تعال نتعشى معا غداً . سأكتب الدعوة الى بعض الرفاق

جاء المستر بونسيبى بعد ذلك وتأبط ذراع راف قائلا

— لم يحن الوقت بعد للنوم . هيا نذهب الى ناد صغير لى

وكان راف فى حالة نفسية لا يحجم منها عن الذهاب الى أى مكان فلبى الدعوة وركبا سيارة أجرة أقلتهما الى « نادى الآس » وهو مكان يدل اسمه على ماهيته

وكانت قاعة اللعب تكاد تكون غاصة بمن فيها عندما دخل الشابان

فقدم بونسنى ، راف الى بعض الاعضاء فلم تمض مدة وجيزة حتى وجد الشاب نفسه جالسا أمام احدى الموائد الخضراء ، والاوراق منثورة أمامه ، والشمبانى بجانب مرفقه

وجد راف فى الساعة الثالثة صباحا أنه خسر مبلغا كبيرا من المال فتزنح هنيهة ولـكنه تذكر ثروته الطائلة فضحك وأمضى صكا عليه بالمبلغ قائلا :

— سأدفعه فى الصباح

ولـكن تبسم الرابحون ورفضوا قائلين

— تعال الليلة القادمة واسترد ماخسرته فقد خانك الحظ الليلة

فقال راف

— كلا . كان الحظ حسنا ولـكنى لست من المولعين باللعب على اننى سآتي على كل حال وآخذ بثارى غدا . لقد قضيت ليلة سارة جميلة يامستر بونسنبى

لما خرج راف الى الهواء الطلق أحس بارتباك ودوار فى رأسه فنادى أحد الرجال سيارة للاجرة ركبها راف ثم ودعه اللاعبون وذكروه بوعده . ولما وصل الى القصر صعد توا الى الحمام نصب ماء باردا على رأسه ثم هز جسمه مثل الكلب السلاق ورفع صدره ونظر الى الامام فى غضب . وكان الشاب يعلم انه افرط فى الشراب فامتلأت نفسه بروح الاحتقار من نفسه — على انه قال انه قضى ليلة كاملة دون أن يفكر بالالادى مرة وزعم المسكين انه جنى فائدة كبيرة لنفسه

ودخل الفرس فى الصباح على أثر فراغ راف من تناول فطوره فى غرفته . وكان راف جالسا على قاعدة النافذة يدخن غليونه ويطل

على الميدان حيث كانت ايفا تسير مع مربيتها . وكان راف قد نزل فى صباح يوم أو يومين الى الميدان ولعب مع الفتاة الصغيرة، ولكنه كان فى هذا الصباح لا يشعر بميل الى الذهاب اليها ومداعبتها كعادته ولم يكن راف يشعر بدوار فى رأسه ـ وهو مايستحقه ـ ولكن أ ر الخمر وشعوره بجهالته كانا يضايقانه حتى أحس بانه ليس جديرا بعشرة الطفلة . وقد التفتت أيضا مرة ولوحت بيدها الصغيرة ودلائل الاستياء على وجهها الجميل ، ولكن هز راف يده وصاح قائلا انه « مشغول »

نظر ترافرس بمؤخر عينيه الى جسم الشاب الضخم الجالس على قاعدة النافذة وعجب فى نفسه قائلا ماذا يقول راف ياترى وماذا يصنع لو علم انه فيفى ، فتاة « حبة الراقصة » على مقربة منه ، ولو اطلع على الاتفاق الذى تم بين ترافرس وبينها

قال ترافرس بعد قليل

لقد أصبحت محبوبا عظيما تلك الليلة بدليل رقاع الدعوة الكثيرة التى وصلتك . فيها دعوة الى العشاء من اللادى كوانتوك وهاك أربعة خطابات من سيدات حسان آخريات تدعوك احداهن الى [illegible] فى فندق ريتس وتدعوك أخرى الى الغداء فى كارلتن ـ وثالثة الى العشاء فى رنلاج . لقد ذاعت شهرتك فى [illegible] ياعزيزى [illegible]

فاه ترافرس بالجملة الاخيرة وهو يتبسم ولكنه كان يشعر بروح الحسد فى أعماق قلبه كالعادة

فقال راف بلهجة عادية

ـ هل تظن ذلك ؟ ان المسألة لا بأس بها على كل حال [illegible]
[illegible] الى حفلة رقص [illegible]

مأدبة فى ذلك الفندق الذى تسمونه سافواى ، فقد كنت هناك ليلة أمس فتمشيت مع تلك الفتاة الصغيره التى يشبه وجهها وجه الطفل وأعنى بها مدلين دسبار ومع بعض أشخاص ممن قابلتهم فى أماكن مختلفه . وقد تمتعنا بوقت لذيذ فذهبنا الى المسرح ثم لعبنا بعد ذلك

سكت راف هنيهة وهو ينظر الى غليونه ولم يلبث أن استطرد فى حديثه فقال

ـ عليك أن تكتب حوالة ماليه بمبلغ مايتين وعشرين جنيها وخمسة عشر شلنا وهو المبلغ الذى خسرته

رفع ترافرس رأسه في الحال وقد لمعت عيناه فجأة وانتهجت نفسه عند ماعلم ان الشاب خسر مثل هذا المبلغ وان فيه مثل هذا الضعف الذى يمكن استغلاله وزيادته ، فاخرج دفتر الحوالات وقال

— باسم من الدفع ؟

فاجابه راف قائلا

— باسم المستر بونسفي جونز . اخبرنى يا ترافرس ، هل تعد مثل هذا المبلغ خسارة كبيرة ؟

— انها خسارة كبيرة بالنسبة لى [illegible] الرجال ، هذا طبيعي اما [illegible] فلا تعد خسارة تذكر

ثم صمت وهو [illegible] الحوالة [illegible] فقال

— اظن [illegible] اذا خسرت عشرة اضعاف [illegible] هذا المبلغ ، لكن هل [illegible] [illegible] ؟

فقال راف وهو [illegible]

— كان كل شيء حسنا . وكانوا كلهم من السادة الكبار ، من اصدقاء سان ايفز ومن الرجال الامناء

فقال ترافرس فى ارتياح

— هو ما تقول . انك من طبقتهم بلاريب وهم يقامرون دائما بمبالغ طائلة يستطيعون احتمالها مثلك . اظن انك ستقابلهم ثانية لكى تثأر لنفسك منهم ؟

فاجابه راف على الفور قائلا

— سأقابلهم الليلة . جهز مائدة فى سافوى لستة اشخاص

أومأ ترافرس برأسه وفتح خطابات أخري ثم تظاهر بالانهماك فيها وقال فى غير اكتراث

— هل كنت تلعب كثيرا فى « حنة الراقصة » ؟

فقال راف

— كلا . لا أميل كثيرا الى اللعب ، ولكنك لا ترى هناك رجالا يرتدون سترات طويلة الاذيال وقبعات كالمداخل وقفازات من جلد الماعز الابيض، ومع ذلك يلوح لى أن على أن أماشيهم جميعا فى كل ذلك

فقال ترافرس وقد رفع حاجبيه

— ما أعظم التغيير الذى تشعر به ! لقد قلت ذلك من قبل ولكن لا يسعنى الا الافاضة فى الحديث . اظن أنك لاتحن الى الايام الماضية ، الى الحياة القديمة ؟

مكث راف برهة وجيزة يدخن غليونه قبل أن يحرى جوابا وأخيراً قال على مهل

— حسنا ، لم اشعر بشيء من ذلك الى الآن ، ولكن ربما حدث

ذلك فى المستقبل

فقال ترافرس

ـ ان هذا طبيعي . وعلى كل حال لا بد انها كانت أياما سعيدة ، حياة خالية من التكلف مع رفاق أوفياء من « الفتيان » كما تسمونهم دائما ثم الفتيات؟ أظن انك خلفت وراءك قلوبا متوجعة ياعزيزى ستر انفيد

ـ كل رجل حر فيما يظن ، ولكن التوجع اذا كان هناك شىء من ذلك ، لم يكن من صنعي ليس فى المحلة فتيات كثيرات ومعظم النساء من المتقدمات فى السن

فقال ترافرس فى غير اكتراث

ـ أى نعم . أظن أنك ذكرت لى اسم فتاة فى ذلك اليوم تدعي مينى . . . تونى . . . كلا ، بل تدعى فينى ، اليس كذلك ؟

فقال راف وهو شارد الفكر

ـ فينى ، نعم كانت هناك فتاة بهذا الاسم فتاة طيبة القلب الى أقصى حد وكانت مغرمة بابى ، دليباركها الله . أودأن أصنع شيئا لفينى

فاه راف بالجملة الاخيرة وهو يخاطب نفسه تقريبا فرفع ترفراتى رأسه عن الاوراق فجأة ثم عاد الى الكتابة قائلا

ـ هل هى من نوع الفتيات اللائي يقبلن نقوداً ؟

فاجابه رف على الفور وبلهجه التأكيد قائلا

ـ كلا يا سيدى

هز ترافرس منكبيه وقال

ـ اذن لا أدرى ماذا تستطيع عمله لها

فقال راف فى تفكير

ـ أود أن أدعوها الى هنا لـكى أريها ما فى هذه البلاد من المناظر أريد أن تشاهد هذه المدينة وأطوف بها المخازن وأريها المسارح

فقال ترافرس وهو يبتسم

ـ ليس فى مقدورك أن ترسل اليها

ـ لا أظن اننى استطيع ذلك ، ولـكننى أود ذلك على كل حال . انها وحيدة منفردة هناك فى « حنه الراقصة » . وهى فتاة تحافظ على نفسها لنفسها ، ذات كبرياء وأنفة ولعمرى يجدر بها أن تكون هذه حالها لان على المرأة أن تحرص على نفسها فى « حنه الراقصة »

فقال ترافرس فى غير اهتمام

ـ اذن تصارحنى هذه لان تكون [illegible] لحظ الزواج بها ؟ أو من المحتمل انك لو بقيت هناك . .

ثم سكت ورفع عينيه وهو يضحك متظاهرا بالمزاح فقال راف

ـ هل تعنى اننى لو بقيت هناك لتزوجت بها ؟ حسنا ربما تم ذلك فعلا وربما فعلت ما هو [illegible] ولكنى لن أتزوج

ـ فى قولك هذا شىء من المغالاة . و [illegible] الى أصحاب هذه [illegible] أتدرى [illegible] حتى اذا قبلت الدعوة

[illegible]

كيف [illegible] ؟

فتبسم ترافرس [illegible]

ـ [illegible]

و [illegible]

لى أن اوفى بوعدى . اسمع سأذهب الليلة للعب الورق فأعطى بعض هذه الحوالات لكى أدفع فورا اذا خسرت

مزق ترافرس بعض أوراق من دفتر « الشيكات » فتناولها راف ودسها فى جيبه ثم غادر الغرفة ، فقابل مود على السلم فجمد فى مكانه ونظر اليها فى حزن وكآبة . وقد صعد الدم الى وجهه . وكانت الفتاة ترتدى معطفا من الفرو الابيض فبدت فى عين راف نقية عذرية فخجل من نفسه عند ما ذكر ماصنعه أمس ، على حين حيته مود قائلة

— عم صباحا يا ستر انفير . لم أرك منذ مدة طويلة ، فاين كنت ؟

وكان لورد سان ايفر قد لاحظ أثناء تناول الفطور فى هذا الصباح غياب راف عن تناول العشاء أمس وطلب الى ابنته أن لا تسأله أين كان ، ولذلك تداركت الفتاة غلطتها فقالت

— اعنى انك كنت فى الخارج طول يومك أمس

فقال راف فى هدوء

— هو ما تقولين . كنت ... مشغولا . كنت أخطب ود بعض بعض أصدقائك وأتجول فى انحاء المدينة

— لعلك وجدت شيئا من التسلية

وكانت مود واقفة وقد تمسك بيدها سياج السلم فاستدار راف ظهره الى الحائط ودس يديه فى جيبى « بنطلونه » ركوبه وأمامها مثلا

— قضيت وقتا لا بأس به . وقد مضيت المساء مع تلك الفتاة الصغيرة واعنى بها مس مدلين دسبار ، مع بعض اناس آخرين .

تبسمت مود وقالت

— مع مدلين ؟؟ نعم ، اليست فتانة ؟؟ ولكنها ليست فتاة

صغيرة كما تتوهم ياستراتفير

فاهت مود بالجملة الاخيرة بلهجة التحذير والدهاء النسائى فقال راف

— حقا ما تقولين ؟ هذا ما يلوح عليها . لقد أحسنت معاملتى فسررت بها

فقال مود على الفور وفى ارتياح

— ان الجميع يسرون بها

كان راف لا يزال فى حاجة الى حذق وتجربه حتى لا تفته رنة الامتعاض ، لا الغيرة التى ظهرت فى صوت الفتاة . على انها كتمت عواطفها وعادت فقالت

— هل ركبت جوادك هذا الصباح ؟

بدت دلائل الاهتمام والنشاط على وجه راف فجأة وأجابها قائلا

— نعم . هل لك ان تأتى معى غدا ؟ هل تستطيمين التأهب فى الساعة الثامنة صباحا ؟

فقالت مود بصوت هادىء رزين وقد لمعت عيناها لحظه

— يسرنى جدا أن آتي ، ولكن لا يوجد جواد يصلح للركوب وقد ابتاع أبي لى فرسا . ولكنها لم تروض بعد

ـ سأعدلك جوادا جميلا . اذن تم الاتفاق بيننا على الساعة الثامنة صباحا ؟

أومأت مود برأسها علامة القبول ثم صعدت درجات السلم الى أن بلغت المنحنى الاول فوقفت ونظرت اليه من فوق منكبها . وكان الشاب لا يزال واقفا حيث غادرته يحدق النظر اليها ولكنه تحول عنها فجأة وشرع فى النزول فسألته مود قائلة

ـ هل ستتناول العشاء الليلة هنا ؟

فاجابها فى تبرم قائلا

ـ كلا . سأدعو بعض الاصدقاء الذين كانوا معى ليلة أمس للغناء معى فى سافوى

ـ اننى آسفة . اعنى انك ستتغيب عن المنزل مع أنه سيأتى بعض أناس تود مقابلتهم منهم لورد سنبورن ـ هل تعرفه ؟

ساد الصمت هنيهة وأخيراً قال راف وهو يستأنف النزول

ـ اننى آسف . نعم أعرف لورد سنبورن

الفصل السادس عشر

فى اسكتلندا الجميلة

أرسلت مدلين دسبار فى الحال رسالة لقبول الدعوة ، فاقيمت فى المساء حفلة عشاء تشبه حفلة اليوم السابق ، وقد تعالت أصوات الضحك وكثرت النكات كالعادة ووزعت الخمر بكثرة ولكن لم يكن نصيب راف منها الا القليل . وقد لاحظ المستر بونسيبى جونز هذا « التقشف » ولكن أجابه راف فى رزانة قائلا

ـ لم أكن يوما ما سكيرا

ذهب الجمع بعد العشاء الى المسرح فزادت مدلين توددا الى راف ووضعت يدها على ذراعه مراراً ولكن الشاب لم يقابل توددها هذا بمثله ولم يضغط على يدها كما حدث أمس بل قابلها فى فتور . ولا عجب فقد كان يفكر بجود طول الوقت وتمنى لو كانت بجانبه بدلا من هذه الفتاة الثرثارة . واتفق ان أطال راف النظر مليا الى الفتاة الصغيرة

الجسم ، فرأى ، كما قالت مود ، أن مدلين دسبار ليست كالطفلة كما تبدو لاول وهلة

والظاهر أن الفتاة تألمت لبروده هذا فقالت عندما ساعدها على ركوب السيارة

— ماذا أصابك الليلة أيها اللورد سترانفير ؟ انك تبدو فظا خشنا كالدب

فقال راف وهو يتبسم فى برود

— ومن قال لك اننى لست دبا ؟ اذا رأيتنى فى حالة أخرى فاعلمى اننى فى حالة غير طبيعية

فاجابته الفتاة على الفور قائلة

— اننى أشد ميلا اليك متى كنت فى غير حالتك الطبيعية

— اننى أعد عواطفك هذه من نحوى مكرمة عظيمة منك

فاه راف بهذه الكلمات فى برود أيضا زاد الفتاة استياء فهزت كتفيها ومالت فى سيارتها الى الوراء وهى تقول فى نفسها أن هذا الشاب ، ذا الشعر النحاسى الذى جاء من مجاهل اميركا ، ليس ساذجا سهلا كما خيل اليها أول مرة

ذهب الرجال الى « نادى الاس » فقدمت الشمبانى ولكن راف لم يذقها وقد قامر المقامرون بمبالغ طائلة كما جرى فى الليلة السابقة ، فعاكس الحظ راف مدة وجيزة ولكنه لم يلبث أن تغير فربح الشاب ربحا عظيما حسب راف ماربح ولما عرف موقفه نهض فى الحال قائلا

— لقد تساوت الكفتان أيها « الفتيان »

فاحتج أحدهم قائلا

— هل تريد الكف عن اللعب ؟ ماالفائدة من عدولك اذا كانت الكفتان متعادلتين

فقال راف بلهجة الارتياح ولكن فى حزم

— أظن أن هذا خير مايلائمى ، أقول الحق اننى لم العب الا للائتناس بكم . انكم جميعا « بيض » القلوب وقد أظهرتم نحوى كل ود وصداقة ، ماالداعى الذى يحملنى على أخذ نقودكم ، ثم ماذا يدعوكم الى أخذ نقودى ؟

حدق الرجال النظر بعضهم الى بعض فى دهشة عند سماع هذا القول الجديد ثم لم يلبثوا أن فهموا فمد راف فى خلال ذلك يده الضخمه وضغط بها على يد كل واحد منهم ثم استأذن وانصرف

وفيما كان الشاب سائراً فى طريقه الى القصر أحس بانقباض فى نفسه قائلا أن هذه المدينة لاتبدو من المدن المسلية الجميلة . ولاعجب فقد أخذت الحياة الجديدة تحدث أثرها فى نفسه وقامت فى رأسه عاطفة نقية ثارت سورتها على هذا الضرب من الحياة التى يحياها هؤلاء القوم الذين التى فى وسطهم ، فتاقت نفسه فى الواقع الى القاء نظرة على حياة العمل النقية ، الحياة البسيطه التى غادرها حلما فى محلة « حنه الراقصة » واحس بحنين وشوق اليها حتى خيل اليه أن الشوارع التى يمشى فيها قد انقضت عليه . وان الليل خال من الهواء

نام راف نوما سيئا على عكس عادته لانه كان يغرق فى نومه على أثر القاء رأسه على وسادته ، ومع ذلك نهض من فراشه كالعادة فاعد الفرس وأسرجها بعناية خاصة هذا الصباح فوضع بيده سرجا من أجمل السروج الخاصة باللادى مرد وقاد الفرس بنفسه الى مدخل القصر ولم

تمض لحظة حتى فتح الباب وظهرت اللادى مود وقد ارتدت بدلة ركوبها فبدت فى عينى راف اجمل منها ليلة كانت ترتدى ثياب الرقص

— صاحت مود عند رؤية الفرس قائلة

— ما أجملها ياسترانفير ! انها بديعة بمعنى الكلمة .

فقال راف بلهجة حاسمة

— وهى هادئة كما تبدو جميلة

فرغت مود من لبس قفازها الطويل ثم نزلت . وكان راف لايعلم شيئاً عن الطريقة الصحيحة لمساعدة سيدة على ركوب جوادها بل يعرف وسيلة واحدة فمد اليها ذراعيه وحملها حتى وضعها على السرج بخفة وسهولة كانهاحزمة من قش ثم أصلح ثوب ركوبها فى عناية وشد العنان كما لو كانت احدى الفتيات فى محلة حنة الراقصه

خضعت مود لمساعدته كما استلمت لهعندمارفعها الى صهوةالفرس ولكن لم يبد على وجهها غير تورد قليل ! على حين وثب راف الى صهوة جواده فى خفة ثم سارا معا فى صمت ، يراقب الشاب الفرس فى اهتمام ، الى أن قالت مود في ابتهاج

— آه ، انها مثال الجمال من أين أتيت بها ؟ هل استعرتها ؟

— انها الفرس التى ابتاعها أبوك وقد روضتها لك

القت الفتاة عليه نظرة سريعة تشف عن الامتنان قائلة

— ثم لم تفه بكلمةواحدة عنها !! ماأطيبك ياسترانفير!القدتحملت مشقة كبيرة بلا مراء

— لم أتحمل شيئاً بل بالعكس وجدت في ترويضها لذة وتسلية . وقد كانت حلوة كالسكر ، وديعة كالحمل ، ومحبوبة كفراش من الريش

ضحكت مود والتفتت اليه بعينين لامعتين وقالت

— ماهذه الكلمات المضحكة التى تفوه بها ياستراتفير ؟ ومع ذلك تراها مقنعة قوية . فالفراش المصنوع من الريش محبوب حقا . كم أنا شاكرة لك ممتنة . انها فرسى الخاصة ، أليس كذلك ؟

فقال راف بلهجة الحذر

— اذا حافظت على مسلكها هذا الى النهاية . سنرى

دخل راف ورفيقته البستان فانتهزت الفتاة الفرصة وأطلقت للفرس العنان ومعها راف ، الى أن وقفت فى النهاية فصاحبت قائلة

— ماأبدعها ! ماأمهرك ياستراتفير حتى استطعت أن تروض فرسا كهذه وبمثل هذه السرعة !

— ليس فى هذا مهارة اذا كنت مغرمة بالجياد معتادة عليها ، وهى مخلوقة حسنة الخلق سأعلمها أن تتبعك كالكلب وأن تقف ثابتة متى امرتها، وان لاتتحرك من المكان الذى تغادرينها فيه حتى ترجعى اليها

فقالت مود فى لهفة غير عادية

— نعم ، نعم . يجب أن تعلمنى كيف أسوسها ، علمنى كل شىء تستطيعه ياستراتفير

فقال الشاب فى خضوع خجلى

— ان هذا لايستغرق زمنا طويلا . لدى اشياء قليلة فى وسعي أن أعلمك اياها . انما أنا الذى احتاج الى تعلم كل شىء

فالقت الفتاة عليه نظرة وقالت

— كلا . انك تلتقط الاشياء بسرعة

قال راف بعد قليل

ـ هذا مكان لا يصلح للركوب لانه أشبه شيء بميدان سباق . كم أود لو اننا فى مكان فسيح تستطيع الجياد ان تبسط فيه قوائمها . اما اذا جربنا هذا هنا فان الشرطى يرفع الينا يده فنضطر الى الوقوف .. ان مدينتكم هذه صغيرة جدا

وكانت مود تنظر اليه فى اهتمام دون ان تتظاهر بذلك ، فلاحظت شيئا من دلائل الذبول على وجهه ، ومن علائم التعب فى عينيه . وكانت تعلم انه وصل الى المنزل متأخرا ليلة امس لانها كانت مستيقظة ، بل وتفكر به أيضا فسمعته يغلق باب القاعة خلفه فى الساعة الثالثة صباحا وسمعت خطواته الثابتة على السلم

بدت دلائل الكآبة على وجه الفتاة ولزمت الصمت لانها لم تكن تجهل ان شاب كراف عرضة لكثير من عوامل الاغراء والتجارب فى مدينة كلندن . على ان دلائل الملل التى لاحظتها فى عينيه لم تلبث ان تلاشت بعد قليل لان قربها أثار كوامن الفرح فى قلبه . على أنه كان طول الوقت يراقب الفرس فى اهتمام ولم يلبث ان امر مود بالوقوف ثم ترجل عن ظهر جواده وحل لجام الفرس قائلا

ـ ان فمها رقيق وفى وسعك ان تركبيها بدون لجام

ـ لا يفوتك شيء ياسترانفير . لقد راقبتها طول الوقت

ـ نعم بلا ريب . انى مسئول عنها

ثم تنهد وقال

ـ ليتنا كنا فى العراء

فقالت مود وهى تبتسم

ـ هذه امنية من السهل تحقيقها . لماذا لا نذهب الى اسكتلندا

ياستراتفير ؟ لقد اعد كل شيء . ولم يشأ ابي أن يفاتحك لانه يعتقد انك لا تريد مغادرة لندن بعد هذه الفترة الوجيزة

فقال الشاب بلهجة الحزم

ـ كفاني مالقيته في لندن . لنسافر الى اسكتلندا غداً

ـ غداً ! لا ادرى هل نستطيع السفر بهذه السرعة ولكن في وسعنا ان نسافر بعد غد . وعلى ذكرى ذلك ياستراتفير ـ وهنا التفتت اليه وقد تورد وجهها ـ هل تريد ان تذهب ... ان ارافقك . ربما تفضل السفر وحدك ؟

نظر راف اليها ثم ضحك ضحكة حولت تورد وجنتيها الخفيف الى حمرة الخجل ولكنه قال في رزانة

اظن ان في وسعي ان آخذ رأيك ايتها اللادي مود ، فماذا ترين

نظرت الفتاة الى رأس الفرس مليا ثم نظرت الى الشاب وخاطبته في اتزان كالعادة قائلة

ـ يسرني جداً ان نسافر . وستكون لدي اشياء كثيرة اريد أن أريها لك لاني اعرف « جلفير » حق المعرفة كما تعلم . انها مكان بديع ولكني لا اقول لك الآن عنها شيئاً لاني اريد ان افاجئك بها مفاجأة [illegible] ان اكون معك عندما تقع عليها عيناك لاول مره

ـ هذه [illegible] . [illegible] لا [illegible] بها كما [illegible] اذا لم [illegible] معي

[illegible] بالـ[illegible] من وقت الى آخر ،

[illegible] وكانت [illegible] حيا[illegible]

[illegible] الطاق [illegible] المسافات

البعيدة التي كان يقطعها على ظهور الجياد وسط الاودية وفوق التلال في البلاد التي غادرها

وكان الشاب يتحدث بعينين لامعتين تنمان على ما يشعر به من سعادة ولكن لم يلبث هذا اللمعان ان تلاشى وتهدج صوته اذ وقعت عيناه الحادتان على فارس قادم نحوهما في البستان ، هو اللورد سنبورن وكان جالسا على صهوة جواده مثل غرارة ، يجول بعينيه فيما حوله الى ان رأى مود فابتسم ابتسامة لا معنى لها ورفع قبعته لراف في غير اكتراث وبحالة ارسلت الدم الى وجه الشاب المسكين ثم تحول نحو مود وخاطبها قائلا

— عمي صباحا ايتها اللادى مود . ان الوقت ملائم للركوب . ارجو ان لا تكوني تعبة مد حفلة أمس ؟ لقد كانت ليلة سارة . هل اللورد سان ايفز بخير ؟ آه ، فرس جديدة ، أليس كذلك ؟

فأجابته مود قائلة

— نعم ، وقد روضها لي لورد سترانفير . أليست جميلة ؟

نظر سنبورن الى الفرس من خلال نظارته ثم نظر الى راف بالوسيلة عينها كما لو كان جوادا آخر ثم قال في شيء من الدهشة

— حقا . ان في هذا شيئا من المخاطرة ، أليس كذلك ؟ كان الاجدر ان تستخدمي رجلا فنيا مثل الرجل الماهر الذي يوجد في شارع « سوث اورلي »

لم يشأ سنبورن قوله هذا التهكم وانما اعرب به عن فكرة خطرت له ، ولكن صعد الدم الى وجه راف وبان اثره في عينيه كما يحدث عادة اذا ما ثار غضبه وصاح قائلا

— اسمع يامستر سنبورن . . ايها اللورد سنبورن هل تعد نفسك اختصاصيا فى الجياد ؟

فحدق سنبورن النظر اليه وقال

— هل اعد ؟ . . . كلا ، ان الجياد ليست من شئوني

فقال راف وهو ينظر استهزاء الى جواد اللورد .

— هذا مااعتقده

قال سنبورن

— ولكنى احسن الصيد

— لعلك تحسن الصيد اكثر من الركوب

اومأ سنبورن برأسه دون ان يغضب وقال

— نعم احسن الصيد

ثم التفت الى مود كانما انتهى حديثه مع راف وأخذ يحدثها عن اصدقائه وأصدقائها ، عن هذه الجماعة وتلك ، كما لو كان راف غير حاضر معهما

احتمل راف ذلك هنيهة وأخيراً قال فجأة

— انني ذاهب الى القصر يامود

فقال اللورد سنبورن قبل أن تتمكن الفتاة من الكلام

— عم صباحا . سأتولى رعاية اللادى مود

— أنت !

فاه راف بهذه الكلمة فى احتقار مستور ثم تملك عواطفه وقال فى هدوء وسلام

— أن اللادى مود تركب معى وهى تمتطى صهوة فرس صغيرة

على أن اتولى مراقبتها

جلست مود بين الشابين بقلب شديد الخفقان ، ولكنها كانت اكثر تأدبا من أن تظهر شيئا من التأفف أو التضجر بل ابتسمت ابتسامة رقيقة وخاطبت لورد سنبورن فى حزم وثبات قائلة

— لا أظن أن هناك مايدعوا الى القلق ولكنى فى حماية اللورد سترانفير . الى الملتقى

كاد الصمت التام يحل بينهما اثناء عودتها ولكن مود تعمدت تعكير صفوه من وقت الى آخر فكانت تضرب عنق الفرس فى رفق وابتهاج وعندئذ تعرب عن امتنانها لراف . ولما وصلا الى القصر مد راف ذراعيه ليساعدها على الترجل ولكنها نزلت [illegible] دون مساعدته

وبينما كان يدخلان [illegible] اذا بلورد سان ايفز يغادر غرفة الفطور وقد كاد يصيح ابتهاجا بجمال الفرس و[illegible] راف فى [illegible] ولكن الشاب قاطعه قائلا

— اسمع يالورد سان ايفز ، هل هناك ما [illegible] السفر [illegible] فى ذلك المكان من اسكتلندا ؟

ضحك سان ايفز دهشة وقال

— غدا ! [illegible] ياعزيزى [illegible] . هل [illegible] و لندن بهذه السرعة ؟ [illegible] ؟

— هو ما تقول . وسأحتمل ماهو [illegible] آخر . ما الذى يمنعك من السفر غداً ؟

فقال سان ايفز فى تردد

— حسناً . . لاشىء . خبرنى [illegible]

نستطيع السفر بكل سهولة أما النساء فيقضين مدة طويلة في اعداد حقائبهن

فقال مود وهى تصعد السلم

— في وسعي أن اتأهب للسفر ياأبت. ان لويذا تعلم اننا على اهبة السفر

فقال راف في هدوء .

— اذن تم الاتفاق

ثم تحول وسار فناداه سان ايفز قائلا

ـ الى أين ياسترانفير ؟

فاجابه الشاب قائلا دون أن يلتفت اليه

ـ سأذهب لتنظيف الفرس

فناداه سان ايفز قائلا

ـ هناك السائس

ولكن راف هز رأسه وتبع الجوادين الى الاصطبل

لما عاد راف الى القصر وجده فى حالة ارتباك ، ولكنه ارتباك بسيط لان القوم الذين فى مكانة سان ايفزليس عليهم الا أن يصدروا أوامرهم فتقوم ايدى أخرى بانجاز مايطلبون والواقع اشتغل الخدم والوصيفات باعداد الحقائب وأعدت مركبة فى صباح اليوم التالى لتقل المسافرين الى المحطه لتلحق بالقطار السريع وأرسل تلغراف الى جلنفير ينبيء سكان الضيعه هناك بقدوم اللورد سترانفير الشاب الذى استعدوا لملاقاته

لم يجد راف شيئاً مطلقاً يعمله فجلس يدخن غليونه وهو يطل من النافذة وقد سبحت افكاره الى سنبورن ومقابلته وفيما كان يفكر فى

هذا الامر اذا بترافرس قد دخل عليه وقال وهو ينزع قفازه الجلدى

— اذن استقر رأيك على السفر الى اسكتلندا ياستراتفير ؟

فاومأ راف برأسه وقال

— نعم غدا

— هل أرافقك الى هناك ؟

— نعم بلا ريب هذا فى وسعك على ماأظن ؟

فكر ترافرس فى الامر بسرعه قبل أن يحرى جوابا . وكان على موعد مع فينى في الغد ولم تكن خططه ولا استعداداته قد تمت بعد وع ذلك قال

— سأتبعك بعد يوم أو يومين، هذا اذا لم تكن في حاجه شديدة الى

— حسنا تعال متى شئت

جلس راف أمام مائدة الطعام فنظر ترافرس اليه وقال

— أراك كثير التفكر اليوم ياستراتفير

فقال ر ف

— حقا ؟ انى شاحب اللون قليلا ومثلى مثل جواد صغير خرج لاول مرة للتدرب على مخاطر الطريق . والآن اخبرنى ياترافرس هل يأتى يوم اتعلم فيه كيف أمد بصرى من فوق رأس الرجل الذى أحدثه كما لو لم يكن موجوداً ، وأن الصق قطعه من الزجاج على عينى وابتسم كما لو كنت ... كنت غراً ابله ؟

القى ترافرس نظرة حاده على الشاب على أ ه ضحك وقال

— من اتخذته فى مخيلته انموذجا لذلك ؟

فقال ر ف وهو يزمجر

ـ حسنا كنت أفكر ببعض الرجال الذين قابلتهم فى مدينتكم هذه بذلك اللورد سنبورن

مهما حاولت يا عزيزى سترانفير فانك لا تصير مثل لورد سنبورن ثم ماذا يدعوك الى ذلك ؟

فقال راف وهو يدفع طبق الطعام عنه

ـ لا أدرى ، ولكن يلوح لى أن هذا الطراز من الرجال يروق فى أعينكم . ولكننى لا أريد أن اتكلم عنهم . أريد أن انساه لانه يثير الغضب فى نفسى . ثم . . .

كف راف عن الكلام فجأة وتحول عن مائدة الطعام ثم عاد فأشعل غليونه

ابتدأت رحلة الغد ونفذت على قواعد سهلة كما لو كان الجماعة مسافرين الى احد الضواحى لقضاء عطلة خلوية قصيرة . فخصص موظفو السكة الحديدية عربة خاصة لهم ، وأخذت أوبرا رئيس الخدم يحومان مثل ماكينين حارسين ، ووقف المفتش جانبا وعلى ثغره ابتسامة تنم على الاهتمام والحمالون يروحون ويغدون يحملون الحقائب والمعاطف الى العربة

وكانت اللادى موديهى ترتدى ثوبا أنيقا للسفر يجعلها مثل تلميذة مدرسة ، تسير الى جانب راف ذهابا وجيئة على افريز المحطة ، ولم تمض لحظة وجيزة حتى ذهبا الى المكتبة ، فاشترى راف من المجلات والروايات ما يكفى [illegible] طالما كانا يتحركا ومعها فهما محط الانظار الجميع لان المسافرين الآخرين كانوا قد قرأوا ما كتب على العربة التى خصصت لهم وأخذوا يتهامسون ويشيرون الى أفراد الجماعة واحداً بعد واحد .

وكان راف قد أثار فى نفوس الناس الاهتمام الاكبر بضخامة جسمه ولون شعره وتاريخه العظيم ومع ذلك كان الشاب لايشعر بشيء من ذلك وجعل يتمشى بجانب مود الى أن خرج القطار السريع . ولم يكد يغادر افريز المحطة حتى ذهبت همومه وانتعشت نفسه فجاء الى مود وبطريقته الخشنة الرقيقة هيأ لها اسباب الراحة فوضع مسندا خلف ظهرها وحمل حقيبته الصغيرة فوضعها تحت قدميها لتسند عليها رجليها

وكانت الفتاة تتقبل رعايته هذه وهى تضحك وتحتج قائلة

ـ ان من يراك تفعل ذلك يظننى سيدة عجوز ياستراتفير . هل تظهرون دائما مثل هذه العناية بنسائكم

فقال راف

ـ نسائنا ؟ لم يكن لى شيء من ذلك

ـ لابد أن يكون لديكم نساء وفتيات فى تلك المحلة ، فى « جنة الراقصه » ؟

فزمجر راف قائلا

ـ أى نعم ، وقد كان علينا معشر الرجال ان نهتم بهن بطبيعة الحال . الآن اخبريني ، هل أنت مستريحه ؟ لماذا لم تخلعى قبعتك ؟ انك لا تستطيعين الميل الى الوراء وهى على رأسك

أخذ راف يراقب الفتاة وهى ترفع اليدين الرقيقتين اللتين طالما حن الى لمسهما ، وشخصت عيناه اليها وهى تجذب الدبابيس وترفع القبعه عن رأسها ثم وهي تسوى خصلات شعرها الاملس الرقيق بتلك الحركة النسائيه الرقيقه التى تخلب عقول الرجال الذين يراقبون هذه العملية الصغيرة

وكانا منفردين فى العربة لان اللورد سان ايفز كان قد ذهب الى عربة التدخين مع مجموعة من صحف السباق والمجلات ، نعم كانا منفردين ، فلم يكن هناك لورد سنبورن حتى يأتى بظله الثقيل بينهما فاخذت روح الشاب تسمو وتنتعش كلما جد القطار السير بهم نحو الشمال

حاول راف ان يحملها على التحدث عن البلاد التى يقصدونها ، عن اسكتلندا التى تحبها حبا عظيما ، ولكن هزت مود رأسها ورفضت وهى تضحك اشفاء غلته قائلة

— اريد ان تراها بعينى رأسك ، ولا اروم ان اخفف من وقع جمالها فى نفسك . آه ، انها بلاد ليس لها مثيل ولكن سترى .سترى. وستميل الى أهلها الذين يشبهون بلادهم ، انهم يعيشون لانفسهم ، يختلفون عن الشعوب الاخرى وهم قوم عرفوا بالشجاعة والاخلاص والاقدام

كانت الرحلة أجمل رحلة قطعها راف فى حياته وكان سان ايفز يأتى لرؤيتهما من وقت الى آخر ، ويذهب راف الى عربة التدخين ليدخن غليونه ، ولكنه كان دائما يعود الى مود بعد فترات وجيزة

واتفق ان عاد راف مرة فرأى الفتاة تتثاءب وتفرك عينيها فخاطبها قائلا

— هل تشعرين بالنعاس ؟ النعمي . سأعد لك فراشا وثيرا

كدس راف الوسائد ثم أشار اليها أن ترقد . ولما خضعت لارادته وهي تحتج غطاها بدثار ثم نظر اليها فى رفق وحنو نظرة حملتها على ارخاء عينيها فغادرها عندئذ وذهب ليدخن ويفكر فرأى ان الرحلة سارة ، وان الساعات على الرغم من طولها ، قصيرة فى نظره لانه كان يتمتع بمود لنفسه ـ وكانت تحت رعايته وعنايته

وكان الليل بدأ يرخي سدوله عند ما وصل بهم القطار الى محطة صغيرة واقعة في سفح تل تظلل بحيرة ، خيمت عليها ظلمة الليل ، فصاحت مود قائلة

ـ ها هي المحطة . لقد وصلنا

لما ساعد راف الفتاة على النزول من عربة القطار رأى جماعة من الرجال في ثياب غريبة على افريز المحطة ، فتقدموا عند ماوقف القطار يسير في طليعتهم شيخ كث اللحية ، لفح الجو وجهه يحمل قبعته في يده وتتحرك تقاطيع وجهه كما يحدث للانسان عادة اذا كان في حالة تأثر وانفعال ، فوضعت مود يدها على ذراع راف وقالت بصوت خافت

ـ هذا دونلد . ناظر الضيعة وقد جاء لمقابلتك . . . بل جاء الجميع لمقابلتك . انك رئيس اسرة ستراتفير كما تعلم . وهي أهم شيء بالنسبة لهم . . . أواه ، لا أستطيع أن اشرح لك كل شيء . ليس هناك وقت . ولكن احسن اليه يا ستراتفير لطفا انه . . . انه يكاد يعبدك . كان يجدر بي أن اخبرك ولكني أردت أن تجد كل شيء على حين غرة

تقدم الشيخ الى راف وحدق النظر في وجهه ونطق بكلمة واحدة بصوت مبحوح متهدج قائلا «ستراتفير» كما لو كانت هذه الكلمة كل شيء في العالم

مد راف يده وقد تهلل وجهه ابتهاجا وقال باللهجة الجمهورية السيئة

ـ نعم انا ستراتفير . كيف حالك يا شيخ ، الله يسرني أن أراك

كانت هذه التحية أكثر مما توقعه الشيخ الاسكتلندي فلانت أسارير وجهه كما يذوب الثلج تحت الشمس وقبض على يد راف ورمقت عيناه كأنما بهرتهما أشعة الشمس وتحت شفتاه ولزم الصمت هنيهة

وأخيراً قال بصوت متهدج

— مرحبا بكم أيها اللورد سترانفير . مرحبا أيها المولى . لقد جئت الى قومك ، الى وطنك في النهاية

دهش راف ولولاه الارتباك لحظة عندما أخذ الرجال الذين احتشدوا خلف دونالد يهتفون له ويصيحون قائلين

— مرحبا بعودتك الى الوطن يا سترانفير

التفت الشاب الى الآخرين ، وهو لا يزال قابضا على يد الشيخ ثم قال

ـ شكراً أيها الفتيان . من دواعي سروري أن آتي الى الوطن

لم يفه راف بغير هذه الكلمات ولكن أغرورقت عينا مود بالدموع مع أنها تبسمت وهي تضحك قائلة

ـ أي سترانفير ، أحسنت . . . أحسنت في ذلك

وكانت في خارج المحطة عربة تركبها الجماعة . وكان الطريق الى القصر يجتاز التل فاستطاع دونالد ورجاله أن يسيروا وراء العربة جنبا الى جنب دون مشقة . الى أن بلغوا منحنيا في الطريق فوقعت عينا راف على حصن ضخم ، تمتد أطرافه الى سفح التل ، وتقوم خلف جبهته الرمادية أشجار السنوبر الشامخة

نعم كان للمشهد ذا هيبة في النفس ، وتذكر راف الذي رآه لاول مرة بعينين غريبتين هاله ما رأى وقال بلسان متلعثم

ـ هل هذا . . . هل هذا . . . ؟

فاجابته مود قائلة

ـ نعم هذا قصر حلمفير ، معقل الاسكتلندي

وكانها أرادت أن تضيف تحيتها الى تحية قومه فوضعت يدها على يده